غيث المواهب العلية

في شرح

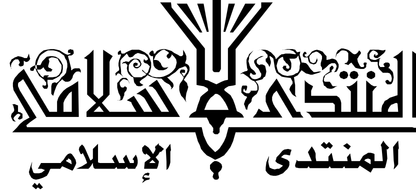
الحكم العطائية

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١١م

رقم التصنيف	: ٢٩٠
المـؤلـف	: النفزي، محمد بن إبراهيم بن عباد
عنوان الكتاب	: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية
الموضوع الرئيسي	: التصوف
بيانات النشر	: المنتدى الإسلامي

حكومة الشارقة



هاتف ٥٦٦٨٨٥٥ /٠٦ **براق** ٠٦/٥٦٦٨٨٦٦

ص.ب ٢٥٦٥٦ الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

www.muntada.org.ae

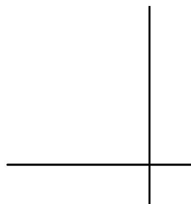
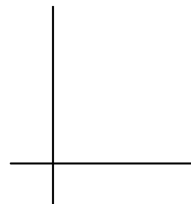
غيث المواهب العليّة

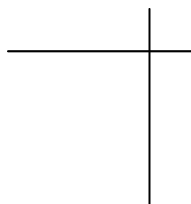
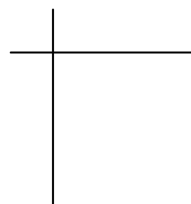
في شرح

الحِكم العطائيّة

الإمام المفسّر المحدّث الفقيه المربّي أحمد بن محمد بن عبد الكريم
المشهور بابن عطاء الله السكندري
« ت : ٧٠٩ هـ »

لِلإمامِ أبي عبدِ اللهِ محمّدِ بنِ إبراهيمَ بنِ عبّادٍ
النّفزيّ الرّنديّ الفاسيّ
المتوفى سنة ٧٩٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال العبد الفقير إلى الله ، المعتمد في غفران ذنوبه على الله، محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي، لطف الله به:

الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال، المتوحد باستحقاق نعوت الكمال، المنزه عن الشركاء والنظراء والأمثال، المقدس عن سمات الحدث من التغير والانتقال والاتصال والانفصال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، والصلاة على سيدنا محمد الهادي من الضلال، وعلى آله وأصحابه الذين خلصت لهم الأعمال، وصفت لهم الأحوال، وعلى جميع من اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الخلال، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإنا لما رأينا كتاب "الحكم" المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف المكاشف الوليّ أبي الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري – رضي الله عنه ونفعنا به– من أفضل ما صنف في علم التوحيد، وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، لكونه صغير الجرم عظيم العلم، ذا عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طرقات العارفين والموحدين، وإبانة

مناهج السالكين والمتجردين، أخذنا في وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة، ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وما تضمنه من لباب اللباب، لأن كلام الأولياء والعلماء منطو على أسرار مصونة، وجواهر حكم مكنونة، لا يكشفها إلا هُم، ولا يتبين حقائقها إلا بالتلقي عنهم.

ونحن في هذه الكلمات التي نوردها، والمناحي التي نعتمدها غير مدّعين لشرح كلام المؤلف، ولا أنّ ما نذكره فيه هو حقيقة مرادهم حسبما يفعله كل مصنف، فإنا إن ادعينا ذلك كان منّا إساءة أدب، تؤول بنا – والعياذ بالله – إلى العطب، وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر، في تعاطي ما لا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى من غير خوف ولا حذر، وإنا نورد ذلك على حسب ما فهمناه من كلامهم، وما انتهى إلينا علمه من مذاهبهم، فإن وافقنا فيه حقيقة الأمر وعثرنا على مكنون السر، كان ذلك من النعم التي لا نحصي لها شكرا ولا نقدر لها قدرا، وإن خالفنا ذلك ولم نهتدي إلى تلك المسالك، أحلناه على نقصنا وجهلنا، وانتفى عنا التغرير بقولنا وفعلنا، واقتصر الأمر في ذلك علينا وكانوا هم مبرئين مما قلنا ونوينا، فلا جرم إذا كان هذا مقصدنا، لوجود السلامة التي جعلناها معتمدنا.

فينبغي لنا أن نقدم أولا كلام المؤلف رحمه الله مستوفىً، ثم نتبعه كلامنا بصيغة الخبر والدعوى، ونأتي فيه بعبارة أبسط من عبارته، وإشارة أجلى من إشارته، ليفهم بذلك ما عندنا في تفسير ما ذكره، لا أنه تفسيره حقيقة مقررة، ونذكر في أثنائه كثيرا

مما ناسب عندي من الكلام المنبّه عليه، لتتم بذلك الفائدة في الغرض المتوجه إليه، وما ظهر لنا في كلامه من تكرار معان وتداخل فروع ومبان رأينا التنبيه عليه كالفرض، وأحلنا بعضه على بعض.

وعلى الناسخ لهذا المجموع أن يتّبع فيه ما رسمناه، ويكتب نصّ كلام المؤلف بصبغ يخالف لونه لون ما يكتب به سواه، أو يكتبهما بقلمين مختلفين في الغلظ والرقّة، ويوفى من ذلك كلا منهما حقّه، ليكون ذلك أقرب إلى حصول المرام في استخراج فائدة ترتيب الكلام، والله الموفّق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

والذي حملني على وضعه، وتكلّف تصنيفه وجمعه، بعد تقدّم إرادة الله تعالى التي لا تغلب، وتقديره الذي ليس للعبد منه منجى ولا مهرب، ثم الرأي الذي رأيناه من المطالب والمقاصد المعظمة، ونبّهنا عليه في صدر هذه المقدّمة، إلحاح بعض الأصحاب في ذلك عليّ، وتردادهم بالمسألة إليّ، لكونهم على اعتقاد صحيح في هذه الطريقة، ومحبّة خالصة لأهل الحقيقة، فأسعفتهم بما طلبوه، وحققت لهم الأمل فيما رغبوه، كما شاء الله تعالى وحكم، وقضى به علينا وحتم، نفعنا الله وإياهم بما يجري منه على يدينا، ولا جعله حجّة عليهم ولا علينا، ونحن نستغفر الله تعالى مما تعاطيناه من الأمر العظيم، واقتحمناه من الخطر الجسيم، ونستعيذ به من الوقوع في حبائل العدوّ الرجيم، ونسأله توفيقا يقف بنا على جادّة الاستقامة، ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة أو ندامة، ونرجوه مع هذا إذ منّ علينا بالانتماء إلى مذاهبهم، والانتساب إلى كريم مناسبهم، والتعلّق بأذيالهم، ومحاولة النسج على منوالهم،

ورزقنا شيئا من تعظيمهم وحبّهم، وقسطا من تكريمهم وبرّهم، أن لا يحرمنا من شفاعتهم ولا يخرجنا من كنف ولايتهم، ولا يطردنا عن بابهم الكريم، ولا يصرفنا عن منهجهم القويم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم:

لي سادةٌ من عزّهم أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلي في ذكرهم عزّ وجاه

اللهم إنّا نتوسل إليك بحبّهم، فإنّهم أحبّوك، ولم يحبوك حتى أحببتهم، فبحبّك إيّاهم وصلوا إلى حبّك، ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلاّ بحظنا منك، فتمم لنا ذلك حتى نلقاك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلِّم عليهم تسليما كثيرا.

وهذا حين ابتدائي وبالله التوفيق، والهداية إلى سواء الطريق.

قال المؤلف رضي الله عنه:

١. مِنْ عَلاَمَةِ الاعْتِمَادِ عَلَى العَمَلِ نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ.

أقول: الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين، والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين، كائنا ما كان ذلك الغير حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم.

أما العارفون الموحّدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربّهم، فانون عن أنفسهم، فإذا وقعوا في زلّة أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحقّ تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم.

كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة، أو لاح عليهم لائح من يقظة، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم، ولم يروا فيها حولهم ولا قوّتهم، لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربّهم، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين، لأنهم غرقى في بحار التوحيد، قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان.

قال "شارح المجالس": «العارفون قائمون بالله قد تولّى الله أمرهم، فإذا ظهرت منهم طاعة، لم يرجوا عليها ثوابًا، لأنهم لم يروا أنفسهم عمّالا لها، وإن ظهرت منهم زلّة فالدية على العاقل، لم يشاهدوا غيره في الشدة والرخاء، قيامهم بالله، ونظرهم إليه، وخوفهم هيبته، ورجائهم الأنس به».

وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم في نسبة الأفعال إليها، وطلب الحظّ لها وعليها، فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم، فإذا وقعوا في زلّة نقص بذلك رجاؤهم، كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم، فتعلّقوا بالأسباب، وحجبوا بتصرّفهم بها عن ربّ الأرباب، فمن وجد هذه العلامة في نفسه فليعرف منزلته وقدره، ولا يتعدّ طوره، فيدّعي مقامات الخاصة من المقرّبين، وإنما هو من عامّة أصحاب اليمين، وستأتي إشارات إلى هذه المعنى في مواضع من كلام المؤلف رحمه الله.

و قد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني عن

يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنهم، قال: «عارضني بعض الناس في كلامٍ وقال لي: لا تستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب، فقلت مجيبا: لو أن التوبة تطرق بابي ما أذنت لها على أنّي أنجو بها من ربّي، ولو أن الصدق والإخلاص كانا عبدين لي لبعتهما زهدًا مني فيهما، لأنّي إن كنت عند الله في علم الغيب سعيدًا مقبولًا، لم أتخلّف باقتراف الذنوب والمآثم، وإن كنت عنده شقيًا مخذولًا لم تسعدني توبتي وإخلاصي وصدقي، وإن الله خلقني إنسانًا بلا عمل، ولا شفيع كان لي إليه، وهداني لدينه الذي ارتضاه لنفسه، فقال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فاعتمادي على فضله وكرمه أولى بي إن كنت حرًا عاقلا من اعتمادي على أفعالي المدخولة وصفاتي المعلولة، لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلّة المعرفة بالكريم المتفضّل».

قلت: وهذه الحكاية وأمثالها ربما تقرع سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم، فينكر معناها ولا يعتقده، أو يسلّمه ويدّعيه مقاما لنفسه، وكلتا الحالتين مؤدّية بصاحبها إلى ضرر وخطر، فليتق الله تعالى عبد ليس له بصر في هذه الطريقة أن ينكر ما ذكرناه فيقع في الاعتراض على السادة والأولياء، وفي ذلك بعده من الله تعالى، أو يدّعيه مقاما لنفسه من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها، ويزنها بالمعيار الذي نبهنا عليه. ومحال وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الفناء عن النفس، فيرتكب حينئذ مساخط الله تعالى ويتعدى حدوده، ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا، وهذا باب من الزندقة والعياذ بالله تعالى.

٢ . إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ الله إِيَّاكَ فِي الأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفِيَّةِ، وَإِرَادَتُكَ الأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ الله إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ اِنْحِطَاطٌ عَنِ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ.

الأسباب: ها هنا عبارة عمّا يتوصّل به إلى غرض مما ينال في الدنيا.

والتجريد: عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب لأجل ذلك، فمن أقامه الحق تعالى في الأسباب وأراد هو الخروج منها فذلك من شهوته الخفية، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك، وإنما كانت خفيّة لأنه لم يقصد بذلك نيل حظٍ عاجل، وإنما قصد بذلك التقرّب إلى الله تعالى بكونه على حال هي أعلى بزعمه، لكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه، وتطلّعه إلى مقام رفيع لا يليق به في الوقت.

وعلامة إقامته إياه في الأسباب أن يدوم له ذلك، وأن تحصل له ثمرته ونتيجته، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة في دينه، وقطعا لطمعه عن غيره، وحسن نيّة في صلة رحم، أو إعانة فقير معدم، إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلّقة بالدين.

ومن أقامه الحقّ تعالى في التجريد، وأراد الخروج منه إلى الأسباب، فذلك من انحطاط همّته وسوء أدبه، وكان واقفا مع شهوته الجليّة، لأن التجريد مقام رفيع أقام الحقّ تعالى فيه خواصّ عباده من الموحّدين والعارفين، فإذا أقامه الحقّ تعالى مقام الخواصّ فَلِمَ ينحطّ عن رتبتهم إلى منازل أهل الانتقاص؟!

قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «من لم يأنف من مشاركة الأنداد في الأسباب فهو خسيس الهمّة»، وعلامة إقامته إيّاه في التجريد ما ذكرناه من الدوام ووجدان الثمرة، ومن ثمرات ذلك: طيب وقت المتجرّد، وصفاء قلبه، ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم.

والهمة: حالة للقلب، وهي قوة إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصودٍ مّا، وتكون عالية إن تعلّقت بمعالي الأمور، وسافلة إن تعلّقت بأدانيها، قال الشاعر:

وقائلة لِمَ علتك الهموم ... وأمرك ممتثل في الأمم

فقلت: ذريني على حالي ... فإن الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر:

إذا أعطشتك أكّف اللئام ... كفتك القناعة شبعا وريًّا

فكن رجلا رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريّا

فإن إراقة ماء الحيا ... ةِ دون إراقة ماء المحيّا

وما ذكرته من معاني الإقامة في نوعي الأسباب والتجريد هو شيء فهمته مما يقوله بعد هذا: (من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إيّاك فيه مع حصول النتائج)، والله أعلم.

وقد ذكر في "التنوير" هذه المسألة بنصّها، حاكيًا عن هذا الكتاب، وقال بأثره: «وافهم –رحمك الله– إنّ من شأن العدوّ أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيه،

فيحقّره عندك لتطلب غير ما أقامك الله فيه، فيشوّش عليك قلبك ويكدّر وقتك، وذلك أنه يأتي للمتسببين فيقول: لو تركتم الأسباب وتجردتم لأشرقت لكم الأنوار، ولصفت منكم القلوب والأسرار، وقائلا: وكذلك صنع فلان وفلان، ويكون هذا العبد ليس مقصودًا بالتجريد، ولا طاقة له به، إنما صلاحه في الأسباب، فيتركها، فيتزلزل إيمانه، ويذهب إيقانه، ويتوجّه إلى الطلب من الخلق، وإلى الاهتمام بأمر الرزق، فيرمى في بحر القطيعة، وذلك قصد العدوّ منه، لأنه إنما يأتيك في صورة ناصح كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠ -٢١] كما تقدم بيانه.

وكذلك يأتي المتجرّدين، ويقول لهم: إلى متى تتركون الأسباب؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلّع معه القلوب إلى ما في أيدي الناس، ويفتح باب الطمع، ولا يمكنكم الإسعاف والإيثار، ولا القيام بالحقوق، وعوض ما تكون منتظرا ما يفتح به عليك، فلو دخلت في الأسباب بقي غيرك منتظرا ما يفتح الله به عليه منك، إلى غير ذلك.

ويكون هذا العبد قد طاب وقته، وانبسط نوره، ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق، فلا يزال به حتى يعود إلى الأسباب فتصيبه كدورتها وتغشاه ظلمتها، ويعود الدائم في سببه أحسن حالا منه، لأن ذلك ما سلك طريقا ثم رجع عنها، ولا قصد

مقصدًا ثم انعطف عنه، فافهم واعتصم بالله منه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه، وأن يخرجهم عن مختار الله لهم إلى مختارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولّى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكَلَكَ إليك، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالمدخل الصدق أن تدخل فيه بربّك لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضًا كذلك، فافهم.

والذي يرتضيه الحقّ منك أن تمكث حيث أقامك، حتى يكون الحقّ سبحانه هو الذي يتولّى إخراجك كما تولّى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب، بل الشأن أن يتركك السبب.

قال بعضهم: «تركت السبب كذا كذا مرة فعدت إليه، ثم تركني السبب فلم أعد إليه».

ودخلت على الشيخ رضي الله عنه وفي نفسي العزم على التجريد، قائلا في نفسي: إن الوصول إلى الله على هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس، فقال لي من غير أن أسأله: صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة

ومتصدّر فيها، فذاق من هذه الطريقة شيئا، فجاء إليّ، فقال: يا سيدي، أخرج عما أنا فيه وأتفرّغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن أمكث فيما أنت فيه، وما قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل. ثم قال الشيخ، ونظر إلي: وهكذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى إخراجهم، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، ووجدت الراحة في التسليم إلى الله تعالى، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: «**هُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**». انتهى كلامه في "التنوير" في هذا المعنى، وهو كلام حسن، وإنما أثبتناه هاهنا على طوله، لأنه تولّى فيه بيان مسألته التي ذكرها في هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا، فنقلناه بلفظه، ووددنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا.

٣ . سَوَابِقُ الهِمَمِ لاَ تَخْرِقُ أَسْوَارَ الأَقْدَارِ.

الهمم السوابق: هي قوى النفس التي ينفعل عنها بعض الموجودات بإذن الله تعالى، وتسميها الصوفية "همّة" فيقولون: أحال فلان همّته على أمر ما فانفعل له ذلك، وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر، وهو معنى قولنا: بإذن الله تعالى. فهي على حال سبقيتها ونفوذها لا تخرق أسوار الأقدار، ولا تنفذها.

وهذه الهمم قد تكون للأولياء كرامات، وقد تكون لغيرهم استدراجًا، ومكرًا، كما تكون للعائن والساحر.

وقد ثبت أن العين حق والسحر حق، ومعناه ما ذكرناه.

وحاصل ذلك: أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية، وأن الفاعل هو الله تعالى، وجده عندها لا بها، وكأن المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسألة بين يدي كلامه في "التدبير" ليعرف بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ولا فائدة، لأن الهمة الفعّالة إذا لم تفد في خرق أسوار الأقدار شيئا فكيف يفيد في ذلك التدبير؟ وما لا فائدة فيه فضول لا ينبغي أن يتشاغل به، ويتعب فيه ذوو العقول، ولذلك قال:

٤ . أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنكَ لاَ تَقُم بِهِ لِنفسكَ.

تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذي نقوله مذموم، لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك، وقام به عنهم، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه، ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط، وهو أن يقدر العبد لنفسه شؤونا يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال، ويستعد لذلك ويهتم لأجله، وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه ويبطل سعيه، ثم فيه من ترك العبودية ومضادة أحكام الربوبية ومنازعة القدر وإضاعة العمر ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع مواده وأسبابه.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم».

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «إن كان ولابدّ من التدبير، فدبروا أن لا تدبروا».

وهذه المسألة أساس طريق القوم، بل هي جملته وكليته، والكلام فيها طويل عريض، وإنما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه، لأن المؤلف رحمه الله أفرد في هذا المعنى كتابا سماه "التنوير في إسقاط التدبير" أحسن فيه غاية الإحسان، وقرّب الأمر فيه بحيث يستغنى به عما صنف في هذه الطريقة من ديوان، فتحصيله متعيّن على كل مريد نجيب.

٥ . اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ: دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ البَصِيرَةِ مِنْكَ.

الشيء المضمون للعبد هو رزقه الذي يحصل له به قوام وجوده في دنياه.

ومعنى كونه مضمونا: أن الله تعالى تكفّل بذلك، وفرّغ العباد عنه، ولم يطلب منهم الاجتهاد في السعي فيه ولا الاهتمام له.

والشيء المطلوب من العبد هو العمل الذي يتوصل به إلى سعادة الآخرة، والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات.

ومعنى كونه مطلوبا: أنه موكل إلى اكتساب العبد له واجتهاده فيه، ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته، بهذا جرت سنة الله تعالى في عباده، قال الله عزّ وجلّ في المعنى الأول الذي ضمنه للعبد: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى في المعنى الثاني الذي طلبه منه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

وقد روي في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «عبدي، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ، وَلَا تُعْلِمْنِي بِمَا يُصْلِحُكَ».

وذكر في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُشَرِّفُونَ المُتْرَفِينَ، وَيَسْتَخِفُّونَ بِالعَابِدِينَ، وَيَعْمَلُونَ بِالقُرْآنِ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ تَرَكُوهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، يَسْعَوْنَ فِيمَا يُدْرَكُ بِغَيْرِ سَعْيٍ مِنَ القَدَرِ المَقْدُورِ وَالأَجَلِ المَكْتُوبِ وَالرِّزْقِ المَقْسُومِ، ولاَ يَسْعَوْنَ فِيمَا لا يُدْرَكُ إلاَّ بِالسَّعْيِ مِنَ الجَزَاءِ المَوْفُورِ وَالسَّعْيِ المَشْكُورِ وَالتِّجَارَةِ الَّتِي لا تَبُورُ».

وقال إبراهيم الخواص: «العلم كله في كلمتين: لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت».

فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه: من الاجتهاد في الأمر المطلوب منه، وتفريغ القلب من الأمر المضمون له، فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق في قلبه، وحصل على غاية المقصود.

ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة أعمى القلب، وفعله دليل على ذلك.

والبصيرة: ناظر القلب، كما أن البصر: ناظر العين.

وناظر القلب إنما ينظر إلى العاقبة، والعاقبة للمتقين، فالتقوى هي التي يجب على العبد أن يجتهد فيها ولا يتوانى، ويقصّر عمّا يمنع منها.

وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام، وهو كذلك، لأنه مباح ومأذون فيه، فلا يدل ذلك على

انطماس بصيرة صاحبه، إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به، قال في "التنوير" في قوله تعـالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طـه: ١٣٢]؛ أي: قم بخدمتنا، ونحن نقوم لك بقسمتنا، وهما شيئان: شيء ضمنه الله لـك فـلا تـتهم به، وشيء طلبه منك فلا تهمله.

فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه فقد عظم جهله واتسعت غفلته، وقلَّ ما ينتبه لمن يوقظه، بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن لـه، إذا كـان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود، كيف لا يـرزق أهـل الشـهود، وإذا كـان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران، كيف لا يجرى رزقه عـلى أهـل الإيـمان؟ فقد علمت أيهـا العبـد أن الـدنيا مضـمونة لـك، أي: مضـمون لـك منهـا مـا يقـوم بأودك، والآخرة مطلوبة منك، أي: العمل لها، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فكيف يثبت لك عقـل أو بصـيرة، واهتمامـك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة؟!

حتى قال بعضهم: «إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منّا الآخرة، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منّا الدنيا».

٦ . لاَ يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ العَطَاءِ مَعَ الإِلحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ، فَهُـوَ الـذي ضَمِنَ لَكَ الإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ لاَ فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الوَقْـتِ الَّـذِي يُرِيـدُ لاَ فِي الوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ.

حكم العبد أن لا يتخير شيئا على مولاه، ولا يجزم بصلاحية حال من الأحوال لـه،

لأنه جاهل من كل وجه، قد يكره الشيء وهو خير له، ويحب الشيء وهو شر له.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: « لا تختر من أمرك شيئا، واختر أن لا تختار، وفرّ من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء إلى الله عز وجل ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]».

ودخل رجل على سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه وهو يتألم لما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي. فسكت ولم يجاوبه، ثم سكت ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدي. فقال الشيخ أبو العباس: وأنا ما سألت الله العافية؟ وقد سألته العافية، والذي أنا فيه هو العافية، رسول الله ﷺ قد سأل الله العافية، وقال: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، والآن قد قطعت أبهري**»».

وهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مسموما، وسيدنا عمر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مطعونا، وسيدنا عثمان رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحا، وسيدنا علي رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا، فإذا سألت الله العافية فاسأله العافية من حيث يعلمها لك أنها عافية.

فعلى العبد أن يسلم نفسه إلى مولاه، ويعتقد أن الخيرة له في جميع ما به يتولاه، وإن خالف ذلك مراده وهواه، فإذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالإجابة لا محالة، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعن جابر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ مَا سَأَلَ، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**».

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ دَعْوَتَهُ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِثْلَهَا سُوءًا، أَوْ حَطَّ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِهَا، مَا لَمْ يَدَعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطْيعةِ رَحِمٍ**».

فإذن، الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق، إلا أن الإجابة أمرها إلى الله تعالى يعجلها متى شاء، وقد يكون المنع وتأخير العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى في ذلك، فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعًا أو تأخيرًا، وإن ألحَّ في دعائه وسؤاله، وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرًا له، فقد جاء في بعض الأخبار: « **يبعث عبدٌ فيقول الله تعالى: ألم آمرك برفع حوائجك إلي؟ فيقول: نعم، وقد رفعتها إليك، فيقول الله تعالى: ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه، ولكن أنجزت البعض في الدنيا، وما لم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك، فخذه الآن، حتى يقول ذلك العبد: ليته لم يقض لي حاجة في الدنيا**».

وقد ورد عن رسول الله ﷺ معنى النهي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**».

وقد دعا موسى وهارون عليهما السلام على فرعون، فيما أخبر الله به عنهما، حيث قالا: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] قالوا: وكان

بين قول الله تعالى لهما قد أجيبت دعوتكما، وهلاك فرعون أربعون سنة.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على عدم استعجال ما طلبتما، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: هم الذين يستعجلون الإجابة.

وناهيك شرفًا وحظًا ما يحصل له بسبب مداومة الدعاء من الظفر بمحبة الله تعالى، وموافقة رضاه، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ**».

وقد جاء في الحديث «**قَالَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلام: يَا رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ اقْضِ لَهُ حَاجَتَهُ، فَيَقُولُ: دَعُوا عَبْدِي فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ**»، رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ.

ومقتضى هذا: أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته، وقد روي هذا المعنى أيضا منصوصا، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه. قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «كل من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره، وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج، وهو ممن قيل له: اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته، فإذا كان في دعائه مع اختيار الحق تعالى، لا مع اختيار نفسه كان مجابا وإن لم يعط، والأعمال بخواتمها»، اهـ.

وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعي بها، فتتأخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه، وذلك مثل وجود الاضطرار، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل: ٦٢] فرتب الإجابة على الاضطرار».

وقال بعض العارفين: «إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار في الدعاء».

والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته. قال بعضهم: «المضطر الذي إذا رفع إلى الله يده لم ير لنفسه عملا»، وهذا حال شريف ومقام منيف، يعزّ على أكثر الناس الوصول إليه، فكيف يتحقق ما ينبني عليه؟ وفي المسألة التي تأتي بإثر هذا تنبيه على هذا المعنى:

٧. لاَ يُشَكِّكَنَّكَ فِي الوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ المَوْعُودِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ؛ لِئَلاَّ يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ، وَإِخْمَادًا لِنُورِ سَرِيرَتِكَ.

الحق سبحانه لا يخلف الميعاد، فمن وعده مولاه شيئا، وإن كان معيّن الزمان، ثم لم يقع ذلك الموعود، فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه، ويجوز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد، فعلى العبد أن يعرف قدره، ويتأدب مع ربّه، ويسكن إليه فيما وعده به، ويطمئن إليه، ولا يتشكك في ذلك، ولا يتزلزل اعتقاده فيه، فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى، سالم البصيرة، منور السريرة، وإلا فعلى العكس.

٨. إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلاَ تُبَالِ مَعَهَا إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلاَّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ، وَالأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ؟ وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟

معرفة الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرّف له منها، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرّبين، المؤدّي إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد، ولا تعمل، والأعمال التي من شأنه أن يتلبس بها هي باكتسابه وتعمله، فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما أمله من الثواب عند مناقشة الحساب، وأين أحدهما من الآخر؟

ومثاله: ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التي تُنَغِّص عليه لذات الدنيا، وتمنعه من تكثير أعمال البر، فإن مراده أن يستمر بقاؤه في دنياه، طيب العيش ناعم البال، ويكون حاله في طلب سعادة الآخرة حال المترفهين المتودعين، فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة، التي لا كبير مؤنة عليه فيها، ولا مشقة، ولا تقطع عليه لذته، ولا تفوِّته شهوته.

ومراد الله منه: أن يطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده، ولا سبيل له إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام، إلا بما يضادّ مراده، ويشوش عليه معتاده، ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة.

فإذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ومراده منه خير له من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «**أنزلت بعبدي بلاء فدعاني، فماطلته بالإجابة فشكاني، فقلت: عبدي كيف أرحمك من شيء به أرحمك**».

وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال، قال الله تبارك وتعالى: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ، فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَنْشَطْتُهُ مِنْ عقَالِي، وَأَبْدَلْتُهُ لحمًا خَيْرًا مِنْ لَحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، وَيُسْتَأْنَفُ العَمَل**».

وروي عن سعيد المقبري قال: سمعت أبا هريرة ﵁ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «**إِنِّيْ أَبْتَلِيْ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ، فَإِذَا لَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ حَلَلْتُ عَنْهُ عُقْدِيْ، وَبَدَّلْتُهُ لَحمًا خَيْرًا مِنْ لَحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: اِسْتَأْنِفِ العَمَلَ**».

قال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: «ولقد مرضت في سالف أيامي مرضة، فلما شفاني الله تعالى منها مثَّلتُ في نفسي ما دبر الله تعالى لي من هذه العلة في مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين في قدر أيام علتي، فقلت: لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لي عبادة الثقلين في مقدار مدتها إلى أيهما يميل اختياري؟ فصحّ عزمي ودام يقيني ووقعت بصيرتي: أن مختار الله تعالى لي أكثر شرفا وأعظم خطرا وأنفع عاقبة، وهي العلة التي دبرها لي، ولا شوب فيه إذ كان فعله، فشتان بين فعله بك لتنجو به وبين فعلك لتنجو به، فلما رأيت ذلك دقّ في عيني عبادة الثقلين مقدار تلك المدة في جنب ما آتاني، فصارت العلة عندي نعمة،

وصارت النعمة منّة، وصارت المنة أملا، وصار الأمل عطفا، فقلت في نفسي: بهذا كانوا يستمرون في البلاء على طيب النفوس مع الحق، وبهذا الذي انكشف كانوا يفرحون بالبلاء» انتهى.

فهذه هي وجهة التعرف التي فتحها الله تعالى له، وحصلت له الغبطة بها، وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم، فإذا أورد الله تعالى على العبد شيئا من البلايا فليستشعر ما ذكرناه، وليجعله نصب عينه، وليجدّد تذكاره على نفسه، حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك، ويزيل عنه مرارته، ويوجده حلاوته، وعند ذلك يكون حاله في بلائه حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به، فيرى من حقّ شكره أن يأتي بما يمكنه من أعمال برّه، واعتبر جميع ما قلناه في هذه المسألة بالحكاية التي ذكرها أبو العباس ابن العريف رحمه الله في كتابه "مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الإرادة" قال فيه:

كان بالمغرب -عمّره الله بالإسلام- رجل يدعى "أبا الخيار" رحمه الله، ونفعنا بذكره، أصله من "صقلية" وموطنه بغداد، وجاوز سنّه التسعين وهو في الرّق لم يعتقه مولاه، وذلك منه عن قصد واختيار، وعمّ جسده الجذام، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة، قال الذي حدّثني: رأيته يصلّي على الماء، ثم لقيت بعده "محمدا الإسفنجي"، فإذا هو أبرص، فقلت له: يا سيدي، كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلّا من أعدائه حتى أنزله بكم، وأنتم خاصة أوليائه.

قال: فقال لي: اسكت، لا تقل ذلك، إنّه لمّا أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله شيئا أشرف ولا أقرب إليه من البلاء، فسألناه إيّاه، فكيف بك لو رأيت سيّد الزهّاد وقطب العباد وإمام الأولياء والأوتاد في غار بأرض "طرسوس" وجبالها، لحمه يتناثر وجسده يسيل قيحا وصديدا، وقد أحاط به الذباب والنمل، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة وأسكن جسده من العافية حتى يشدّ نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامّة ليله، حتى يطلع الفجر»، انتهى.

وسيأتي شيء من كلام المؤلف رحمه الله في هذا المعنى والتنبيه عليه، والله ولي التوفيق.

٩ . تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الأعْمَالِ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الأحْوَالِ.

واردات الأحوال، هي: ما يرد على القلوب من المعارف الربّانيّة والأسرار الروحانية، وهي توجب لها أحوالا حميدة، فمنها وارد يوجب هيبة، ومنها وارد يوجب أنسا، ومنها وارد يوجب قبضا، ومنها وارد يوجب بسطا، إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال.

ولمّا كانت هذه الواردات متنوعة كانت أجناس الأعمال التي تقضيها هذه الواردات أيضًا متنوعة، والأعمال الظاهرة أبدا تبعٌ لأحوال القلوب الباطنة، كما سيقول المؤلف بعد هذا، في قوله: (حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال).

١٠ . الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإِخْلَاصِ فِيهَا.

إخلاص كل عبد في أعماله على حسب رتبته ومقامه، فأمّا من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجليّ والخفيّ، وقصد موافقة الهوى النفس طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب، وهربا عما أوعد به المخلطين من أليم العذاب وسوء الحساب، وهذا من التحقيق بمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلّا إيّاك، ولا نشرك في عبادتنا غيرك.

وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره في أعمال برّه، مع بقاء رؤيته لنفسه في النسبة إليها والاعتماد عليها، وأمّا من كان منهم من المقرّبين فقد جاوز هذا إلى عدم رؤيته لنفسه في عمله، فإخلاصه إنما هو شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه في ذلك حولًا ولا قوة، ويعبّر عن هذا المقام بالصدق الذي يصح به مقام الإخلاص، وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين، وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلّا بك، لا بأنفسنا وحولنا وقوّتنا، فعمل الأول هو العمل لله وعمل الثاني هو العمل بالله، فالعمل لله يوجب المثوبة والعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، والعمل لله نعت كلّ عابد والعمل بالله نعت كلّ قاصد، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر والعمل بالله قيام بالضمائر. وهذه العبارة للإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه.

وبها يتبين الفرق بين المقامين، وتباينهما في الشرف والجلالة، فإخلاص كلّ عبد هو روح أعماله، فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها، ويكون فيها أهلية وجود القبول لها، وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار، وتكون إذ ذاك أشباحًا بلا أرواح، وصورا بلا معان.

قال بعض المشايخ: «صحّح عملك بالإخلاص، وصحّح إخلاصك بالتبرّي من الحول والقوة».

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الحالة التي إذا كان العبد عليها كان مخلصًا، فقال:

١١ . ادْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الخُمُولِ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لاَ يَتِمُّ نِتَاجُهُ.

لا شيء أضرّ على المريد من الشهوة وانتشار الصيت، لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ محبّة، والجاه وإيثار الاشتهار مناقض للعبودية التي هو مطالب بها.

قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: «ما صدق اللهَ من أحبّ الشهرة».

وقال بعضهم: «طريقتنا هذه لا تصلح إلّا لأقوام كنست أرواحهم المزابل».

وقال أيوب السختياني رضي الله عنه: «والله ما صدق اللهَ عبد إلا سرّه أن لا يُشعر بمكانه».

وقال رجل لبشر بن الحارث رضي الله عنه: «أوصني، فقال: أخمل ذكرك، وأطب مطعمك».

وقال بشر رضي الله عنه: «ما أعرف رجلا أحبّ أن يُعرف إلّا ذهب دينه وافتضح».

وقال أيضا: «لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس».

وقال الفضيل رضي الله عنه: «بلغني أن الله عزّ وجلّ يقول في بعض ما يمنّ به على عبده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟».

ثم إنّ تلك الأشياء الراجعة إلى محبّة الاشتهار والاستعلاء ممّا يقدح في إخلاص العبد على اختلاف مراتبه، لأنه إمّا سقوط الناس عن النظر إليهم، أو سقوط النفس عن النظر إليها، ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلّا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس، لأنّه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التي تبعثه على استمالة قلوب الخلق، لما يرى لنفسه عليهم من الحقّ، فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاء خفيًا، فينصبغ عمله بالرياء انصباغًا لا يتفطّن له، كما سيأتي عند قوله: (ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك) وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص، حتى يتخلّص بذلك من رؤية إخلاصه، وبهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس إلّا من رحم الله تعالى، وأن الإخلاص في غاية الصعوبة على النفس، وأنه أعزّ الأشياء في الوجود.

وقيل لسهل بن عبد الله رضي الله عنه: «أي شيء أشدّ على النفس؟ قال: الإخلاص، لأنها ليس لها فيه نصيب».

وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه: «أعزّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق النفس. والإخلاص عند المحبين: أن لا يعمل عملا لأجل النفس، وإلّا دخل عليه مطالعة العوض، أو تشوّف إلى حظّ طبع. والإخلاص عند الموحّدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال، وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال» انتهى.

فإذا أخمل العبد نفسه، وألزمها التواضع والمذلّة، واستمر على ذلك حتى صار له خلقا وجبلّة بحيث لا يجد لضعته ألماً ولا لمذلته طعماً فحينئذ تتزكىّ نفسه ويستنير بنور الإخلاص قلبه، وينال من ربّه أعلى درجات الخصوصية، ويحصل على أوفر نصيب من المحبّة الحقيقية.

قال الشيخ أبو طالب: «ومتى ذلّ في نفسه، واتّضع عند نفسه، فلم يجد لذلّته طعما ولا لضعته حسًّا فقد صار الذلّ والتواضع كونه؛ فهذا لا يكره الذمّ من الخلق لوجود النقص في نفسه، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة في نفسه، فصارت الذلّة والضّعة صفة لا تفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزّبال، والكِسَاحة للكَسَّاح،

وهما صنعتان له كسائر الصنائع، ربما فخر بهما لعدم النظر إلى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من ربّه قد ولّاه على نفسه، وملّكه عليها فقهرها بعزّه، وهذا مقام محبوب، وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب».

ثم قال أبو طالب: «ومن كان حاله مع الله تعالى الذلّ الذي طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبّر العزّ ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذلّ ساعة تغيّر قلبه لفراق حاله، كما أنّ المتعزّز إن فارق العزّ ساعة تكدّر عليه عيشه، لأن ذلك عيش نفسه» انتهى.

فإذاً، لابد للمريد من إسقاط جاهه وإخمال ذكره، وفراره عن موضع اشتهاره، وتعاطيه أموراً مباحة تسقطه من أعين الناس، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه، فجاء إليه، فلما علم بذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكله أكلا عنيفاً بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره وانصرف عنه ذامّا له.

وسيأتي نصّ هذه القصّة بعد هذا عند قوله: (ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك).

وقد بالغ بعض أئمة الصوفية رضي الله عنهم في مداومة علّة الجاه الذي علق بالقلوب حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع، ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمروا به، وذلك مثل قصّة الرجل الذي دخل الحمّام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر، ومشى بذلك متمهلا بحيث يُرى ويظنّ

به السرقة، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ونزعوا الثياب عنه، واشتهر عندهم بالسرقة، حتى كان يعرف عندهم بـ "لصّ الحمام"، فحينئذ وجد قلبه.

ومثله ما يروى عن أبي يزيد رضي الله عنه في قصّة الشاهد الذي أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز في عنقه، وإعطائه من ذلك لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحالة في المحافل والمحاضر.

والحكايتان مشهورتان، ذكرهما الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه وغيره.

قال بعض المصنفين: «وإذا جاز لمن غصّ بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره، مع أن تحريمه مقطوع به، ولا تفوته إلّا حياة فانية، فلئن يجوز مثل هذا إذا تعيّن أولى، إذ تفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات ماتت نفسه وحيي قلبه، وقرب من حضرة ربّه، واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام، وتلك الثمرة أخلاق الإيمان التي تكيّفت بها نفسه، وصارت كالصفات الذاتية له، وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله في قلوب عباده المتواضعين: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩].

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: «أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، فقال عيسى عليه السلام: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض».

قلت: وقد ورد عن النبي ﷺ في مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة، منها:

ما روى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله عز وجل: «إنّ أغبط أوليائي عندي المؤمن خَفِيفُ الحَاذِ، ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلاَةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ لاَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً فَصَبَرَ على ذَلِكَ، ثُمَّ نَفَضَ بِيَدِهِ فَقَالَ: عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ، قَلَّ تراثه».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ».

وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ يَسِيرًا مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللهِ فَقَدْ بَارَزَ اللهَ بِالْمُحَارَبَةِ، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديثه الذي نوه فيه باسم "أويس القرني"، وأشاد بذكره، ونبّه على عظيم أمره رضي الله عنه أنه قال: «بَيْنَمَا نَحنُ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ قَالَ: «لَيُصَلِّيَنَّ مَعَكُمْ غَدًا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَطَمِعْتُ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَغَدَوْتُ فَصَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَقَمْتُ فِي المَسْجِدِ حَتَّى انْصَرَفَ النَّاسُ، فَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ ﷺ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَسْوَدُ مُتَّزِرٌ بِخِرْقَةٍ مُرْتَدٌّ بِمُرُقْعَةٍ، فَجَاءَ حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، وَإِنَّا لَنَجِدُ مِنْهُ رِيحَ المِسْكِ الأَذْفَرِ،

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ لَمَمْلُوك بَنِي فُلَانٍ، قُلْتُ: أَفَلا تَشْتَرِيهِ فَتُعْتِقُهُ يَا نَبِيَّ الله؟ فَقَالَ: وَأَنَّى لِي بِذَلِكَ إِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ مُلُوكِ الجَنَّةِ وَسادَاتِهِم يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنَّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ مُلُوكًا وَسَادَةً، وَإِنَّ هَذَا الأَسْوَدَ أَصْبَحَ مِنْ مُلُوكِ الجَنَّةِ وَسَادَاتِهِمْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنَّ اللهَ عز وجل يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ الأَصْفِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الأَبْرِيَاءَ الأَتقِيَاءَ، الشَّعِثَةَ رُؤُوسُهُمُ، المُغْبَرَّةَ وُجُوهُهُمُ، الخَمِصَةَ بُطُونُهُمْ مِنْ كَسْبِ الحَلَالِ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ، وَإِنْ خَطَبُوا المُتَنَعِّمَاتِ لَمْ يُنْكَحُوا، وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا، وَإِنْ طَلَعُوا لَمْ يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهِمْ، وَإِنْ مَرِضُوا لَمْ يُعَادُوا، وَإِنْ مَاتُوا لَمْ يُشْهَدُوا. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ لَنَا بِرَجُلٍ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «ذَلِكَ أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ» قَالُوا: وَمَا أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ؟ قَالَ: أَشْهَلُ، ذُو صُهُوبَةٍ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، مُعْتَدِلُ القَامَةِ، آدَمُ شَدِيدُ الأُدْمَةِ، ضَارِبٌ بِذَقْنِهِ إِلَى صَدْرِهِ، رَامٍ بِنَظَرِهِ إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَاضِعٍ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، يَتْلُو القُرْآنَ، يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ، ذُو طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ، مُتَّزِرٌ إِزَارِ صُوفٍ وَرِدَاءِ صُوفٍ، مَجْهُولٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ، مَعْرُوفٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّ قَسَمَهُ، أَلاَ وَإِنَّ تَحْتَ مَنْكِبِهِ الأَيْسَرِ لُمَعَةٌ بَيْضَاءُ، أَلاَ وَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قِيلَ لِلعِبَادِ اُدخُلُوا الجَنَّةَ، وَيُقَالُ لِأُوِيسِ القَرنِي: قِف فَاشفَع، فَيَشفَعُهُ الله فِي مِثلِ عَدَدِ رَبِيعَةَ وَمُضر، يَا عُمَر وَيَا عَلِي إِذَا أَنتُمَا لَقِيتُمَاه فَاطْلُبَا إِلَيْهِ يَسْتَغْفِرُ لَكُمَا يَغْفِرُ اللهُ لَكُمَا... » وذكر باقي الحديث.

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «يكون في أمتي رجل يقال له: "أويس القرني" يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر، لو أقسم على الله لأبره، فمن لقيه بعدي فليقرئه مني السلام. ثم سئل عن علامته، فقال: هو رجل أصهب، أشهل، ذو طمرين أبيضين، له أمٌّ، وقد كان به بياض، فدعا الله عز وجل فأذهبه عنه إلا مقدار الدينار

أو الدرهم، لا يؤبه له، مجهول في الأرض معروف في السماء، وكان قد بلغ من شدة خموله ونهاية ضعفه أن الناس كانوا يسخرون منه ويستهزئون به ويؤذونه، ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص، وينسبونه إلى ذلك».

فقد روي في ذلك: أنه دفع إليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فانقطع عن مجلسته لأجل العري، فردهما عليه بعد أن أخذهما منه، وقال: إن الناس يقولون: من أين له هذان الثوبان؟ ترى من خدع عليهما، وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويظهر للناس، وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر وجلالة الخطر وتنويه عمر ﷺ به على المنبر، فلما رأى أن الناس عرفوا حاله هرب عنهم واستخفى منهم، ولبّس أمره عليهم برعاية الإبل، وغير ذلك.

وقيل لعمر ﷺ لما سأل عنه قومه: ما فينا أخمل منه ذكرًا، فلما لقيه هو وعلي ﷺ وسأله من هو؟ فقال له: راعي غنم وأجير قوم، وستر ذكر "أويس"، فلما سأله عن اسمه قال له: عبد الله، فلما سأله عن اسمه الذي سمّته به أمه، امتنع أن يجيبه عن ذلك، فلما أخبراه بوصف النبي ﷺ له وأنهما عرفاه بذلك، قال لهما: عسى أن يكون ذلك غيري، فلما قالا له: أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، وطلبا منه أن يوضحها لهما، لم يجد بدًّا من أن يوضحها لهما، وذلك – والله أعلم– ليريهما رؤية عين صحة قول النبي ﷺ وصدقه في إخباره بالغيب، وذلك أمر واجب عليه، وإلّا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله في كل شيء سئل عنه، ثم بعد ذلك لمّا سأله عمر ﷺ أن يلتقي معه، ويجعل ذلك الموضع ميعادا بينه وبينه،

قال: يا أمير المؤمنين، لا ميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك ولا تعرفني بعد اليوم، ثم دفع الإبل إلى أصحابها وخلّى عن الرعاية.

وكذلك فعل مع هرم بن حيان رضي الله عنه لمّا لقيه بشاطئ الفرات ووقع بينهما التعرّف، قال له: حدثني بحديث عن رسول الله ﷺ أحفظه عنك، فقال له: لا أحبّ أن أفتح هذا الباب على نفسي، لا أحبّ أن أكون محدِّثا ولا مفتيا ولا قاضيا، فلما فرغا من الكلام الذي كانا بصدده سأله مداومة الاجتماع به، أبى وامتنع، وقال له: لا أراك بعد اليوم تطلبني ولا تسأل عني، انطلق أنت ها هنا حتى أنطلق أنا ها هنا، ثم بعد ذلك اجتهد في طلبه والبحث عنه فلم يقع له على خبر.

ومن عجيب أمره أن حقّق الله تعالى له هذا الحال من التخفّي والتستر، وأتمّه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من الآيات والعبر، حينئذ قال عبد الله بن مسلمة: غزونا "أذربيجان" زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعنا أويس القرني رضي الله عنه فلما رجعنا مرض فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور، وماء مسكوب، وكفن وحنوط، فغسلناه وكفّناه وصلينا عليه ودفنّاه، فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلّمنا قبره، فرجعنا فإذا لا قبر ولا أثر.

قلت: والحكاية والآثار في مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من أن يأتي عليها انحصار، وقد أورد كثيرا منها الأئمة المصنفون في هذا العلم، فليطالع ذلك المريد مستمدا من الله تعالى حسن التوفيق والتأييد.

وتعبير المؤلف رحمه الله ها هنا بالدفن والأرض والنبات والنتاج من مُلح الاستعارات.

١٢ . مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ.

مداواة أمراض القلب واجبة على المريد، وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد، ووقوفه مع المعتاد، وانقياده إلى هوى النفس، وأنسه بعالم الحسّ.

ومداواة هذا المرض يتأتى من وجوه كثيرة، وأبلغها في ذلك وأنفعها، العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة، فبالعزلة يتقيّد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته، ومن لا يأمن من دخول الآفات عليه بصحبته، فيتخلّص بذلك المعتزل من المعاصي التي يتعرض لها بالمخالطة، مثل: الغيبة والمداهنة والرياء والتصنّع، ويتحصّل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة، والأخلاق الدنيئة، ويستفيد بذلك أيضًا صيانة دينه ونفسه عن التعرّض للخصومات وأنواع الشرور والفتن، فإن للنفس تولّعا وتسارعا إلى الخوض في أمثال هذا، فواجب على المعتزل أن يكفّ لسانه عن السؤال عن أخبار الناس، وما هم مشغولون به ومنهمكون فيه ومنكبّون عليه، ويصون سمعه عن الإصغاء إلى أراجيف البلدان وما اشتملت عليه من الأحوال التي ذكرناها، وليحرص على أن لا يغشاه في خلوته وعزلته مَنْ شأنه التطلع لذلك والبحث عنه، وليجتنب صحبة من لا يتورّع في منطقه ولا يضبط لسانه عن الاسترسال في دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم، فإن ذلك مما يكدّر صفاء القلب ويؤدي إلى ارتكاب مساخط الربّ، فليهجره المعتزل وليفر منه فراره من الأسد، ولا يجتمع معه في مكان ألبتّة، وليتنكّر

إلى كلّ من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين، فضلا عن غيرهم، كما قال بعضهم: «أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف» وفي الخبر «**مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيْرِ، إِنْ لَمْ يُحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ، عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ**».

وفي الأخبار السالفة أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «**يا ابن عمران كن يقظانا، وارتد لنفسك إخوانا، وكل أخ أو صاحب لا يؤازرك على مبرّتي فهو لك عدوّ**».

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال له: «**يا داود ما لي أراك منتبذا وحدانيا؟ فقال: إلهي، قليتُ الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا، وكلّ خدن لا يوافقك على مبرّتي فلا تصحبه فإنّه لك عدو، ويقسي قلبك ويباعدك منّي**».

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيريّ في هذا المعنى:

فخف أبناء جنسك واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسّبنتا
وخالطهم وزايلهم حذارا ... وكن كالسامريّ إذا لمستا

وبالعزة أيضا يجتمع همّه، ويقوى في ذات الله عزمه، بخلاف الخلطة فإنها تفرّق الهم وتضعف العزم، وقد قيل: «إن العبد ليعقد في خلوته على خصال من الخير يعملها، فإذا خرج إلى الناس حلّوا عليه ذلك عقدة عقدة حتى يرجع إلى بيته وقد انحلت العقد كلّها».

وروي عن عيسى عليه السلام: «**لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبّون للدنيا الراغبون فيها**».

وفي الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين**» وضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة، ومخالطة أرباب البطالة والقسوة.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وأضر ما ابتلي العبد به وأدخله وأعمله في هلاكه، وأشدّ لحجبه وإبعاده، ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعّد عليها بالشهادة، وقوة اليقين أصل كلّ عمل صالح».

وقال بعض هذه الطائفة: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لابدّ لي منهم، قال: فلا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة قلب. قلت: لابدّ لي منهم، قال: فلا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة وحسرة. قلت: أنا بين أظهرهم ولا بّد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم، فإنّ السكون إليهم هلكة. قلت: هذا لعله، قال: يا هذا، أتنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل، هيهات هذا لا يكون أبدًا.

وبالعزلة أيضا ينكفّ بصره عن النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها، وينصرف خاطره عن الاستحسان إلى ما ذمّه الله تعالى من زخرفها، فتمتنع بذلك النفس عن التطلّع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...﴾ [طه: ١٣١] الآية.

ولا ينبغي لأحد أن يستحقر هذا، فإنه يؤدي إلى أمراض عظيمة في القلب، ومن اعتزال الناس سلم بإذن الله تعالى منها.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات، قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضات» انتهى.

وقال محمد بن سيرين رضي الله عنه: «إياك وفضول النظر، فإنه يؤدي إلى فضول الشهوة».

وقال بعض الأدباء: «من كثرت لحظاته دامت حسراته».

وقالوا: إن العين سبب الحين، ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه، وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب، وقد أنشدوا في هذا المعنى:

وإنك إن أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كلّه أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وبذلك ينقطع طمعه عن الناس ويحصل له منهم الإياس، وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الأكياس، ولا تتم له منفعة العزلة إلّا باشتغال القلب بالفكرة، وهى المقصودة ها هنا، وكانت العزلة مقدمة لها ومعينة عليها، وذلك بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهرة، والقيام بمراعاة آدابه الباطنة.

وقد ذكر منها الشيخ أبو حامد الغزالي جملة شافية في كتاب "العزلة من الإحياء" فلينظر هناك.

وقد جاء في الخبر: «**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِيْنَ سَنَةً**»، وكذا هو، والله أعلم.

وكان عيسى ابن مريم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول: «**طوبى لمن كان قوله ذكرًا وصمته فكرًا ونظره عبرة، إنّ أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**».

وقال كعب الأحبار: «من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكّر».

وقيل لأم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: «التفكّر».

وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء، وتبين الحق من الباطل والنافع من الضّار، ويطّلع به أيضا على خفايا آفات النفس ومكايد العدوّ وغرور الدنيا، ويتعرّف به وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: «الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك، ويطلع بها الإنسان أيضا على عظمة الله وجلاله إذا تفكّر في آياته ومصنوعاته، ويطلع بها أيضا على آلائه ونعمائه الجليّة والخفية، فيستفيد بذلك أحوالًا سنية، يزول بها مرض قلبه، ويستقيم بسببها على طاعة ربّه».

قلت: والعزلة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تتضمن وجود الخلوة، وهي أحد الأركان الأربعة التي هي أساس المريدين، ويلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت، إذ لا يتأتي من أكثر الناس إلا بالخلوة والعزلة، فإن أضاف إليهما المريد الركنين الباقيين، وهما: الجوع والسهر، فقد حصل على كلية الدواء، والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «اجتمع الخير كله في هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدال أبدالًا: إخماص البطون، والصمت، والخلوة، والسهر». وقال الشاعر وجمعها في نظمه:

يا من يروم منازل الأبدال   من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من أهلها   إن لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسّمت أركانه   ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم   والجوع والسهر النزيه الغالي

١٣. كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟

الجمع بين الضدّين محال؛ كاجتماع الحركة والسكون، والنور والظلمة.

وهذه الأشياء التي ذكرها المؤلف رحمه الله أضداد لا تجتمع، فإن إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضادّ للظلمة التي استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها، والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال في حبس الهوى والشهوات، ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة غفلاته التي مقتضاها الإقصاء والإبعاد، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات، وإليه الإشارة

بقوله عز من قائل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولما روي في بعض الأخبار «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى: «التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحواري، فقال ابن حنبل لابن أبي الحواري: يا أحمد، حدِّثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان.

فقال: يا أحمد، قل "سبحان الله" بلا عجب.

فقال ابن حنبل: "سبحان الله" وطوّلها بلا عجب.

فقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدّي إليها عالم علما.

فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وجلس ثلاثا وقال: ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليّ من هذه، ثم ذكر الحديث الذي ذكرناه «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ثم قال لأحمد بن أبي الحواري:

صدقت يا أحمد، وصدق شيخك.

ولأجل كون هذه الأشياء أضداد، عجب المؤلف رحمه الله ممن يعتقد صحة اجتماعها، وممن طمع في نيل مراتب الرجال مع كونه على أقبح الخلال.

١٤ . الكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الحَقِّ فِيهِ، فَمَنْ رَأَى الكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الأَنْوَارِ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ المَعَارِفِ بِسُحُبِ الآثَارِ.

العدم ظلمة والوجود نور، فالكون بالنظر إلى ذاته عدم مظلم، وباعتبار تجلّي نور الحق عليه وظهوره فيه وجود مستنير، ثم اختلفت أحوال الناس ها هنا:

فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان، وحجب بذلك عن رؤية المكوِّن، فهذا تائه في الظلمات، محجوب بسحب آثار الكائنات.

ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكوِّن، ثم هم في مشاهدتهم إياه فِرَقٌ فمنهم: من شاهد المكوّن قبل الأكوان، وهؤلاء هم الذين يستدلّون بالمؤثّر على الآثار. ومنهم من شاهده بعد الأكوان، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر. ومنهم من شاهده مع الأكوان، والمعيّة ها هنا إما معيّة اتصال وهو شهوده في الأكوان، وإما معيّة انفصال وهو شهوده عند الأكوان، وهذه الظروف المذكور ليست بزمانية ولا مكانية، لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان، والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما، فإنهما أيضا من جملة الأكوان.

ومعرفة تفصيل هذه الأمور والتفرقة بين هذه الحقائق على ما هي عليه موكول إلى أربابه، فلنقتصر على ما ذكرناه، فها هنا زلت أقدام كثير من الناس فتكلموا بكلمات موهمة، وعبروا بعبارات منكرة في الشرع فكُفِّرُوا بذلك وبُدِّعوا، فاعتقد

كمال التنزيه وبطلان التشبيه، وتمسّك بقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

١٥ . مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ.

اتفقت مقالات العارفين والمحققين وإشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكرناه قبل هذا من أن ما سوى الله تعالى عدم محض، من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصف به لكان ذلك شركة واثنينية، وهو مناقض لإخلاص التوحيد، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقال رسول الله ﷺ: «**أصدق بيت قالته الشعراء**:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

قال بعض العارفين: «أبى المحققون أن يشهدوا غير الله، لما حققهم به من مشهود القيومية وإحاطة الديمومية».

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «إنا لننظر إلى الله تعالى ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق هل في الوجود شيء سوى الواحد الحق فلا نراهم، وإن كان ولا بد فنراهم كالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئا».

وقال أيضا رضي الله عنه: «قَوِي عليّ الشهود مرة فسألته أن يستر ذلك عني،

فقيل لي: لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد صفيه صلوات الله عليهم أجمعين لم يفعل، ولكن سله أن يقوّيك، فسألته فقوّاني».

قال ابن عطاء: في "التنوير": «فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لا يوصف بوجد ولا فقد، إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته، ولا فقد لغيره لأنه لا يفقد إلا ما وجد، ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطّى وجود الأكوان»، وهذا الكلام هو بسط ما ذكره في هذا الكتاب.

وقال بعضهم: «لو تكلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه»، وقال الشاعر:

مذ عرفت الإله لم أر غيرا ... وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقا ... وأنا اليوم واصل مجموع

وقال الآخر:

الله قل، وذر الوجودَ وما حوى ... إن كنت مرتادًا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدمٌ على التفصيل والإجمال
واعلم بأنّك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا ... شيئا سوى المتكبّر المتعالِ
ورأوا سواه على الحقيقة هالكًا ... في الحال والماضي والاستقبال

وقد صنفوا في بيان هذا الأمر تصانيف وتفننوا في الكلام في هذا المعنى نظما ونثرا، وكلّ عبّر على حسب شربه وذوقه، جزاهم الله عنا خيرًا.

فإذا تقرر هذا، ووجدنا أكثر الناس قد حجبوا عن الله تعالى بشهواتهم الدنيوية ودرجاتهم الأخروية ومقاماتهم العلوية، فكل ذلك من الأغيار العدمية والوجودات الوهمية، علمنا بذلك وجود قهر، إذ من أسمائه تعالى "القهّار"، ولو ارتفع الحجاب عنهم لفنوا عن أنفسهم وإرادتهم، وبقوا بربّهم، وكانوا عباد لله حقا.

وقد سئل أبو سعيد بن الأعرابيّ رضي الله عنه عن الفناء، فقال: «الفناء أن تبدو العظمة والإجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات، والأذكار تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء، لأنه يفرق في التعظيم عقله» انتهى.

قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه:

فناء في الأفعال: ومنه قولهم: لا فاعل إلّا الله.

وفناء في الصفات: أي: لا حيّ، ولا عالم، ولا قادر، ولا مريد، ولا سميع، ولا بصير، ولا متكلم على الحقيقة إلّا الله.

وفناء في الذات: أي لا موجود على الإطلاق إلّا الله تعالى، وأنشدوا في ذلك:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى　　　فكان فناؤه عين البقاء

وقال سيدي محيي الدين: «من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل»، وأنشدوا في هذا المعنى:

مـــن أبصـــر الخلـــق كالســـراب ... فقـــد ترقّـــى عـــن الحجـــاب
إلى وجـــــود يـــــراه رتقًـــــا ... بـــــلا ابتعـــــاد ولا اقـــــتراب
ولم يشـــــاهد بـــــه ســـــواه ... هنـــاك يُهـــدى إلى الصـــواب
فـــــلا خطـــــابٌ بـــــه إليـــــه ... ولا مشـــــيرٌ إلى الخطـــــاب

١٦. كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ؟

بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان في ظلمة العدم، كما تقدّم.

وكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ؟

حتى استدّل عليه المستدلّون بالأشياء كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]

وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟

إذ هو المتجلي فيها بمحاسن صفاته وأسمائه.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ؟

في طور ذلك الشيء، ولذلك كان ساجدًا له ومسبِّحًا بحمده، ولكن لا نفقه ذلك.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ؟

لتحقّق هذا الاسم له أزلًا وأبدًا.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟

لأن الوجود أظهر من العدم على كلّ حال.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ؟

إذ كل ما سواه عدم لا وجود له على التحقيق.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟

لثبوت إحاطته بك، ووجود قيّوميّته عليك.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلاَهُ لَمَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ؟

حتى استدل به الشاهدون على الأشياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الوُجُودُ فِي العَدَمِ؟

لأن العدم ظلمة، والوجود نور، وهما ضدّان لا يجتمعان.

أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ القِدَمِ؟

لأن الباطل لا يثبت مع ظهور الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ

ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] وقال عزّ من قائل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

قلت: وهذا الفصل من قوله: (السكون كله ظلمة...) إلى هنا، أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقرّ به الأعين وتلذ به الأسماع، فإنه رضي الله عنه ذكر جميع متعلّقات الظهور، وأبطل حجابية كل ظلام ونور، وأراك فيه الحقّ رؤية عيان وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعالي مراتب الإحسان، كل ذلك في أوجز لفظ وأفصح عبارة، وأتمّ تصريح وألطف إشارة، فلو لم يكن في هذا الكتاب إلّا هذا الفصل لكان كافيا شافيا، فجزاه الله عن ذلك خيرا.

ثم قال رضي الله عنه:

١٧. مَا تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي الوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ اللهُ فِيهِ.

إذا أقام الله تعالى العبد في حال من الأحوال التي لا يذمّها الشرع، فليلتزم حسن الأدب في اختيار بقائه عليها ورضاه بها، وليراقب الله تعالى في مراعاة آدابها، وليوافق مراد الله تعالى في ذلك حتى يكون هو الذي ينقله عنها.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته».

وقد تقدّمت حكاية المؤلف رحمه الله تعالى مع شيخه أبي العباس المرسي حين عزم على "التجريد" وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر وما أجابه

الشيخ رضي الله عنه وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته، فإن سخط تلك الحال وتشوّف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربّه، وأساء الأدب في حضرة مولاه عزّ وجل، وهذا من معارضته حكم الوقت الذي تشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة، فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى في ذلك الوقت، فهو أدب العبوديّة ومقتضى العلم بالله تعالى، وهذا هو أحد معاني لفظ "الوقت" في اصطلاحهم.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «وقد يريدون بالوقت: ما يصادفهم من تصريف الحقّ لهم، دون ما يختارونه لأنفسهم، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي: إنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له.

وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع، إذ التضييع لما أمرت به، وإحالة الأمر فيه على التقدير، وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير: خروج عن الدين.

ومن كلامهم: الوقت سيف، أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب.

وقيل: السيف ليِّن مسّه، قاطعٌ حدّه، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت: من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردّى،

وأنشدوا في ذلك:

وكالسيف إن لاينته لان مسّه ... وحدّاه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت: فالوقت له وقت.

ومن ناكده الوقت: فالوقت عليه مقت. هذا كلام الإمام أبي القاسم، وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب، والله أعلم.

١٨ . إِحَالَتُكَ الأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ.

إذا كان العبد متلبّسا بحال من أحوال دنياه، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال وقال: «إذا تفرغت عملت»، فذلك من رعونة نفسه.

والرعونة ضرب من الحماقة، وحماقته من وجوه:

الأول: إيثاره الدنيا على الآخرة، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين، وهو خلاف ما طلب الله منه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى ١٦: ١٧].

والثاني: تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه، وقد لا يجد مهلة، بل يختطفه الموت قبل ذلك، أو يزداد شغله، لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض، كما قيل:

فما قضى أحد منها لبانته ... ولا انتهى أرب إلّا إلى أرب

والثالث: أن يفرغ منها إلى الذي لا يرضيه من تبدّل عزمه وضعف نيّته، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا، بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أي حال كان، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت، وأن يتوكّل على الله تعالى في تيسيرها عليه، وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه، وما أحسن قول "ابن الفارض" في هذا المعنى:

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدًا
وشمّر عن الساق اجتهادًا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت في "عسى"
وإيّاك "مهلًا" فهي أخطر علّة
وسر "زمنًا" وانهض كسيرًا فحظّ
ك البطالة ما أخّرت عزمًا لصحة
وجدّ بسيف العزم "سوف" فإن تجُد
تجِد نفسًا فالنفس إن جُدت جدّت

١٩ . لاَ تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا، فَلَوْ أَرَادَكَ لاَسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ.

كما أنه إذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه كانت متعلّقة بالدين أو بالدنيا

لا ينبغي له أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم وقته، فيحدث فيه غير ما أظهره الله فيه، كما تقدّم في قوله (ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه) مع الشرط المتقدم وهو: أن لا يكون في ذلك مخالفة أمر أو ارتكاب نهي، فينبغي له أيضًا أن لا يعارض حكم الوقت ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها، لأن هذا من التخيير على الله تعالى، ولا خيرة له في ذلك، بل ينبغي له حسن الأدب معه وإيثار مراده على اختياره هو، وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبّة الله تعالى وإرادته له فيستعمله استعمالًا محبوبًا عنده مع بقائه على حالته التي هو عليها، فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى له، لا بمراده لنفسه، وهو خير له مما اختاره.

قال في "التنوير" يحكى عن بعضهم أنه كان يقول: «وددت لو أني تركت الأسباب وأعطيت كل يوم رغيفين. يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب، قال: فسجنت، ثم كنت في السجن يؤتى إليّ كل يوم برغيفين فطال ذلك عليَّ حتى ضجرت، ففكرت يومًا في أمري، فقيل لي: إنك طلبت منّا كل يوم رغيفين ولم تطلب منّا العافية، فأعطيناك ما طلبت، فاستغفرتُ الله من ذلك الذنب ورجعت إلى الله تعالى، فإذا بباب السجن يقرع، فتخلّصت وخرجت.

قال فيه: فتأدب بهذا أيها المؤمن، ولا تطلب أن يخرجك من أمر، ويدخلك فيما سواه إذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم، فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى، فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك، فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه، فربّ

تارك شيئا وداخل في غيره ليجدَ الثروة والراحة فيتعب، وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار»، انتهى كلامه في "التنوير" وهو كالتفسير لما ذكره هنا، فلذلك أوردته.

٢٠ . مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلاَّ وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الحَقِيقَةِ: الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، وَلاَ تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ الْمُكَوَّنَاتِ إِلاَّ وَنَادَتْكَ حَقَائِقُهَا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

السائر إلى الله تعالى تتجلى له في أثناء سلوكه أنوار، وتبدو له أسرار، فإن أرادت همّته أن تقف عندما كشف لها من ذلك، لاعتقاده أنّه وصل إلى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة نادته هواتف الحقيقة: المطلوب الذي تطلبه أمامك فجدّ في السير ولا تقف، فإن تبرّجت له ظواهر المكونات بزينتها فمال إلى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢] وغمّض عينيك عن ذلك ولا تلتفت إليه، ودم على سلوكك وسيرك، واعلم أنه ما دامت لك همّة وإرادة فأنت بعيد في الطريق لم تصل، فلو فنيت عنها لوصلت، وما أحسن قول الشيخ أبي الحسن الششتري في هذا المعنى:

ولا تلتفت في السير غيّرا فكلّ ما ... سوى الله غير واتخذ ذكره حصنا
وكلّ مقام لا تقِم فيه إنّه ... حجابٌ فجدّ السير، واستنجد العونا
ومهما ترى كلّ المراتب تجتلى ... عليك فحِل عنها، فعن مثلها حلنا
وقل: ليس لي في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وقد رأيت لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه كلامًا حسنًا مناسبًا لما ذكره المؤلف رحمه الله هنا من الترقّي في الأحوال وظهور النقص في رؤية الكمال، فرأيت أن أذكره ها هنا بنصّه، لما فيه من سني الفوائد وشريف المقاصد، قال رضي الله عنه: اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة، إلّا من يدلّك على الله تعالى بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، وأعرض عن الدنيا بالكلية، ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئا على ذلك، بل كن في ذلك عبدًا لله أمرك أن ترفض عدوّه، فإن أتيت بهاتين الخصلتين: الإعراض عن الناس، والزهد في الدنيا، فأقم مع الله بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية، والاستغفار والإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة.

وتفسير هذه الوجوه الأربعة: أن تقوم عبدًا لله فيما تأتي وما تذر، وتراقب قلبك أن لا يرى في المملكة شيئًا لغيره، فإن أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العزّ أنّك قد عميت عن طريق الرشد، من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢] فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب، فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه، فإن صحّت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قِبل الحق سبحانه: التوبة منه بدت، والإنابة مِنّة تتبعها، واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك، فهناك تظهر أوصافك فتستعيذ بالله منها، وتأخذ في الاستغفار والإنابة، والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه،

فإن كنت بهذه الصفة، أعني: الاستغفار والإنابة ناداك من قريب، اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي، واستقم مع إرادتي برفض إرادتك، وإنما هي ربوبية تولّت عبودية، وكن عبدًا مملوكًا لا يقد على شيء، فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شيء عليم، فإن صحّ لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هنالك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين.

٢١ . طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ.

الطلب الذي يتصوّر من العبد على أربعة أوجه،، وكلّها مدخولة معلولة: طلبه من الله، وطلبه له، وطلبه لغيره، وطلبه من غيره.

فطلبه من الله تهمة له، إذ لو وثق به في إيصال منافعه إليه من غير سؤال لما طلب منه شيئا.

وطلبه له غيبة عنه، إذ الحاضر لا يطلب.

وطلبه لغيره قلة حياء منه، إذ لو استحيا منه انقبض عمّا يكرهه له من طلبه لغيره، ومن حقّ الحياء منه أن لا يذكر معه غيره، ولا يؤثر عليه سواه.

وطلبه من غيره لوجود بعده عنه، إذ لو كان قريبًا منه لكان غيره بعيدًا عنه فلا يطلب منه، فالطلب كله عند الموحّدين العارفين معلولٌ، سواء كان الطلب متعلقا بالحق أو بالخلق، إلّا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبّد واتباع الأمر، وإظهار الفاقة والفقر، فحينئذ تزول العلّة عنه.

٢٢ . مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إِلاَّ وَلَهُ فِيكَ قَدَرٌ يُمْضِيهِ.

الأنفاس: أزمنة دقيقة تتعاقب على العبد ما دام حيّا، فكل نفس يبدو منه ظروف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائنًا ما كان، فإذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره، وكان جميع ذلك يقتضي منه حقوقا لازمة من حقوق الله تعالى الواجبة عليه يقوم بها، وهو مطالب بذلك ومسؤول عنه وعن أنفاسه التي هي أمانة للحق عنده لم يبق له إذ ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ولا محل لمتابعة شهوته وهواه.

٢٣ . لاَ تَتَرَقَّبْ فُرُوغَ الأَغْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيه.

إذا أقام الله تعالى عبدًا في سبب من الأسباب فالواجب عليه أن يوفيه حقّه ويلتزم فيه الأدب ولا يترقب وقتًا ثانيا يكون فيه فارغًا منه، فإن تأميله للوقت الثاني يمنعه من القيام بحق الوقت الأول فيما أقيم فيه وتوفيته ما يجب له، وهو خلاف الأمر المطلوب منه، فليجتنب ذلك المريد.

قال أبو حفص رضي الله عنه: «الفقير الصادق هو الذي يكون في كل وقت بحكمه، فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه ويتّقيه».

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «إذا جنّك الليل فلا تؤمّل النهار حتى تسلم ليلتك وتؤدّي حقّ الله تعالى فيها، وتنصح فيها لنفسك، وإذا أصبحت فكذلك».

وسئل سهل رضي الله عنه: «متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير وقتًا غير الوقت الذي هو فيه».

قال البغوي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] «الشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر.

وقيل: بما تحبون وتكرهون، لنظر شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون».

٢٤ . لاَ تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الأكْدَارِ مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلاَّ مَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ وَصْفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا.

جعل الله الدنيا دار فتنة وابتلاء، ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له، ويوفّى جزاءه في الدار الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وعمل كل واحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه أو موافقتها، وذلك لا محالة يستدعي وجود محبوب أو مكروه بفعل أو بترك، فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها، فتقع الأكدار بسبب ذلك، وأيضًا فحاصل الدنيا أمور وهميّة انقادت طباع الناس إليها، وهي لا تفي بجميع مطالبهم لضيقها وقلّتها وسرعة تقضيها وتقلّبها، فتجاذبوها بينهم، فتكدّر عيشهم ولم يحصلوا على كلية أغراضهم، كما قيل:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوَّع
أراها وإن كانت قليلا كأنها ... سحابة صيف عن قريب تقشع

فلا تستغرب وقوع أمثال هذا، فإنه ما ظهر منها إلا ما هو مستحقّ وصفها وواجب نعتها من وجدان المكاره التي هي ذاتية لها.

قال بعض الحكماء: «لولا أن الدنيا مبنية على المكاره لجعلت منفعة الأهليلج في اللوزينج».

وسيأتي التنبيه على الحكمة في هذا عند قوله (إنما جعلها محلًا للأغيار ومعدنًا لوجود الأكدار) تزهيدا لك فيها.

وفي بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق ﷺ أنه قال: «من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق، فقيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا».

وفي معنى أنشدوا:

تطلب الراحة في دار العناء　　　خاب من يطلب شيئا لا يكون

وقال بعض البلغاء: «ملتمس السلامة في دار المتالف والمعاطب كالمتمرّغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب».

وقال ابن مسعود ﷺ: «الدنيا كلّها غموم فما كان منها سرور فهو ربح».

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه: «لست أستبشع ما يرد علي من العالم لأني قد أصلت أصلًا؛ وهو أن الدنيا دار همّ وغمّ، وبلاء وفتنة، وأن العالم كلّه شر، ومن حكمه أن يتلقّاني بكلّ ما أكره، فإن تلقّاني بكل ما أحبّ فهو فضل، وإلّا فالأصل هو الأول».

وقال أبو تراب رضي الله عنه: «يا أيها الناس أنتم تحبون ثلاثة أشياء وليست هي لكم: تحبون النفس وهي لله، وتحبون الروح والروح لله، وتحبون المال والمال للورثة، وتطلبون اثنين ولا تجدونهما: الراحة والفرح، وهما في الجنة».

فالواجب على العبد أن لا يوطّن على الراحة في الدنيا نفسه، ولا يركن فيها إلى ما يقتضي فرحًا وأنسًا، وأن يعمل على قول النبي ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ**» فتوطين العبد على المحن في دنياه يهوّن عليه ما يلقاه، ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه، كما قيل في المعنى:

يمثّل ذو اللب في لبه ... شدائده قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه ... لما كان في نفسه مثّلا
رأى الأمر يفضي إلى آخر ... فصيّر آخره أوّلا
وذو الجهل يأمن أيامه ... وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ... ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم في نفسه ... لعلّمه الصبر عند البلا

فليتلق المريد ما يرد عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء، فعن قريب إن شاء الله ينجلي الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر، والله تعالى وليّ التوفيق.

قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: «قال لي أبو سليمان الداراني: جوع قليل،

وعري قليل، وذل قليل وصبر قليل، وقد انقضت عنك أيام الدنيا».

واعلم أن ما ذكرناه من الصبر هو جماع كلّ فضيلة، وملاك كلّ فائدة جزيلة ومكرمة نبيلة، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وفي وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ للهِ بِالرِّضَا فِي اليَقِيْنِ فَافْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ، فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَالفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَاليُسْرَ مَعَ العُسْرِ**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: «إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورًا، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا».

وقال علي رضي الله عنه: «الصبر مطيّة لا تكبو، والسيف لا ينبو».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أفضل العدّة الصبر عند الشدة».

وفي بعض الأخبار: انتظار الفرج بالصبر عبادة، وقد قال الشاعر:

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسنّ، وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فمن جعل الصبر معتمده في نوازله، واعتده من أعظم عدده ووسائله، فهو مصيب في رأيه، منجح في سعيه، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرًا، ويكسبه وزرًا، ويفوّته أجرًا، وناهيك به خسرًا، كما قيل:

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلًى لا يصبر

وكما قيل أيضا:

وعوّضت أجرا من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

٢٥ . مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ، وَلاَ تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ.

من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه، وتوكل في أمره كله عليه، كفاه كل مؤنة، وقرّب عليه كل بعيد، ويسر عليه كل عسير، ومن سكن إلى علمه وعقله واعتمد على قوّته وحوله، وكله الله إلى نفسه، وخذله وحرمه توفيقه، وأهمله فلم تنجح مطالبه، ولم تتيسر مآربه، وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارب.

قلت: وكلام المؤلف رحمه الله تعالى في هذه المسألة عام يتناول كلّ مطلب من المطالب الدينية والدنيوية التي مآل أمرها إلى الدين، وأشرف تلك المطالب وأكثرها قواطع ومعاطب، أخذ المريد في سلوك سبيل التوحيد، ففيه التعلّق بالله تعالى أحق وأصوب، وفي جميع جزئياته الرجوع إلى الله تعالى أولى وأوجب، فلا جرم كان من

الرأي السديد والأمر الأكيد أن يخصصه من ذلك العام، وأن يفرده عقيب هذه المسألة بمزيد من الكلام فلذلك قال:

٢٦ . مِنْ عَلاَمَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي البِدَايَاتِ.

للمريد بداية ونهاية؛ فبدايته حال سلوكه، ونهايته حال وصوله، فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به كما ذكرنا أفلح ونجح في نهايته وكان وصوله إلى الله تعالى، فأُمن عليه من الرجوع والانقطاع.

قال بعض المشايخ: «ما رجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا ما رجعوا».

ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق، انقطع ورجع من حيث جاء.

قال بعض العلماء: «من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكّل إلى نفسه». فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله، ولا يرى حول نفسه ولا قوّتها في كثير عمله ولا قليله، فهذا هو أساس السلوك الذي ينبني عليه قواعده.

٢٧ . مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهَايَتُه.

هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدّم، فإشراق بداية المريد برجوعه إلى الله تعالى في مهماته وثقته به في ملماته، وإشراق نهايته الوصول إلى قربته والحصول في حضرته.

٢٨ . مَا اسْتُوْدِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ.

هذا بيان علامة تعرف بها حال المريد السالك، وما انغمر به باطنه من المزيد المتدارك، لأن الظاهر مرآة الباطن، كما قيل: «الأسرّة تدل على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره»، فما استودعه الله القلوب والأسرار من المعارف والأنوار لابدّ وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح، فيستدلّ بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته، والوصلة به، وما أشبه ذلك من الأغراض والمقاصد.

قال أبو حفص رضي الله عنه: «حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن»، فإن النبي ﷺ قال: «**لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**».

وقيل: لمّا ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد، فرأى أصحاب أبي حفص وقوفا على رأسه يأتمرون بأمره لا يخطىء أحد منهم، فقال: يا أبا حفص أدّبت أصحابك أدب الملوك! فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

قلت: وآكد من ذلك أن يعرف المريد نفسه، ويكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته، فمن ادّعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره من اللّهج بذكره والمسارعة إلى اتّباع أمره، والاغتباط بوجوده والاستبشار عند يقين شهوده والفرار من القواطع الشاغلة عنه، والإضراب عن الوسائط المبعدة منه، فهو كذّاب في دعواه، متخذ إلهه

هـواه، فـإن كـان موصـوفا بأضـداد هـذا الخصـال، ومنحرفـا بظـاهره عـن جـادة الاعتدال، فهو في دعواه أكذب، وحاله للنفاق والشرك أقرب.

قال الشيخ أبو طالب المكي: «قد جعل الله تعالى وصف الكافرين أنهم إذا ذكر الله وحده في شيء انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره في شيء فرحوا، وجعل من نعوتهم أنهم إذا ذكر الله تعالى بتوحيده وإفراده بشيء غمطوا ذلك وكرهوه، وإذا أشرك غيره في ذلك صدقوا به فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] وقال أيضا: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ [غافر: ١٢] والكفر: التغطية، والشرك: الخلط، أي أنه يخلط بذكره ذكر سواه، ثم قال: ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢] يعني: لا يشركه خلق في حكمه، لأنه العلي في عظمته، الكبير في سلطانه، لا شريك له في ملكه وعطائه، ولا نظير له من عباده، ففي دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب: أن المؤمنين إذا ذكر الله بالتوحيد والإفراد في شيء انشرحت صدورهم، واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده، وإذا ذكرت الوسائط والأسباب التي دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم، وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك، لتستدل بها على حقيقة التوحيد في القلب، أو وجود خفي الشرك في السر إن كنت عارفا» انتهى.

قلت: وهذه المسألة التي تضمنها كلام الشيخ أبي طالب المكي رضي الله عنه من

أعظم المسائل على صدق الصادق وكذب الكاذب، ومن أوضح الدلائل.

ولما كان قصدنا في هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد العجيبة والحرص على رسم المقاصد الغريبة لغربة الدين في هذا الزمان الرذل واستيلاء الغرة والجهل على المنسوبين إلى العلم والفضل، حسُن منّا إيراد هذه الكلمات على وجه ضرب المثل، والاكتفاء بالنهل عن العلل، ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك، ولينتهج من مناصحة ربه في دينه وقلبه أوضح المسالك. واحمل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ولم تتم في نظرك مناسبته، لتسلم بذلك من الاعتراض، وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض، عافانا الله بمنه وفضله.

٢٩ . شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ فَأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ، وَالاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَإِلاَّ فَمَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟ وَمَتَى بَعُدَ حَتَّى تَكَونَ الآثَارُ هِيَ التي تُوَصِّلُ إِلَيْهِ.

بنو آدم في أول نشأتهم ومبدأ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ثم إن الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختار منهم من أهّله لولايته، وما ذاك إلا لحصول العلم الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] الذي يحقق لهم النسبة ويوجب لهم الزلفى والقربة، المشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وجعلهم على قسمين: مرادين ومريدين، وإن شئت قلت: مجذوبين وسالكين، وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فالمريدون السالكون إلى الله تعالى في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار، فالآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم، والحق تعالى غيب عنهم فلم يروه، فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم، والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم، وتعرف إليهم فعرفوه به، فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها، فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم، فهذا هو حال الفريقين، وشتان ما بينهما، أي بعُد ما بينهما، وذلك أن المستدل به على غيره عرف الحق الذي هو الوجود الواجب لأهله، وهو المختص بوصف القدم، وأثبت الأمر المشار به إلى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه، على عكس ما ذكرناه، لأنه استدل بالمجهول على المعلوم، وبالمعدوم على الموجود، وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب، ووقوفه مع الأسباب، وعدم احتظائه بالوصول والاقتراب، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة، ومتى بعُد حتى تكون الآثار القريبة هي التي توصل إليه، أو فقد حتى تكون الآثار الموجودة هي التي تدل عليه، وأنشدوا:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة ... وأنت الذي أشهدته كلّ مشهد

قال في "لطائف المنن": «واعلم أن الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق لا لمن

يشهده، لأن الشاهد غني بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى الدليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية، ثم تعود إلى نهايتها ضرورية، وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها»، ثم قال: «ومن أعجب العجائب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي مظهرة له؟ وإن كانت الكائنات موصلة إليه فليس لها ذلك من حيث ذاتها، لكن هو الذي ولاّها رتبة التوصيل فوصلت إليه فما وصّل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهي لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب».

٣٠ . لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتَهِ: الوَاصِلُونَ إِلَيْهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ: السَّائِرُونَ إِلَيْهِ.

هذه إشارة مليحة إلى حال الفريقين، فالواصلون إلى الله تعالى لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم فأنفقوا من سعتهم وتصرفوا في عوالمهم كيف شاؤوا، والسالكون إليه مقدور عليهم في أرزاق العلوم والفهوم، محبوسون في مضيق الخيالات والرسوم، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق.

٣١ . اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ، وَالوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ الْمُوَاجَهَةِ، فَالأَوَّلُونَ لِلأَنْوَارِ، وَهَؤُلاَءِ الأَنْوَارُ لَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ للهِ لاَ لِشَيْءٍ دُونَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

أنوار التوجه: هو ما صدر منهم إلى الله تعالى من عبادات ومعاملات ومكابدات ومجاهدات.

وأنوار المواجهة: هو ما صدر من الله لهم من تعرف وتقرب وتودد وتحبب، فالأولون عبيد الأنوار، لوجود حاجتهم إليها في الوصول إلى مقصودهم.

والآخرون الأنوار لهم، لوجود غناهم عنها بربهم، فهم لله لا لشيء دونه، وسيأتي هذا المعنى عند قوله: (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك).

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، أفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار هو حق اليقين، ورؤية ما سوى الله خوض ولعب، وهما من صفات الكافرين والمنافقين، قال الله عز وجل إخبارا عنهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكٍّ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

وقال رضي الله عنه:

٣٢ . تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ العُيُوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيُوبِ.

حكم المريد أن يتشوف إلى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه، ويتطلبها ويبحث عنها، فإن ذلك هو حق الحق تعالى منه، فينبغي أن يحرص عليه، ويصرف

عنان اعتنائه إليه، ليحصل له صفاء أعماله من الآفات، ونقاء أحواله من الكدورات، وينتفي عنه الجهل والغرور، وتنقطع عن باطنه مواد الشرور.

وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه "رياضة النفس" فصلا في الطريق الذي به يتعرف الإنسان عيوب نفسه، فلينظر فيه المريد، وقد جعل حاصله أربعة أوجه:

أحدها: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه في نفسه ويتبع إشارته فيما يشير به عليه.

والثاني: مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيبا على أحواله وأعماله، لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله.

والثالث: أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه، إذ لابد من جريان ذلك على ألسنتهم عند ثلبهم وعيبهم.

والرابع: أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطّلع بذلك على مساوئهم، فإذا اطلع عليها منهم وعلم أنه لا ينفك هو عن شيء منها، لأن الطباع البشرية في ذلك متقاربة، وقد يظهر له في نفسه ما هو أعظم مما يراه في غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها، والتنزه عنها»، فهذا تلخيص ما ذكره.

ثم قال: «وهذه كلها حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس، مشفقا، ناصحا في الدين، فارغا من تهذيب نفسه، مشغولا بتهذيب عباد الله،

ناصحا لهم، فمن وجد الطبيب فليلازمه، فهو الذي يخلصه من مرضه، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده» انتهى.

وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر ولطائف العبر، فإنه حظ نفسه، لا حق عليه فيه للحق تعالى، فليطب عنها نفسا ولا يشغل بها عقلا ولا حسا، وما ظهر له منها لا يسكن إليه ولا يعول عليه، فإن ذلك من المعايب القادحة في عبوديته، ولهذا قالوا: «كن طالبا للاستقامة، ولا تكن طالبا للكرامة، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك».

ومن الحكايات في هذا المعنى الذي ذكرناه ما روي في الإسرائيليات عن وهب ابن منبه رضي الله عنه: «أن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سنة ستة أيام، فسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف تقوى الشياطين على الناس، فلما طال ذلك عليه ولم يجب، قال: لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته، فأرسل الله إليه ملكا فقال له: إن الله تعالى أرسلني إليك، وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إليّ مما مضى من عبادتك، وقد فتح الله بصرك فانظر، فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذباب، فقال: أي ربي من ينجو من هذا؟ قال: الورع اللين».

وسيأتي بيان أن الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل، عند قوله: (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه).

٣٣ . الحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ وَإِنَّمَا المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ، وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

الحجاب على الحق تعالى محال، واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا، وهو بيّن لا إشكال فيه، والحجاب على العبد واجب من حيث ذاته، إذ هو عدم كما تقدم، ولا نسبة بين العدم والوجود، فإن أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء كيف شاء متى شاء رأى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا مما يجب اعتقاده.

٣٤ . اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الحَقِّ مُجِيبًا وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا.

أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان:

أحدهما: ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه، وهي الأعمال.

والثاني: ما يتعلق بباطنه وقلبه، وهي العقود.

فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم قسمين:

أحدهما: ما وافق الأمر، ويسمى "طاعة".

والثاني: ما خالفه، ويسمى "معصية".

وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه، فينقسم أيضا إلى قسمين:

أحدهما: ما وافق الحقيقة، ويسمى "إيمانا" وعلما.

والثاني: ما خالفها، ويسمى "نفاقا" وجهلا.

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى في الاصطلاح "تفقها"، والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى في الاصطلاح "تصوفا".

فهذان الأمران هما كلية العبد، وظاهره تابع لباطنه بالضرورة، لأن القلب هو الملك، والجوارح جنوده ورعيته، ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه، وقد نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ حيث قال: «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَد كُلُه، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُه أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**».

وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها، وهذه هي الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التي أشار إليها المؤلف رحمه الله تعالى، وهي التي تَسِم صاحبها بِسِمَة النفاق والفسوق، وهي كثيرة، مثل: الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب المال والجاه، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء، والتذلل للأغنياء، واستحقار الفقراء، وترك الثقة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر والبطر، والغل والغش، والمباهاة والتصنع، والمداهنة والقسوة، والفظاظة والغلظة،، والغفلة والجفاء، والطيش والعجلة،

والحدّة والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة، وقلة الحياء، وترك القناعة، وحب الرياسة، وطلب العلو، والانتصار للنفس إذا نالها الذل، وذهاب ملك النفس إذا رُد عليه قوله...، إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة، وأصل فروعها وعنصر ينابيعها، إنما هي رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها، فبهذه الأمور كفر من كفر ونافق من نافق، وعصى من عصى، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل مَنْ خلع، حسبما يقوله المؤلف رحمه الله بإثر هذا (وشأن الصوفي إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات، وقد بينوا طرق ذلك في كتبهم).

قال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه: «ولا يكون المريد بدلا حتى يُبدل بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم، فعندها يكون بدلا مقربا».

قال: «والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه، فيملكها وتسخر له ويسلط عليها، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تُمَلِّكها، وضيق عليها ولا توسع لها، فإن ملكتها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك، وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها، واحبسها عن معتاد ملائمها، فإن لم تمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسبابها وحبس موادها، وإلا قويت عليك فصرعتك» انتهى.

فإذا قام بذلك المريد على الوجه الذي رسموه له، والتزم الوظائف التي أمر بها

طهر قلبه وتزكت نفسه، واتصفت بمحاسن الصفات التي تزينه بين العباد، وينال بها من قرب ربه غاية المراد، فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والهيبة له، والخوف منه، والتذلل لربوبيته، والإخلاص في عبوديته، والرضا بقضائه، ورؤية المنة له عليه في منعه وإعطائه، ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر، والحلم، والاحتمال، والصيانة، والنزاهة، والأمانة، والثقة، والعطف، والتأني، والوقار، والسخاء، والجود، والحياء، والبشاشة، والنصيحة، وسلامة الصدر، إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التي ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى والزيادة.

قلت: وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضي الله عنهم: بالتخلي والتحلي، أي: التخلي عن الصفات المذموم، والتحلي بالصفات المحمودة، ويعبر عنهما أيضا ب"التزكية والتحلية"، وهما حقيقة السلوك الذي يعبرون عنه أيضا، وستأتي الإشارة إلى كيفية ذلك عند قوله: (لو لا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين).

فإذا صح للمريد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر تحققت عبوديته لربه عز وجل فلم يملكه غيره، ولم يسترقه سواه، وارتقى في القرب من ربه إلى أشرف محل فيكون هناك منزله ومثواه، فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى، لنداء الحق مجيبا، لأنه إذ ذاك يناديه باسم العبد، فيقول له: يا عبدي، فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب، فيقول له: لبيك يا رب، فيكون صادقا في إجابته متحققا في نسبته،

ويكون أيضا من حضرته قريبا، لوجود بعده عن نفسه التي من شأنها النفور عنها والفرار منها، فإذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الأوزار، ميسرة عليه أعمال الأخيار، متحليا في الظاهر والباطن بأشرف الحلى، محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩: ٢٠] وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال عز من قائل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية، وكذلك من تشبه بهم في محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية، إلا أنّ هؤلاء محفوظون، لا معصومون، على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة، والفرق بينهما هو ما قاله الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: أن المعصوم لا يلم بذنب ألبتة، والمحفوظ قد تحصل منه همات، وقد يكون له في الندرة زلات، ولكن لا يكون له إصرار، أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب.

وقد وصف الله تعالى عباده ذوي التخصيص أولي التطهير والتمحيص في آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير، وما استنبط منها أرباب الإشارات والتذكير، وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية، ومسترقو حظوظهم الدنيوية، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال النبي ﷺ فيما روي عنه: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسْ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**» الحديث، وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣: ٩٤: ٩٥].

واعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات، ومن عرف ذلك من نفسه لا يزال متهما لها مسيئا ظنه بها، آخذا حذره منها، وإلا وقع في المعاصي والذنوب من حيث لا يشعر، وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله:

٣٥ . أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا.

الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة.

وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساوئها ويصير قبيحها حسنا، كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا، لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

كما أن عين السخط تبدي المساويا

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا متنبها للطوارق والعوارض، وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة، فإذا صار عفيفا كان مجتنبا لكل ما نهاه الله عنه، محافظا على جميع ما أمره به، وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل، وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه.

فإذن لا شيء أوجب على العبد من معرفة نفسه، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها، وبقدر تحقق العبد في معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه، وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم، والتهمة منهم لها، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى.

ولذلك قال أبو حفص رضي الله عنه: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال أيضا أبو حفص رضي الله عنه: «منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إليّ نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «لا تسكن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «ما رضيت عن نفسي طرفة عين».

ويحكى عن سري السقطي رضي الله عنه أنه قال: «إني لأنظر إلى وجهي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة».

وقال أيضا: «من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم».

إلى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ رضي الله عنهم في هذا المعنى.

وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه جزءا صغير الجرم، عظيم الفوائد في عيوب النفس وكيفية مداواتها، فلينظر فيه المريد.

وكذلك ألف قبله الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي كتابا سماه "النصائح" جمع فيه من معايب النفس وخدعها، وغرورها وشرورها، جملة شافية كافية، ونبه فيه على سنن دارسة عافية، مما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم، من التفتيش والتفقد والنظر فيما يصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم، والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب، والمبالغة في الحذر من محقرات الذنوب.

وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي قدس الله سره منه فصلا في كتابه، واعتمد فيه ذكره بلفظه ونص خطابه، بعد أن أثنى على مؤلفه بما هو أهله، أبان للجاهل به علمه وفضله، فقال في حقه: «والمحاسبي رحمه الله تعالى حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات».

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه، ثم ذكره، وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة، ونخبة أوانه ورعا وزهادة، سيدي أبو العباس بن عامر رحمة الله تعالى ورضوانه، يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب والعمل بما تضمنه من حق وصواب، وأظنني سمعته ذات يوم يقول: لا يعمل بما فيه إلا ولي، أو كلاما هذا معناه! فليتخذ المريد مطالعته وردا، وليحرص على العمل بما تضمنه، مستعينا بالله تعالى، وسائلا منه توفيقا ورشدا، لينصح لمولاه في مراعاة إصلاح باطنه، والقيام على قدم الصدق في مواطنه، وليجعل هجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف والتعرف، فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه، وتنتفي عنه الغرة في عمله بوظائف دينه، ولا يقدم على ذلك إلا فرض العين وما تسمح به

نفسه من مكابدة التعب والأين، ولا يشغل نفسه بعلم يغبر على وجه مقصوده، ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده، وهو ما أكب الناس عليه اليوم، وحادوا به عن سنن القوم، حتى تطرق لهم بسبب ذلك من رذائل الصفات، وعظائم الآفات ما صار بهم إلى الهلاك والشقاء، وأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم اللقاء، وسجل عليهم بالكذب في دعواهم أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم، فإياك وإياهم.

وأنشد:

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي

ولذلك قال المؤلف:

٣٦ . وَلأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِه؟

فائدة الصحبة إنما هي الزيادة في الحال وعدم النقصان فيها، حسبما يأتي الكلام عليه عند قوله: (لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله).

فصحبة من يرضى عن نفسه، وإن كان عالما، شر محض، ولا فائدة فيها، لأن علمه غير نافع له، وجهله الذي أوجب رضاه عن نفسه صار غاية الضرر، وكأنه إذ فاته هذا العلم الذي يريه عيبه حتى لا يرضى عن نفسه لا علم عنده.

وصحبة من لا يرضى عن نفسه، وإن كان جاهلا، خير محض، وفيه كل الفائدة،

لأن جهله غير ضار، وعلمه الذي أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع، وكأنه إذا حصل له هذا العلم لا جهل عنده.

٣٧ . شُعَاعُ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ، لاَ عَدَمَكَ وَلاَ وُجُودَكَ.

شعاع البصيرة نور العقل، وعين البصيرة نور العلم، وحق البصيرة نور الحق.

فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبا منهم، أي بالعلم والإحاطة.

والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدما في وجود ربهم، والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه.

٣٨ . كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

الأزمنة ها هنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق، والمقصود أن الله لا شيء معه، لثبوت أحديته.

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن　　　فما ثَمّ موصول وما ثَمّ بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى　　　بعيني إلا عينه إذ أعاين

وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: (الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته).

وقال رضي الله عنه:

٣٩ . لاَ تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالكَرِيمُ لاَ تَتَخَطَّاهُ الآمَال.

الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى، قال الجنيد رضي الله عنه: «الكريم الذي لا يحوجك إلى مسألة».

وقال الحارث المحاسبي رضي الله عنه: «الكريم الذي لا يبالي من أعطى».

وقيل: «الكريم الذي لا يخيب رجاء المؤملين»، وأجمع العبارات في معنى الكريم ما قيل: الكريم الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفى عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعا، فإذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى فينبغي إذن أن لا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره، كما قال بعضهم:

حرام على من وحد الله ربه ... وأفرده أن يجتدي أحدا رفدا

ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة ... أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا المُلك مُلك لا يباع ولا يهدى

٤٠ . لاَ تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعًا، مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟!

إذا أورد الله تعالى عليك حاجة و أنزل بك نازلة، فاعلم أنه لا رافع لها سواه، إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا لثبوت توحيده فإنه لا فاعل سواه، إذ هو غالب على أمره، لا يغالبه أحد، ويستحيل أيضا أن يرفعها عنك من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به لثبوت عجزه وضعفه، ومن المحال تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك.

قال بعضهم: «من اعتمد على غير الله فهو في غرور لأن الغرور لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم الذي لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء في كل نفس وحين وأوان وزمان».

قال عطاء الخراساني رضي الله عنه: «لقيت وهب بن منبه في الطريق، فقلت: حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي وأوجز، قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، أما وعزتي وجلالي لا يستنصر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات السبع من يده وأسخت الأرض من تحته، ولا أبالي في أي واد هلك».

قال محمد بن الحسين بن حمدان: «كنت في مجلس يزيد بن هارون، وكان إلى

جانبي رجل، قلت له: ما اسمك؟ فقال: سعيد، فقلت: ما كنيتك؟ قال: أبو عثمان، فسألته عن قصته وخبره، فقال: نفدت نفقتي، فقلت: ومن تؤمل لما قد نزل بك؟ فقال: يزيد، فقلت: إذن لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك ولا يبلغ أملك، فقال: وما علمك بهذا رحمك الله؟ قلت: إني قرأت في بعض الكتب أن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي، وجودي وكرمي، وارتفاعي فوق عرشي في علو مكاني، لأقطعن أمل كل مؤمل لغيري بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي، ولأقطعنه من وصلي، أيؤمل غيري في النوائب والشدائد بيدي، وأنا أنجِّي ويرجِّي غيري، وتطرق الفكر أبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيم جرمه فقطعت رجائه مني، أم من ذا الذي قرع بابي فلم أفتحه له، جعلت آمال خلقي بيني وبينهم متصلة، فتعلقت بغيري وجعلت رجاءهم مدخرا لهم عندي فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يملون تسبيحي من ملائكتي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري، فمالي أراه بآماله معرضا عني، ومالي أراه لاهيا بسواي، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته منه فلم يسألني رده وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلي، أبخيل أنا فيبخلني عبدي، أليس الدنيا والآخرة لي، أو ليس الرحمة والفضل بيدي، أو ليس الجود والكرم لي، أو ليس أنا محل الآمال، فمن ذا

الذي يقطعها دوني، وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سماواتي وأهل أرضي أملوني ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكي عضو ذرة، كيف ينقص ملك كامل أنا قيِّمُه، فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويا بؤس من عصاني ولم يراقبني، وثبت على محارمي ولم يستح مني».

قال: رحمك الله أمل هذا الحديث علي، فكتبته، ثم قال: والله لا أكتب حديثا بعده.

قلت: والأصل الذي ينبني عليه هذا المعنى هو تحقق العبد في مقام حسن الظن بالله تعالى، ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى في ذكره بأثره فقال:

٤١ . إِنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ لأجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ، فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلاَّ حَسَنًا، وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلاَّ مِنَنًا.

حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين، والناس فيه على قسمين: خاصة، وعامة. فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية، والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم.

والتفاوت بين المقامين ظاهر، ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب في أحدهما ما يخاف في الآخر، لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا في المعرفة بالله تعالى، واحتظوا بأنوار اليقين، به اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظن.

وأرباب المقام الثاني لم يرتقوا عن نظرهم إلى الأفعال، وهي متلونة عليهم في كل

حال، وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها، فهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم، فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله تعالى وتحدث النفس بما يقتضي وجود هلع وجزع، فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦] وما أشبهه، وليقس النادر على الغالب.

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «حسن الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أو لا يكون، لأن الوهم قاتل، وهو لوقت ثان، فمتى أعطيت أذنك للوهم هلكت وحكمت، وكذلك الإصغاء بالأذن إلى الشيطان والنفس جنس واحد»، انتهى.

قلت: وحسن الظن يطلب من العبد في أمر دنياه وفي أمر آخرته. أما أمر دنياه: فأن يكون واثقا بالله تعالى في إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كد ولا سعي فيها، أو سعي خفيف مأذون فيه ومأجور عليه بحيث لا يفوته ذلك شيئا من نفل ولا فرض، فيوجب له ذلك سكونا وراحة في قلبه وبدنه، فلا يستفزه طلب ولا يزعجه سبب. وأما أمر آخرته: فأن يكون قوي الرجاء في قبول أعماله الصالحة وتوفية أجوره عليها في دار الثواب والجزاء، فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر والتكثير من أعمال البر بوجود حلاوة واغتباط، ولذاذة ونشاط.

وقد قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «أوثق الرجاء رجاء العبد ربه، وأصدق الظنون حسن الظن بالله تعالى».

ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التي ينبغي للعبد أن لا يفارقه فيها أوقات الشدائد والمحن، وحلول المصائب في الأهل والمال والبدن، لئلا يقع بسبب عدم ذلك في الجزع والسخط، وسيأتي هذا المعنى في كلام المؤلف رحمه الله وهو قوله: (من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره).

ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت، وقد جاء في الخبر: «**لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلّ**»، وفي حديث جابر: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لاَ يَمُوتَ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ تَعَالَى، فَلْيَفْعَلْ**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]. ولأنه تعالى قال فيما روي عنه: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وكان ابن مسعود يحلف بالله تعالى ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه الله عز وجل ذلك، لأن الخير كله بيده، فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه، لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له» انتهى.

وقد روي عن أبي النضر بن الحيان قال: «خرجت عائدا ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته، فدخلنا عليه وهو في فراشه، فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير إليه، فأقبل واثلة حتى جلس على الفراش، وأخذ يزيد بن الأسود بكفي واثلة حتى جعلهما على وجهه، فقال له واثلة: أسألك عن شيء

تخبرنيه؟ قال: لا تسألني عن شيءٍ أعلمه إلا أخبرتك به، قال له واثلة: كيف ظنك بالله عز وجل؟ قال: ظني والله بالله حسن، قال: فأبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ خَيْرًا وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا**».

وروي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: «**عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرِيضًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَسَنُ الظَّنِّ، قَالَ: فَظُنَّ بِهِ مَا شِئْتَ، فَإِنَّ اللهَ عِنْدَ ظَنِّ الْمُؤْمِنِ بِهِ**».

وروى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللهِ**».

قلت: والأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى، ومطالعتها مما يزيد المريد قوة في هذا المقام، فمن أراد الشفاء في ذلك فعليه بمطالعة كتاب "الرجاء" من قوت القلوب، وكتاب "الإحياء"، قال بعضهم:

ما زلت أرجو الله حتى كأنني ... أرى بجميل الصنيع ما هو صانع

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التي بمنازلتها يتحقق العبد في مقام حسن الظن بالله تعالى، وهو: عكوف العبد بباب الله وتعلق قلبه بوحدانيته، وأشار إلى أن ذلك هو غاية النعيم ومنتهى الأماني، لا ما تتوهمه النفس وتطلبه من النعيم المعقول والأمنيات التي تفنى وتزول، وحكم بأن خلاف هذا من عمى القلب ومما يستحق أن يتعجب منه كل ذي لب، فقال:

٤٢ . العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَهْرَبُ مِمَّنْ لاَ انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ وَيَطْلُبُ مَا لاَ بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

هرب العبد من مولاه بإقباله على شهواته ومتابعة هواه، وذلك نتيجة عمى قلبه ووجود جهله بربه، لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني الذي لا بقاء له على الباقي الذي لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة لآثر الباقي على الفاني، ولفعل ما فعله سحرة فرعون لما آمنوا بربهم إذ لم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الإحسان والإنعام والتقريب والإكرام، ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل، بل قالوا ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ...﴾ [طه: ٧٢] الآية، ثم قالوا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]، فهؤلاء استنارت قلوبهم، وشهدوا محبوبهم فكان منهم ما كان.

٤٣ . لاَ تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ، فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى يَسِيرُ وَالمَكَانُ الذي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الذي ارْتَحَلَ مِنْهُ، وَلَكِنِ ارْحَلْ مِنَ الأَكْوَانِ إِلَى المُكَوِّنِ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

العمل على طلب الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات نقصان في الحال، وشوب في إخلاص الأعمال، وهو معنى الرحيل من كون إلى كون، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس في أن تحصل لها رتبة أو تنال بسعيها موهبة، وهذه كلها من الأكوان، والأكوان كلها متساوية في كونها أغيارا، وإن كان بعضها أنوارا.

وتمثيله بحمار الرحى مبالغة في تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار، وتلطف في دعائهم إلى حسن الأدب بين يدي الواحد القهار، حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه، وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاء بمقتضى العبودية وقياما بحقوق الربوبية فقط، من غير التفات إلى النفس على أي حالة تكون، فهذا هو تحقيق الإخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص، جعلنا الله من أهله بمنه وفضله.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ، فَافْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» وَتَأَمَّلْ هَذَا الأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ.

في هذا الحديث النبوي تنبيه على المعنى الذي ذكره، وموضع الاعتبار والتأمل هو -والله أعلم- قوله في القسم الثاني «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» أي: فلا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به من هاجر إلى الله ورسوله، وهو قوله «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**» وهذا من باب حصر المبتدأ في الخبر، كما تقول: زيد صديقي، أي لا صديق له غيري، وكأنه ﷺ نبه في القسم الثاني بالدنيا التي يريد أن يصيبها والمرأة التي يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت، وإن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل، فقوله: «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**» هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون، وهو المطلوب من العبد، وهو مصرح به غاية التصريح، وقوله: «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» هو البقاء مع الأكوان والتنقل

فيها، وهو الذي نهى عنه، وهو مشار به غير مصرح، فليكن المريد عالي الهمة والنية حتى لا يكون له التفات إلى غير ولا كون ألبتة، ولقد أحسن الشاعر في قوله:

وكلُّ ما قد خلقَ اللـَّ ـــــهُ ومـــا لمْ يَخْلُـــقِ
مُحْتَقَـــــرٌ في همَّتـــــي كشَـــعرةٍ في مَفرِقـــي

قال رجل لأبي يزيد رضي الله عنه: «أوصني، فقال: إن أعطاك من العرش إلى الفرش فقل له: لا، أنت أريد».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «لو خيرت بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت ركعتين، لأني في الفردوس بحظي وفي الركعتين بربي».

وقال الشبلي رضي الله عنه: «احذر مكره ولو في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [الطور: ١٩]»، يريد: لا تستغرق في الحظ، ولتكن في كل شيء به لا بنفسك، فقوله تعالى: "كلوا واشربوا" وإن كان ظاهره إكراما وإنعاما، فإن في باطنه ابتلاء واختبارا حتى ينظر من هو معه، ومن هو مع الحظ.

قال رضي الله عنه:

٤٤ . لاَ تَصْحَبْ مَنْ لاَ يُنْهِضُكَ حَالُهُ وَلاَ يَدُلُّكَ عَلَى الله مَقَالُهُ.

تكلم ها هنا في "الصحبة"، وهي أصل كبير من أصول القوم، وفيها منافع وفوائد، ولذلك استمر عليها شأنهم قديما وحديثا، وقد نبه المؤلف رحمه الله على فائدتها في قوله: (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله)،

فإنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة، ومعنى الحال المنهضة ها هنا: هو أن تكون همته متعلقة بالله تعالى، مرتفعة عن المخلوقين، لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى، ولا يتوكل في أموره إلا على الله، قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا، وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا، ولا يقتضي لها حظا، ويكون في أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط، وهذه صفة العارفين الموحدين، فصحبة من هذه حاله – وإن قلت عبادته ونوافله – مأمونة الغائلة، محمودة العاقبة، جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية، لأن الطبع يسرق من الطبع، والنفس مجبولة عل حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام، فإن ذلك متعذر، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالا، وأصوب منه مقالا، ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير، فليس له فائدة في صحبته، بل ربما زادته شرا، لأن خلطته تدعوه إلى التصنع والتزين له، ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصي القلوب، وهي أشد عليه من معاصي الجوارح بكثير.

قال يوسف بن حسين الرازي رضي الله عنه: «لأن ألقى الله بجميع المعاصي أحب إليّ من أن ألقاه بذرة من التصنع»، فيدخل بذلك عليه النقص في حاله من حيث رجاه الزيادة فيها.

قال بعض الصوفية: «لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر، ولا تنقص عنده بإثم، يكون ذلك لك وعليك، وأنت عنده سواه».

وقال بعضهم: «كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئت».

وقيل لبعض العارفين: «إن فلانا يحبك ويكثر ذكرك، فقال: إنه لحبيب إلي، وأجله، وأعرف قدره، ولكن يهون علي أن ألقى الشيطان ألف مرة ولا ألقاه مرة واحدة، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أخشى أن أتزين له أو يتزين لي».

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وكانت هذه الطائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربعة معان، لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض على بعض، إن أكل صاحبه الدهر كله لم يقل له صاحبه"صم"، وإن صام الدهر كله لم يقل له صاحبه "أفطر"، وإن نام الليل كله لم يقل له صاحبه "قم فصل"، وإن صلى الليل كله لم يقل له صاحبه "نم بعضه"، وتستوي أحواله عنده، فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه، قالوا: وإذا كان يزيد عنده بالعلم وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين وأبعد من المراءاة من قبل أن النفس مجبولة على حب المدح وكراهة الذم، ومبتلاة بأن يرى حالها التي عرفت به، وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها، وأن تجتلب ما يوجب المدح منهم، وتجتنب ما يوقع الذم عندهم، فإذا صحب من يعمل معه هذا فليس ذلك طريق الصادقين ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلوب وأسلم للدين، وفي معاشرة أمثالهم فساد القلوب ونقصان الإيمان وضعف اليقين، لأن هذه أسباب الرياء، وفي الرياء حبط الأعمال وخسران رأس المال، والسقوط من عين ذي الجلال».

وكان الثوري رضي الله عنه يقول: «من عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه، فيهلك كما هلكوا».

وكان بعض الحكماء يقول: «لا تؤاخ من الناس من يتغير عليك في أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، لأن هذه المعاني تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع».

وقال في موضع أخر: «من كان ناظرا في أخوة أخيه، أو في صحبته لكثرة أعماله، أو واقفا مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريق التي تنفذ إلى التحقيق لأنها تحول، وإنما العمل على حقائق القلوب لأنها ثابتة في الأصول، فإن اقترن إلى جهله نقص معرفة الأخوة دخل عليه التزين له والتصنع عنده، لتعلو منزلته ويحسن عنده أثره، فيدخله ذلك في الشرك، ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد، فتزل قدم بعد ثبوتها، ويسقط من عين مولاه فلا يتولاه، لأن النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح وإثبات المنزلة بإظهار الوصف، فيكون هذا الصاحب حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرهم له، ويصير أحدهما بلاء على صاحبه، فليفارقه حينئذ لأنه جاهل فلا يصحبه، لأنه يجد النقصان بصحبته، وتدخل عليه الآفات بمقارنته ولينفرد بنفسه ويصدق في حالة عالية كانت أو دنيئة، وضيعة كانت أو رفيعة، من غير مقاربة أحد ولا مباينته فهو خير له وأحمد عاقبة»، انتهى.

ويدل على إرادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذي ذكرناه في التنبيه على قوله: «لا

تصحب من لا ينهضك حاله» ما أعقبه به من قوله: «ولا يدلك على الله مقاله»، فيكون الحال والمقال متناسبين في كون كل واحد منهما متعلقا بالله تعالى عبودية ودلالة.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين».

وقال يوسف بن حسين الرازي رحمه الله تعالى: قلت لذي النون المصري رضي الله عنه: من أصحب؟ فقال: «من لا تكتمه شيئا مما يعلمه الله منك».

وقال حمدون القصار رضي الله عنه: «اصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به»، إشارة إلى أن العجب بالعمل منفي عندهم في صحبتهم.

وقال الجنيد رضي الله عنه: «إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء».

وقال علي ﷺ: «شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة وألجأك إلى الاعتذار» وقال مرة: «شر الأصدقاء من تتكلف له»، وأنشدوا ليوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه:

أحب من الإخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أحبه ... ويحفظني حيا وبعد مماتي
فمن لي بهذا، ليتني قد وجدته ... فقاسمته مالي من الحسنات

والحاصل من هذا: أن صحبة الصوفية هي التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها أحد سواهم، وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، فمن جلس عند دكّان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة، هذا في الحضور والمجالسة فما ظنك في الصحبة والمؤانسة.

وقد وصفهم بعض العلماء فقال: «الصوفي من لا يعرف في الدارين أحدا غير الله، ولا يشهد مع الله سوى الله، قد سخر له كل شيء، ولم يسخر هو لشيء، وسلّط على كل شيء ولم يسلط عليه شيء، يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء، يصفو به كدر كل شيء ولا يكدر صفوه شيء، قد شغله واحد عن كل شيء، وكفاه واحد عن كل شيء».

فانظر رحمك الله هذه الصفات ما أعظمها وأجلها، وما أشرف حال من اتصف بها، وما أعزه في هذا الوجود! نفعنا الله بهم، ورزقنا من بركاتهم.

وفي صحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد ما لا يحصل له بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات حتى يبلغ من ذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم عامل ناقل.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «ماذا أصنع بالكيمياء، والله لقد

صحبت أقواما يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رمانا للوقت، فمن صحب مثل هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء».

وقال أيضا رضي الله عنه: «والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحدا مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم».

وقال أيضا رضي الله عنه: «والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته».

وفيه يقول شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أبو العباس هو الرجل الكامل والله؛ إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه فلا يمسي عليه المساء إلا وقد أوصله إلى الله» وسيأتي طرف من ذكر حال المؤلف رحمه الله تعالى في صحبته، وما أوصله إليه ببركة رؤيته عند قوله: (كل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذي منه برز).

٤٥ . رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الإِحْسَانَ منك صُحْبَتُكَ لِمَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ.

هذا أعظم آفة تدخل على من خالف ما ذكره، وصحب من هو دونه في الحال، وهو استحسانه لما هو عليه، فيؤديه ذلك إلى رضاه عن نفسه ورؤيته لإحسانها، وهو أصل كل شر كما تقدم.

٤٦ . مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلاَ كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ.

مقادير الأعمال على حسب قلوب العمال، فما صدر عن الزاهدين في الدنيا من

عمل طاعة وإن كان قليلا في الحس فهو كثير على التحقيق، وما صدر عن الراغبين فيها من عمل بر وإن كان كثيرا في الحس فهو قليل على التحقيق، وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التي تقدح في إخلاص أعمالهم من مراءاة الناس والتصنع لهم، وطلب الأغراض الدنيوية عليها منهم، لأنهم زهدوا فيها، فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر قليلها بسبب ذلك ويكثر، والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة القادحة في إخلاصهم بسبب رغبتهم في الدنيا فلا تقبل منهم، فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم للعمل، فإنه لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل».

وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الإخلاص وعدم رياء الناس، فقيل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١] قيل: يعني خالصا، فسمى الخالص كثيرا، وهو ما خلصت فيه النية لوجه الله العظيم.

ووصف ذكر المنافقين بالقلة لما اشتمل عليه من عدم الإخلاص ووجود رياء الناس، فقال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢] يعني: غير خالص، وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا».

وقال بعض الصحابة ﷺ لصدر التابعين: «أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرا منكم، قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا».

وعن بعض الصحابة ﷺ أيضا: « تابعنا الأعمال كلها، فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من الزهد في الدنيا».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «سألت معروفا الكرخي رضي الله عنه عن الطائعين لله تعالى بأي شيء قدروا على الطاعة؟ فقال: بإخراج الدنيا من قلوبهم، ولو كان شيء منها في قلوبهم ما صحت لهم سجدة».

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة في قلبه، فقال: لأن عندك بنت إبليس وهي الدنيا، ولابد للأب أن يزور ابنته في بيتها وهو قلبك، ولا يؤثر دخوله إلا فسادا».

وكان أبو محمد سهل رضي الله عنه يقول: يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد، ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله». قال: ولا يرى في القيامة أحد أفضل من ذي زهد عالم ورع.

٤٧ . حُسْنُ الأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الأَحْوَالِ، وَحُسْنُ الأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الأَنْزَالِ.

حسن الأعمال توفيتها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى، لا لطلب حظ عاجل، ولا لثواب آجل.

وحسن الأحوال أن تكون سالمة من العلل والدعاوي موسومة بسمة الصدق.

والتحقق في مقامات الإنزال: هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف، بحيث ينتفي عنه كل شك وريب.

وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض، وهو معنى ما يقوله الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: لابد في كل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل، فالعلم ينتج الحال، والحال ينتج العمل» وهذا الكلام الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى نوع استدلال على ما قاله في الزاهد والراغب.

٤٨ . لاَ تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ الله فِيهِ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ، فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

الذكر: أقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو علم على وجود ولايته كما قيل: «الذكر منشور الولاية»، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل، قال الشاعر:

والذكر أعظم باب أنت داخله لله، فاجعل له الأنفاس حرّاسا

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: الذكر عنوان الولاية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحبة البداية، ودلالة صفاء النهاية»، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومنشؤها عن الذكر، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى، ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٌ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» لكان في ذلك الشفاء والغنية، وهذا الحديث متفق على صحته.

قالوا: ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت، فما من وقت إلا والعبد مطلوب به، إما وجوبا وإما ندبا، بخلاف غيره من الطاعات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحد في تركه إلا مغلوبا على عقله».

وأمرهم بذكره في الأحوال كلها، فقال عز من قائل: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] أي بالليل والنهار وفي البر والبحر والسفر والحضر

والغنى والفقر وفي الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال.

وقال مجاهد رضي الله عنه: «الذكر الكثير أن لا تنساه أبدا»، وروي عن رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ**» فينبغي للعبد أن يستكثر منه في كل حالاته، ويستغرق فيه جميع أوقاته، ولا يغفل عنه، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه، فإن تركه له وغفلته عنه أشد من غفلته فيه، فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه وإن كان غافلا فيه، فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة، وهذا نعت العقلاء، ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور، وهذه صفة العلماء، ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهي مرتبة العارفين المحققين من الأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أي إذا نسيت ما دون الله، عند ذلك تكون ذاكرا لله، وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محوا في وجود العيان، وفي هذا المعنى أنشدوا:

ما إن ذكرتك، إلا همّ يقلقني	سرّي، وقلبي، وروحي عند ذكراك
حتى كأن رقيبا منك يهتف بي	إياك ويحك والتذكار إياك
أما ترى الحق قد لاحت شواهده	وواصل الكل من معناه معناك

وقال الواسطي رحمه الله مشيرا إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره، لأن ذكره سواه.

وقال أبو العباس بن البنا في كلام ذكره على مقدمة كتاب أبي العز تقي الدين بن المظفر الشافعي، وهو كتاب " الأسرار العقلية في الكلمات النبوية"، ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله: «ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور، جلّ ذكره»، وهذا هو الذكر الخفي عند المتصوفة على الاستهتار والتمكن في الإسرار.

وأما قولهم: حتى يتمكن الذاكر إلى حالة يستغرق بها عن الذكر، فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد، بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم، وبيان ذلك أن يكون القلب عند الذكر في الذكر فارغا من الكل، فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره، فيصير القلب بيت الحق، ويمتلئ منه، فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبر، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به، فإن بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها، وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به، قد استولى المذكور العلي على الفؤاد فامتلكه، وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه، وعلى الصفات من هذا العبد فقلّبها كيف شاء في مرضاته، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف، وتنبعث الأعمال بالطاعات نشاطا ولذة من غير كلال ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقد وصف الله تعالى قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك في قوله الحق ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى، فكادت أن تبدي به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير، بل كان تركها

للتصريح بذكره صبرا بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى الله إليها من قبل في شأن موسى وبأنه من المرسلين، وبذلك يندفع الإشكال الذي ذكره أبو العز ووصفه بالعظم، وهو اجتماع الضدين في بادئ الرأي، وهما الذكر والغفلة عن الذكر.

وهذا المعالم والمراقي لا يعرف حقائقها إلا السالكون وجدانا والعلماء إيمانا وتصديقا، فإياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الصم البكم في الظلمات.

ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ولا يمنعه حجاب، ولا يحويه مكان، ولا يشتمل عليه زمان ولا يجوز عليه الغيبة بوجه، ولا يتصف بحوادث المحدثين، ولا يجري عليه صفات المخلوقين، فهو حاضر عينا ومعنى، وشاهد سرا ونجوى، إذ هو القريب من كل شيء، وأقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الإيجاد له، والعلم به، والمشيئة فيه، والقدرة والتدبير له، والقيام عليه، وخلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها، وأوجد الأعداد فلا تحصره معانيها، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] انتهى كلام الشيخ أبي العباس رحمه الله تعالى في معنى المقام الثالث من مقامات الذكر، وهو في غاية الحسن والتحقيق مشيرا إلى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق.

فلا ينبغي أن يستبعد العبد الوصول إلى هذا المقام الكريم، فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم، فعلى العبد القيام بحق الأسباب، ومن الله تعالى رفع الحجاب.

وقال رضي الله عنه:

٤٩ . مِنْ عَلاَمَاتِ مَوْتِ القَلْبِ: عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ المُوَافَقَاتِ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلاَتِ.

القلب إذا كان حيا بالإيمان حزن ما فاته من الطاعات، وندم على ما فعله من الزلات، ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات، ويوفق له من اجتناب المعاصي والسيئات. وقد جاء في الخبر: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

فإذا لم يكن العبد بهذا الوصف، وعدم الحزن على ما فاته، والندم على ما أتاه فهو ميت القلب، وإنما كان ذلك من قبل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى على العبد وسخطه عليه، فإذا وفق الله تعالى عبده للصالحات سره ذلك، لأنه علامة على رضاه عنه، وغلب حينئذ رجاؤه، وإذا خذله ولم يعصمه فعمل بالمعاصي ساءه ذلك وأحزنه، لأنه علامة على سخطه عليه، وغلب عليه حينئذ خوفه.

والرجاء يبعث على الاجتهاد في الطاعات، وليس من مقتضاه تركها وعدم الحزن على ما فاته منها أمنا واغترارا، والخوف يبعث على المبالغة في اجتناب المعاصي والسيئات، وليس من مقتضاه فعلها، وترك الندم عليها إياسا وقنوطا.

وفي حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «**بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتاه آت،**

فلما حاذانا ورأى جماعتنا أناخ راحلته، ثم مشى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوضعت راحلتي من مسيرة تسع فسيرتها إليك ستا، وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وأنضيت راحلتي لأسألك عن اثنتين أسهرتاني، فقال له النبي ﷺ: من أنت؟ قال: زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير، سل فرب معضلة قد سألت عنها، قال: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد. فقال النبي ﷺ: بخ بخ، كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله وأحب أن يعمل به، وإذا فاتني حننت إليه، وإذا عملت عملا قل أو كثر أيقنت بثوابه، قال: هي هي بعينها يا زيد، ولو أرادك الله للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي واد هلكت، فقال زيد: حسبي، حسبي. ثم ارتحل ولم يثبت».

٥٠ . لاَ يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَه.

عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين:

أولها: أن يعظم عنده عظمة تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه، وصدق العزم، على أن لا يعود إلى مثله، فهذه عظمة محمودة، وهي من علامات إيمان العبد، كما قلنا.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، قال به هكذا فأطاره» ويقال: «إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله تعالى ، وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى».

والثاني: أن تعظم عنده عظمة توقعه في اليأس والقنوط، وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى، فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان، وهي شر عليه من ذنوبه، وسبب ذلك وجود جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم، ووقوفه مع نفسه وقياسه بعقله وحدسه، ولو كان عارفا بالله حق المعرفة لاستحقر ذنوبه في جنب كرمه وفضله، فأي قدر للعبد أو قيمة حتى يقع في ذنب لا يسعه عفو ربه، ويكبر عليه أن يغفره.

قال في "التنوير": «واعلم أنه لابد في مملكته من عباد هم نصب الحلم، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة»، وافهم قوله ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»، وقوله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**».

وجاء رجل إلى الأستاذ أبي الحسن ﷺ، فقال: يا سيدي، كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت، وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا، فقال: يا هذا كأنك تريد أن لا يعصى الله تعالى في مملكته، من أحب أن لا يعصى الله في مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة رسول الله ﷺ، وكم من مذنب كثرت إساءته ومخالفته وجبت له الرحمة من ربه، فكان له راحما بقدر إيمانه وإن عصى عالما، انتهى.

فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاما يؤديه إلى أن يلقى بيده إياسا من روحه، وقنوطا من رحمته، وسوء ظن به، بل عليه أن يتوب إلى ربه منه، ويرجع

إليه عنه، ويعلم حكمة الله تعالى في تسليطه عليه وتخليته بينه وبينه، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «**لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ما خلّى الله تعالى بين مؤمن وبين ذنب أبدا**»، فنبهك الله بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذي هو أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه، لأن صاحبه ناظره إلى نفسه، لا إلى ربه، مستعظم لطاعته وعبادته، ملاحظ لذلك، وساكن إليه، بخلاف ذلك الذنب، لأنه يوجب له الخوف والحذر والملجأ إلى الله تعالى والفرار إليه عن نفسه، والذنب يقبل به على ربه، والعجب يؤديه إلى الاستغناء، والذنب يؤديه إلى الافتقار، وأحب أوصافه العبد إلى الله تعالى عز وجل افتقاره إلى مولاه، وأشرف أحوال المؤمن ما يرده إليه، ويقبل به عليه.

٥١ . لا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلاَ كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُه.

إذا ظهرت الصفات العلية بطلت أعمال العاملين، وإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر، وإذا ظهر وصف الكرم والفضل على من أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة».

ومن دعائه رضي الله عنه: «إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي وإن مقتّني لم تقبل حسناتي».

وما أحسن قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في دعائه ومناجاته: «واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك».

وسيأتي من مناجاة المؤلف رحمه الله في مثل هذا المعنى قوله: (إلهي! كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك).

٥٢ . لاَ عَمَلَ أَرْجَى لِلْقَبُولِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ، وَيُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ.

في النسخ الموجودة بأيدينا "لا عمل أرجى للقلوب"، ومعناه على هذا الوجه: أن العمل الموصوف بهذه الصفة لا يلتفت إليه القلب ولا يعتبره، وفي عدم التفاته واعتباره صلاحه وتحرره من رق رؤيته، فيبقى حينئذ مع ربه لا مع عمله، ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره: لا عمل أرجى لصلاح القلوب، أو ما في معناه، وسيأتي من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى، وهو قوله: (قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم...) الخ.

والغالب على الظن أن الذي قصده المؤلف رحمه الله تعالى وذكره إنما هو لفظ "القبول" فغلط الناسخ فقلب حروفه، ولا يحتاج في هذا إلى حذف، وتقريره على هذا الوجه أن تقول: سلامة العمل من الآفات شرط في قبوله، لأن صاحبه متق لله تعالى، وقد قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وإنما يسلم من الآفات باتهام النفس في القيام بحقه ورؤية تقصيره فيه، فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ويحتقر عند وجوده، فلا يساكنه ولا يعتمد عليه، فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه مستعظما له، غائبا عن شهود منة الله تعالى عليه في توفيقه له أوقعه ذلك في العجب، فحبط لذلك عمله وخاب سعيه.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «ما استحسنت من نفسي عملا فاحتسبته»، وقال علي بن الحسين رضي الله عنه: «كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك، فذلك دليل على أنه لم يقبل منك، لأن القبول مرفوع مغيب عنك، وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل على القبول».

وقد سئل بعض العارفين: ما علامة قبول العمل؟ قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠] قال: فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أن لا يبقي عندك منه شيء، فإنه إذا بقي في نظرك منه شيء ولم يرتفع لبينونة بين عنديتك وعنديته، فينبغي للعبد إذا عمل عملا أن يكون عنده نسيا منسيا بما ذكرناه من اتهام النفس ورؤية التقصير حتى يتحصل له قبوله.

٥٣ . إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا.

الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته، لأن

الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار، فإذن إنـما أورده عليك لتكون به عليه واردا.

٥٤ . أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الأغْيَارِ، وَلِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ الآثَارِ.

الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك، وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليهـا، واعتمادك عليها، فإنما أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك، وليحررك من ملكيـة مـن اسـترقّك، والإشـارة إلى هـذا المعنـى بـما ضرب الله تعـالى مـن المثـل للكـافرين في قولـه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] فمن سلم من يد الأغيار، وحرر مـن رق الآثـار لا يكون لمخلوق فيه نصيب ولا شركة، وكان سلما لله عز وجل.

٥٥ . أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ إِلَى فَضَاءِ شُهُودِكَ.

سجن وجوده هو: شهوده لنفسه ومراعاته لحظه، وفضاء شهوده: أن يغيب عن ذلك بشهود عظمة الله تعالى وجلاله ورؤية قيام حركاته وسكناته به.

قال أبو القاسم النصر اباذي رضي الله عنه: «سجنك نفسـك إذا خرجـت منهـا وقعت في راحة الأبد» وسيأتي كلام المؤلف في معنى قوله: سجن وجودك (الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته).

٥٦ . الأَنْوَارُ مَطَايَا القُلُوبِ وَالأَسْرَارِ.

أنوار الإيمان واليقين مطايا حاملة لأسرار القلوب إلى حضرة علام الغيوب، وتلك هي الواردات المذكورة.

٥٧ . النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوَارِ وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ وَالأَغْيَارِ.

نور التوحيد واليقين، وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس، والحرب بينهما سجال، فإذا أراد الله نصر عبده أمدّ قلبه بجنوده، وقطع عن نفسه مدد جنودها، وإذا أراد خذلان عبده فعلى العكس، فإذا مال القلب إلى العمل بأمر محمود مؤلم في الحال ملتذ به في المآل ومالت النفس إلى العمل بأمر مذموم ملتذ به في الحال مؤلم في المآل، وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذي هو من أمر الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلب، وبادرت الظلمة التي هي من وسواس الشيطان ولمته إلى نصرة النفس، وقام صف القتال بينهما، فإن سبقت للعبد من الله سابقة السعادة اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ورغب في الآجلة، وعمل بما مال إليه القلب وإن آلمه في الحال لما يرجوه من التنعم به في المآل، وإن سبقت له من الله الشقاوة، والعياذ بالله، ذهل القلب عن النور، وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل، واغتر بلذة العاجل، وعمل بما مالت إليه نفسه، وإن آلمه في المآل لما يحصل لها من لذة الحال.

وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى الله تعالى، ولياذه به، وكثرة ذكره له وصدق توكله عليه، واستعاذة به من الشيطان الرجيم.

وهذه العبارات الخمس من قوله: (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا) إلى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب، وكررها بألفاظ مختلفة والمعاني فيها متقاربة، وهذه عادته في مواضع كثيرة من هذا الكتاب رضي الله عنه.

٥٨ . النُّورُ لَهُ الكَشْفُ، وَالبَصِيرَةُ لَهَا الحُكْمُ، وَالقَلْبُ لَهُ الإِقْبَالُ وَالإِدْبَارُ.

هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة، فالنور يفيد كشف المعاني المغيبات حتى تتضح وتشاهد، والبصيرة التي هي ناظر القلب تفيد الحكم، وهو صحة ما شاهدته، والقلب له الإقبال عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة، وله أيضا الإدبار تركا للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة.

٥٩ . لاَ تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ لأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنَ اللهِ إِلَيْكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الفرح بالطاعة على وجهين:

فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا، فهذا هو الفرح المحمود، وهو الذي طلب من العبد، وذلك هو مقتضى شكرها.

وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وإرادته، وحوله وقوته، فهذا هو فرح مذموم منهي عنه، وهو كفران النعمة، وهو من العجب المحبط للعمل، فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شيء، وسيأتي في آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم وما يحمد منها وما يذم تامة مستوفاة.

٦٠ . قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ: أَمَّا السَّائِرُونَ فَلأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ الله فِيهَا، وَأَمَّا الوَاصِلُونَ فَلأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا.

فقد أسبغ الله نعمته على الفريقين، حيث فعل معهم ذلك، لأنه أبقاهم معه، ولم يدعهم لسواه، فالواصلون فعل ذلك بهم طوعا منهم، والسالكون فعل ذلك بهم كرها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فالواصلون قطعهم عن ذلك بشهودهم له في حضرة قربه، ومن شاهده لم يشهد معه غيره، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه.

والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى، فهم أبدا متهمون لأنفسهم في توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم.

قال النهرجوري رضي الله عنه: «من علامات من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهداته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقرا إلى الله في قصده وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه».

وقال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد رضي الله عنه: «لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوي».

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: «لو صفت لي تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشيء».

وإلى هذين المقامين تشير الحكاية التي تروى عن الواسطي رضي الله عنه، وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان رضي الله عنه: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة! هلاّ أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشئها.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «وإنما أراد الوسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تعريجا في أوطان التقصير، أو تجويزا للإخلال بأدب من الآداب».

وقال رضي الله عنه:

٦١ . مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلاَّ عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ.

البسوق: الطول، يقال: بسقت النخلة بسوقا إذا طالت، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]. والأغصان: جمع غصن، وهو ما تشعب عن سوق الشجر، ويجمع أيضا على غصون. والبذر: الحب الذي يزرع. وهذه كلها استعارات مليحة.

والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة في عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات، لأنه محض تعلق بالناس، والتجاء إليهم، واعتماد عليهم، وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه.

والطمع مضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة، والعزة التي اتصف بها

المؤمنون إنما تكون برفع هممهم إلى مولاهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، وثقتهم به دون من سواه فهذه هي العزة التي منحها الله عبده المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك الذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين، قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

قال أبو بكر الوراق الحكيم رضي الله عنه: «لو قيل للطمع من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحرمان».

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري رضي الله عنه: «من أشعر في نفسه محبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع، ومن طمع في شيء ذل، وبذله هلك، وقد قيل في ذلك:

أتطمع في ليلى وتعلم أنما ... تقطِّع أعناق الرجال المطامع

فالطامع لا محالة فاسد الدين، مفلس من أنوار اليقين».

قال في "التنوير": «وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه، وتطهر من الطمع في الخلق، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهّره إلا اليأس منهم، ورفع الهمة عنهم».

قال: وقدم علي بن أبي طالب ﷺ البصرة فدخل جامعها، فوجد القصاص

يقصون، فأقامهم، حتى جاء إلى الحسن البصري رضي الله عنه فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك -وكان قد رأى عليه سمتا وهديا-، فقال الحسن: سل عمّا شئت. قال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: اجلس فمثلك من يتكلم على الناس.

قال: وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: كنت في ابتداء أمري بثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم، ثم قلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني، فهتف بي الهاتف، السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين.

قال: وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبدا، ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة: الطاء، والميم، والعين.

ثم قال بعد هذا: فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق، ولا تذل لهم، فقد سبقت قسمتُه وجودَك، وتقدم ثبوته ظهورك.

واسمع ما قاله بعض المشايخ: «أيها الرجل، ما قدر لماضغيك أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه، فكله -ويحك- بعز ولا تأكله بذل».

قلت: تقدم الآن من كلامه في "التنوير" ذكر الورع في مقابلة الطمع، وكذلك في جواب الحسن لعلي بن أبي طالب ﵁ لما سأله مستخبرا له عن صلاح الدين وفساده في الكلام الذي حكاه عنهما، ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس، وهو ترك

الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة، وقد ذكرنا الطمع ما هو، وإنما يقابله ورع الخاصة، وهو عندهم: صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمم عليه، وطمأنينة القلب به، ولا يكون له ركون إلى غير، ولا انتساب إلى خلق ولا كون، فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد، وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد، كما نبه عليه الحسن رضي الله عنه في جوابه المذكور.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «الورع على وجهين: ورع في الظاهر، وهو ألا يتحرك إلا لله، وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله».

ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحدا ممن هذه صفته، فجعل يجتهد في طلبه، ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله، ويقصد به الفقراء والمساكين، ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة: خذ لا لك، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحدهم جوابا مطابقا لما أراده بكلامه، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته، وذلك أنه قال لأحدهم: خذ لا لك، فقال له: آخذه لا منك.

فإن كان للعبد استشراف إلى خلق، أو سبقية نظر إليهم قبل مجيء الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع، والواجب في حق الأدب، أن لا ينيل نفسه شيئا مما يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه في نظره إلى أبناء جنسه، كقصة أيوب الحمّال مع

أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وهي معروفة، وكما روي عن الشيخ أبي مدين رضي الله عنه أنه أتاه حمّال بقمح، فنازعته نفسه وقالت له: يا ترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء، عقوبة لها، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى.

وقد قيل: "أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحد من النساء والرجال».

وقد صرح بهذا المعنى الذي ذكرناه وأوضح الغرض الذي قصدناه شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: فإنه قال: «اعلم أن الورع أن لا يكون بينك وبين الخلق نسبة في أخذ أو إعطاء أو قبول أو رد، وأن يكون السبق لله تعالى، وهو أن تأتي إليه طاهرا من جميع الأشياء والعلم والعمل، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]».

وقال أيضا: «الورع أن لا تتحرك ولا تسكن إلا و ترى الله تعالى في الحركة والسكون» فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله، فالحركة ظرف لما فيها، كما قال بعضهم: «ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه»، فإذا رأى الله ذهبت الأشياء.

وقال أيضا: «أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط

الوسائط» وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: «الحلال هو الذي لا ينسى الله فيه» إلى غير هذا من العبارات التي عبر بها في هذا المعنى.

وقال بعض هذه الطائفة: «العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم، ثم يفترقون في المشاهدات: فمنهم من يأكل رزقه بذل، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار، ومنهم من يأكل رزقه بعز بلا مهانة ولا انتظار ولا ذلة، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل؛ فالسُّؤال يشهدون أيدي الخلق فيذلون لهم، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنته وكده، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته، فهو متعوب القلب معذب بانتظاره، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهنة ولا انتظار ولا ذل، فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعزة».

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب مع الإسلام». قال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه: «معناه ليس في حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون إليها، إنما رؤيتها والطمع في الخلق يوجد في مقام الإسلام».

وقد عقد المؤلف رحمه الله في "لطائف المنن" فصلا في هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى، فرأينا نقله في هذا الموضع من صواب العمل المتكفل إن شاء الله بنجاح الأمل، قال رضي الله عنه: «اعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل، فإن من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره

أو يميلوا بالحب لغيره، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجليات، ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء».

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء «خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير، وإذا بالدنيا قد عرضت لي بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيّناتها ومشهياتها فأعرضت عنها، فعرضت عليّ الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها، فقيل لي: يا عثمان، لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا، فها نحن لك، وقسطك من الدارين يأتيك».

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي، وكان مقيما بشرقي الإسكندرية: «حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا علي قائل يقول لي: إنك في العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت بالعام القادم ها هنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى عدن فأنا يوم على ساحلها، وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء، فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا العلي يقول لي: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا».

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه» فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون، ولا يريدون ولا يتفكرون، ولا ينظرون ولا ينطقون، ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله، ولله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عيد الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى فالله يوزعهم عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان فهو محجوب بدنيا، أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لخلقه والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعمله، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه، وافتقارا لربه، وتواضعا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم، كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم».

قال: فانظر -فهمك الله سبيل أوليائه، ومنّ عليك بمتابعة أحبائه- هذا الورع الذي ذكره الشيخ رضي الله عنه هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله (قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهذا هو ورع الأبدال

والصديقين، لا ورع المنقطعين الذي ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم) انتهى.

وإنما أوردنا هذه المعاني ها هنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب "التنوير" من كون الورع مقابلا للطمع، وسيأتي مزيد بيان في موضع أنسب من هذا عند قوله: (لا تمد يدك إلى الأخذ من الخلائق...) الخ، فانظره فيه.

٦٢ . مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ.

الوهم أمر عدمي، وهو ضد الحقيقة الوجودية، والنفس الناقصة انقيادها إلى الأمور الوهمية الباطلة أشد من انقيادها إلى الحقائق الثابتة لوجود المناسبة بينهما، والطمع في الناس انقياد إلى الأوهام الباطلة، لأن الطمع تصديق الظن الكاذب، والطمع فيهم طمع في غير مطمع، وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا فلا تتعلق هممهم إلا بالله، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يثقون إلا به، قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التي هي متعلقة بالأغيار عن قلوبهم، فزال عنهم الطمع، فاتصفوا بصفة القناعة والورع، فكانت لهم الحياة الطيبة والعيشة الراضية، والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين، وهي من بدايات أحوال الراضين.

قال بعض العارفين: «لا يكون العبد قانعا حتى لو جاء إلى باب منزله جميع ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة، فعرض عليه لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح له بابه قناعة منه بحاله، وقد روي عن النبي ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: هي القناعة».

٦٣ . أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ.

الطمع في الشيء دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله، وذلك عبودية له، كما أن اليأس من الشيء دليل على فراغ القلب منه وغناه عنه، وذلك حرية منه، فالطامع عبد، واليأس حر، ولهذا قيل:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

فاقنع ولا تطمع فما شيء يشين سوى الطمع

وقيل: «لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شيء لا خطر له»، وقيل: «إن العقاب يطير في فضاء عزه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره، ولا تسمو همة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره، فيعلق بالشبكة جناحه، فيصيده صبي يلعب به».

وقيل: إن فتحا الموصلي رضي الله عنه كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته، وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع آخر خبز مع كامخ، فقال الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه: أطعمني من الكامخ، فقال له: بشرط أن تكون كلبي، فقال: نعم، فجعل في رقبته خيطا، وجعل يجّره كما يقاد الكلب، فقال فتح للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه ولم يطمع في كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه.

وحكي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدّم التلميذ إليه خبزا قفارا، ولم يكن له إدام، فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له إدام يقدّمه إلى أستاذه، فقام الأستاذ

وقال: تعال معي، فحمله إلى باب السجن فرأى الناس، يضرب واحد، ويقطع آخر، ويعذب كل واحد بأنواع العذاب، فقال الأستاذ للتلميذ: ترى هؤلاء، هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار.

وقيل: إن رجلا أخرج من السجن وفي رجله قيد وهو يسأل الناس، فقال لإنسان: أعطني كسرة، فقال: لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك.

ورأى رجل رجلا من الحكماء يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء، فقال: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا، فقال الحكيم: وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

وقد أردت أن أذكر هنا حكاية مناسبة لما نحن فيه، ليتعرف بها كيف تكون الهمة السنية والآداب المرضية في أخذ البلغ من الدنيا والقناعة باليسير من الأشياء ورؤية منّة الله تعالى في تيسير القليل والشكر له على ذلك.

قال بعضهم: خرجنا من المدينة حجاجا، فلما كنا بالزاوية نزلنا، فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة، وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة، فقال: من يبغي خادما؟ من يبغي ساقيا؟ فقلت: دونك هذه القربة، فأخذها وانطلق، ولم يلبث إلا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا، وأثرت القربة في كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك، ثم قال: ألكم غيرها؟ قلنا: لا، وأطعمناه قرصا باردا، فأخذه وحمد الله سبحانه وشكره كثيرا، ثم اعتزل، وقعد يأكله أكل جائع، فأدركتني عليه الشفقة

فقمت إليه بطعام طيب كان معنا، وأكثرت له منه، فقلت له: قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام، فنظر في وجهي وتبسم وقال: يا عبد الله إنما هي فورة جوع فلا أبالي بأي شيء رددتها عني، فرجعت عنه، فقال لي رجل إلى جنبي: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: إنه رجل من بني هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب، هذا من ولد سليمان بن أبي جعفر المنصور، كان يسكن البصرة فتاب، فخرج منها، ففقد، فما عرف له أثر، فأعجبني قوله، ثم اجتمعت به، وآنسته، وقلت له: يا فتى، أنا رجل من إخوانك، وقد بلغني موضعك فأحببت الاتصال بك، فهل لك أن تعادلني فإن معي فضلا من راحلتي، فجزاني خيرا وقال: لو أردت هذا لكان لي معدّا، ثم أُنس إليّ، وجعل يحدثني فقال: أنا رجل من ولد العباس، كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد وتجبر وبذخ وإني أمرت خادما أن تحشو لي فراشا من حرير، ومخدة بورد نثير، فبينما أنا نائم إذا بقمع وردة قد غفلت عنه الخادمة، فقمت إليها فأوجعتها ضربا، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة، فهزّني وقال لي: أفق من غشيتك، وأبصر من حيرتك، ثم أنشأ يقول:

يا خدّ إنك إن تُوسّد ليّنا ... وُسّدت بعد الموت صم الجندل

فامهد لنفسك صالحا تسعد به ... فلتندمنّ غدا إذا لم تفعل

قال: فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتي إلى ربي هاربا، فهذا خبري. قال الراوي: فلما قضى حديثه هذا انخنس عني، ومضى».

٦٤ . مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى الله بِمُلاَطَفَاتِ الإِحْسَانِ قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلاَسِلِ الامْتِحَانِ.

النفوس الكريمة تقبل على الله بملاطفات إحسانه، وموالاة فضله وامتنانه، والنفوس اللئيمة لا تنقاد إلا بسلاسل الامتحان ووقوع المصائب في الأموال والأبدان، والقود بالسلاسل استعارة حسنة.

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «سنة الله عز وجل استدعاء العبادة لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون، لأن مراده عز وجل رجوع العبد إليه طوعا وكرها».

٦٥ . مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا.

شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها، وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها، قال الله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] أي: إذا غيّروا ما بهم من الطاعات وهي شكر النعم غيّر الله تعالى ما منه إليهم من الإحسان والكرم. واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا: الشكر قيد النعم.

وقالوا: «الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود» وكان يقال: «النعم إذا روعيت بالشكر فهي أطواق، وإذا روعيت بالكفر فهي أغلال».

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بسائر الجوارح.

فشكر القلب: أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١].

وشكر اللسان: الثناء على الله تعالى، وكثرة الحمد والمدح له، ويدخل فيه التحدث بالنعم وإظهارها ونشرها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: «تذكروا النعم، فإن تذكرها شكر».

ومن شكر اللسان أيضا شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم، وفي حديث النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ**».

وعن أسامة بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**أَشْكَرُ النَّاسِ للهِ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ**»، وسيأتي الكلام على هذا المعنى في آخر الكتاب إن شاء الله عند كلام المؤلف عليه.

وشكر سائر الجوارح: أن تعمل بها العمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فجعل العمل شكرا.

وروي عن النبي ﷺ «**أنه قام حتى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: يا رسول أتفعل هذا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».

وسأل رجل أبا حازم رضي الله عنه فقال: «ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيرا أعلنته، وإذا رأيت بهما شرا سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيرا وعيته، وإذا سمعت بهما شرا دفنته، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك، ولا تمنع حقا هو لله فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبرا وأعلاه علما، قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥- ٦] قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما في عمله، وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى، فأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذه بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر».

وأجمع العبارات للشكر قول من قال: «الشكر معرفة بالجنان، وذكر باللسان، وعمل بالأركان».

والقدر اللازم من شكر المنعم ما قاله الجنيد رضي الله عنه حين سأله السري رضي الله عنه قال الجنيد رضي الله عنه: كنت بين يدي السري وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي: يا غلام، ما الشكر؟ فقلت: «أن لا يعصى الله بنعمه. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك»، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

٦٦ . خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَكَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين، يقال: من أمارات الاستدراج ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفي، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يشعرون بذلك، وهو أن يلقى في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، ليستدرجهم شيئا فشيئا حتى يأخذهم بغتة. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ﴾ أي: فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: آيسون قانطون من الرحمة.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا».

وقال ابن عطاء الله: «كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة».

٦٧ . مِنْ جَهْلِ المُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الأَدَبَ فَتُؤَخَّرُ العُقُوبَةُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الإِمْدَادَ وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ، فَقَدْ يَقْطَعُ المَدَدَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ مَنْع المَزِيدِ، وَقَدْ يُقَامُ مَقَام البُعْدِ وَهُوَ لاَ يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ.

هذا نوع من الاستدراج الذي تقدم ذكره، وسوء أدب المريد موجب لعقوبته، ولكن العقوبات مختلفة، فمنها معجلة، ومنها مؤجلة، ومنها جلية، ومنها خفية، فالعقوبة الجلية: العقوبة بالعذاب، والعقوبة الخفية: العقوبة بوجود الحجاب، فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب، والعقوبة بالحجاب لأهل إساءة الأدب بين يدي علاّم الغيوب.

وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشد على المريد من العقوبة الجلية المعجلة، ومثال تلك العقوبة الخفية ما ذكره من قطع المدد عنه وإقامته مقام البعد عنه، وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذي ذكرناه، فإذا ابتلي به المريد ولم تتداركه رحمة الله تعالى في الحال العتيد، كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه، وتبدّل الأنس بالوحشة، وانتساخ الضياء بالظلمة، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى، لأنه إذ ذاك تنقطع عنه الإمدادات المتصلة، والواردات المتحصلة، فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان، وتستتر عنه الكشوفات والبيان، وهذه جنود الله تعالى في قلب العبد، فإذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع في الخذلان، واستحوذ عليه الشيطان، فأنساه الذكر وحاق به سيء المكر، ورجع إلى متابعة هوى

نفسه الأمارة، وخرج من دائرة الصفوة المختارة، فنعوذ بالله من سوء المقدر وعدم التوفيق إلى مراعاة أوائل الأمور، وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذي ذكره المؤلف رحمه الله، يقتضي توجه هذه العقوبة إليه ضربة لازب، لأن قوله: «لو كان هذا سوء أدب...الخ» دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله، وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذي اقتضاه قطع المدد عنه، ولو كان المدد متواصلا إليه لازداد عندما يقع منه سوء الأدب تواضعا لربه وافتقارا إليه وخوفا من مكره، ولم يستحسن حال نفسه ولم يرضها.

قال سيدي أبو العباس رضي الله عنه: «كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب» وهو الذي أوجب له أيضا التخلية بينه وبين ما يريد الذي اقتضى له إقامته مقام البعد، إذ لو كان مقاما في القرب لبعد عن رؤية نفسه وكان متهما لها في إرادتها، وكان واقفا مع مراد الله به، فإن أقدم على أمر بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة، وعوّق عليه ما أراده، وسدّ عليه مسالكه، ولم يخله وما أراد من ذلك.

ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرف المعاصي عنك مع السعي فيها، وفتح باب اللجاء والافتقار إلى الله تعالى في كل الأحوال.

ومن علامة الخذلان ثلاثة: تعسّر الطاعات عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجاء إلى الله وترك الدعاء في الأحوال.

والأدب له موقع عظيم في التصوف، ولذلك قال أبو حفص رضي الله عنه: «التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول».

وقال أبو عبد الله بن حفيف: «قال لي "رويم": يا بني اجعل عملك ملحا، وأدبك دقيقا».

وقال بعضهم: «إلزم الأدب ظاهرا وباطنا، فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا».

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: «إذا خرج المريد عن حد الأدب فإنه يرجع من حيث جاء».

وقال الثوري رضي الله عنه: «من لم يتأدب للوقت فوقته مقت».

وقال ابن المبارك رضي الله عنه: «نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منّا إلى كثير من العلم».

وقيل لبعضهم: «يا سيء الأدب، فقال: لست بسيئ الأدب، فقيل له: ومن أدّبك؟ فقال: الصوفية».

والآداب اللازمة للمريد عامة في ظاهره وباطنه، وآداب الظاهر تبع لآداب

الباطن، وآداب الباطن هي التحلي بمحاسن الأخلاق كلها، وفي حديث عن رسول الله ﷺ «أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ، ثُمَّ أَمَرَنِيْ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ» فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولا يحصل له ذلك بعد توفيق الله وتأييده، إلا بالرياضة والمجاهدة.

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردّها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها».

ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص، فرب شخص ذكي الفطرة كريم السجية سهل المقادة، لا يحتاج في ذلك إلى كثير معاناة ولا تعب، وربّ شخص يكون حاله على عكس هذا، فلا جرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة وشدة مجاهدة، لرداءة فطرته ونقصان غريزته، وبين هذين درجات لا تحصى، ولهذا كله يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم واتباع أوامرهم ونواهيهم، لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره لا يصح له الانتقال عن الهوى، ولو بلغ في الرياضة والمجاهدة كل مبلغ، وذلك لكثافة حجاب نفسه.

وقد سئل الدقاق رضي الله عنه: بماذا يُقوّم الرجل اعوجاجه؟ فقال: بالتأدب بإمام، فإن لم يتأدب بإمام بقي بطّالا، فإذا دام العبد على ذلك تزكت نفسه، وطهر قلبه، وتهذبت أخلاقه، وظهر على ظاهره أنوار ذلك، فتكون حركات ظاهره

وباطنه مزمومة بزمام الأدب حتى تنتهي به إلى المحافظة على تجنب أمور غير مستنكرة في ظاهر العلم، ويكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله، وقد يعاتب عليه وقد يعاقب عليه من أجله.

قال السري رضي الله عنه: «صليت العشاء واشتغلت بوردي ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت يا سري، هكذا تجالس الملوك؟ فضممت رجلي، ثم قلت: وعزتك وجلالك لا مددت رجلي أبدا».

قال الجنيد رضي الله عنه: «فبقي أربعين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا».

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «كان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه لا يستند إلى شيء، فكان يوما جالسا في مجمع، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأني رأيته غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه توقى الوسادة، لأنه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبدا».

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: «كنت جالسا في مسجد "الشونزية" أنتظر جنازة أصلي عليها، وأهل بغداد، على طبقاتهم، جلوس ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيرا عليه أثر النسك يسأل الناس، فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به، فلما انصرفت إلى منزلي، وكان لي شيء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك، فثقل عليّ جميع أورادي، فسهوت وأنا قاعد، فغلبتني

عيني فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان ممدود وقالوا لي: كل لحمه، فقد اغتبته!! وكشف لي عن الحال، فقلت: ما اغتبته، وإنما قلت في نفسي شيئا.

فقيل لي: ما أنت مما يرضى منك بمثله، اذهب واستحله، فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته في موضع يلتقط من الماء عند تراد الماء أوراقا من البقل مما تساقط من غسل البقل، فسلمت عليه، فقال: أتعود يا أبا القاسم؟ فقلت: لا، فقال: غفر الله لنا ولك» إلى غير ذلك من آدابهم رضي الله عنهم.

والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله، بإساءة الأدب ما كان فيه نوع من الرعونة وإظهار الدعوى واتصاف العبد بصفة المولى، وانبساطه وإدلاله في موقف الهيبة والحياء، وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به، ولكن ينبغي للمريد أن لا يتهاون بشيء من الأدب ولا يستحقرها فإن التهاون بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل وعدم المعرفة بالله تعالى، وهذا أقبح أنواع سوء الأدب، فإن وقعت منه إساءة أدب فليكن خائفا من ذلك مستعظما للأمر فيه، وليبادر إلى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن توجه إليه العقوبة من حيث لا يشعر.

وآكد ما ينبغي أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التي ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى من أنواع سوء الأدب أن يوطّن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعالى وتعاطي التدبير معه، والتبرم بأحكامه المؤلمة في نفسه

أو غيره، وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق، والعيب لما لا يوافق هواه، أو نقص في نظره مما يراه من الحق، فإن خطر بباله أو جرى على لسانه شيء من ذلك فليبادر إلى الاستغفار منه والتفصي عنه، وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات، وذلك يدخله في مقامات الرضا ويوصّله إلى غاية النعيم والعطاء، كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه، ويؤديه ذلك إلى تسخط الأقدار والوقوع في دركات النار، نعوذ بالله من ذلك.

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير، فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام، فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي.

وقال بعض السادة: أذنبت ذنبا، فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب، فقيل له: وما ذلك الذنب؟ قال: قلت مرة لشيء ليته كان.

وقال بعض السلف: «مرض الجنيد رضي الله عنه فقال: اللهم عافني، فسمع هاتفا يقول: ما لك والدخول بيني وبين ملكي».

ومن مقتضياتها أيضا: أن يعلق بقلبه شيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء، وأن يترك تعظيمهم واحترامهم، وأن لا يقبل إشاراتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة له.

وقالوا أيضا: من قال لأستاذه لِمَ؟ لا يفلح.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «من صحب شيخا من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة».

وإن بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين، قال: وفي الخبر إن الشيخ في أهله كالنبي في أمته، وكذلك من سوء أدبه تصدره للتعليم والهداية، وتصديه للأمر والولاية، ومحبته للاستتباع والرئاسة، وتربيته للجاه والحشمة، والقبول بين الناس، واستدعاؤه بسره أن يكرم ويعظم ويتبرك به وتُقبّل يده ويسارع في قضاء حوائجه، وذلك من أضر الأشياء به، وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه، وعدم تفقده لعيوبه، واتهام نفسه في كل حال من أحواله، وذلك مذموم منه.

كما قال أبو عثمان رضي الله عنه: «لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال».

وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه: «سمعت جدي يقول: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه».

فإن استشعر المريد من نفسه شيئا مما ذكرناه فليبادر إلى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ، فبدايات الأمور هي التي ينبغي أن تراعي كثيرا.

ومن أنواع سوء أدب المريد المفضي إلى عطبه نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة، فقد عدّوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة والبعد عن محل القربة، ولهذا قالوا: «إذا رأيت المريد انحط عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله وفسخ عقده بينه وبين الله».

وقال ابن خفيف رضي الله عنه: «الإرادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شيء أضره على المريدين من مسامحة النفس في قبول الرخص والتأويلات».

وقال يوسف ابن الحسين رضي الله عنه: «إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء».

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان: «من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص».

ويعني بالرخصة ها هنا، ما كان مضادًا لحال المريد من تناول الشهوات واللذات والميل إلى المألوفات والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات والتأويلات، فإن حال المريد يقتضي مباينته لهذا كله، وإن كان بعض ذلك مباحا في رخص الشرع لعامة الناس.

وكان إبراهيم الخواص رضي الله عنه يقول: «ألا إن هذه الشهوات التي أظلمت قلوب المتعبدين بعد صفاء نورها، وفترت أبدانهم بعد اجتهادها، وحجبت قلوبهم بعد قربها، وأطالت آمالهم بعد قصرها، وأَنِسوا بالمخلوقين بعد الهرب منهم،

وتوطئوا الفرش بعد الترك لها، فسقتهم الدنيا بكأس سمّها، فنظروا على ظاهرها بعد باطنها، فناموا بعد السهر، وشبعوا بعد الجوع، واكتسوا بعد العري».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إني خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء، فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك»، وفي أخبار داود عليه السلام: «يا داود تمسك بكلامي، وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤتين منها فأحجب محبتي عنك، اقطع شهوتك إليّ، فإني إنما أبحت الشهوات لضعفاء خلقي، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي، ونزهته عنها، يا داود لا تجعل بيني وبينك عالما سكران بحبها يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، يا داود، تحبب إليّ بمعاداة نفسك وامنعها الشهوات، أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة».

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: «لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

أولها: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل.

والثانية: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة.

والثالثة: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.

والرابعة: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

والخامسة: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.

والسادسة: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت».

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: «كنت في جبل "لكام" فرأيت رمانا فاشتهيته، فدنوت منه فأخذت واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني، فقال: من عرف الله لم يخف عليه شيء، فقلت: أرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك ويقيك من هذه الزنابير، فقال: وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك ويقيك من شهوة الرمان، فإن لذع شهوة الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا».

وقال السري رضي الله عنه: «إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس فما أطعمتها»، فلما كان ترك الشهوات والتنعمات من شأن المريد ومن مقتضى حاله لزمه الوفاء به وكان عمله على خلافه نقضا وفسخا، كما تقدم».

قال جعفر بن نصير رضي الله عنه: «دفع إليّ الجنيد درهما وقال: اشتر به التين الوزيري، فاشتريته، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها، وبكى، وقال:

احمله، فقلت له في ذلك، فقال: هتف في قلبي هاتف أما تستحي شهوة تركتها من أجله ثم تعود إليها».

وعن شقيق بن إبراهيم قال: «لقيت إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه بمكة في سوق الليل عند مولد رسول الله ﷺ وهو جالس في ناحية من الطريق يبكي، فعدت إليه، وجلست عنده، وقلت له: أي شيء هذا البكاء يا أبا إسحاق؟ فقال: خير وعافية، فعاودته مرة، واثنتين، وثلاثة، فلما أكثر عليه قال: يا شقيق استر عليّ فقلت: يا أخي قل ما شئت، قال: اشتهت نفسي سكباجا فمنعتها جهدي، فلما كان البارحة كنت جالسا وقد غلبني النعاس، فإذا أنا بفتي شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج، قال: فاجتمعت همتي عليه فقرب مني وقال: يا إبراهيم كل، فقلت: ما آكل شيئا قد تركته لله تعالى، فقال لي: فإذا أطعمك الله تأكل، فما كان لي جواب إلا أن بكيت، فقال لي: يرحمك الله، كل، قال إبراهيم: فقلت له: قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا شيئا إلا من حيث نعلم، فقال لي: كل، يرحمك الله فإنما أُعطيته، وقد قيل لي: يا خضر اذهب بهذا وأطعم نفس إبراهيم بن أدهم، فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحمّلها من منعها، اعلم يا إبراهيم أنّي سمعت الملائكة يقولون: من أعطي فلم يأخذ، طلب فلم يعط، فقلت: فإن كان كذلك فها أنا بين يديك لا أحل العقد مع الله عز وجل، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئا وقال له: يا خضر، لقّمه أنت، فلم يزل يلقمني حتى شبعت فانتبهت وحلاوته في فمي.

قال شقيق رضي الله عنه: فقلت: أرني كفك، فأخذت كفه بكفي فقبلتها وقلت:

يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع، يا من يقدح في الضمير اليقين، يا من سقى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالا، ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء، فقلت: إلهي بقدر هذه الكف وبقدر صاحبها عندك وبالجود الذي وجده منك، جد على العبد الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك، قال: فقام إبراهيم رضي الله عنه ومشى حتى دخل المسجد الحرام».

وقال عتبة الغلام لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنهما: إن فلانا يصف من قلبه منزلة ما أعرفها، قال: لأنك تأكل مع خبزك تمرا وهو لا يزيد على الخبز شيئا، فقلت: إن كنت تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها، فأخذ يبكي، فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله عينيك، أعلى التمر تبكي؟ فقال عبد الواحد: دعه فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، هو إذا ترك شيئا لم يعد إليه أبدا.

وقال أحمد بن أبي الحواري: «اشتهى أبو سليمان الداراني رضي الله عنه رغيفا حارا بملح فجئت به إليه، فعضّ منه عضة، ثم طرح الرغيف، وقال: عجلت إليّ شهوتي بعد إطالة جهدي وشقوتي، قد عزمت على التوبة فاقبلني، قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى».

وقال أبو بكر بن الجلاء رضي الله عنه: «أعرف إنسانا تقول له نفسه: أنا أصبر لك على طي عشرة أيام، وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن أطوي عشرة أيام ولكن أتركي هذه الشهوة».

وقال أبو سليمان رضي الله عنه: «ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها».

وقال أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «وقد اشتد خوف السلف رضي الله عنهم من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها، ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا أن منع الله منه غاية السعادة، حتى روي أن وهب بن منبه رضي الله عنه قال: التقى ملكان في السماء الرابعة، فقال: أحدهما للآخر: من أين؟ فقال: أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي. وقال الآخر: أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد. وقال: وهذا تنبيه على أن تيسير الشهوات ليس من علامات الخير».

قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت له أسباب ذلك، ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عوّد نفسه كسر العزم ألفت ذلك وفسدت، وإذا اتفق منه كسر عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه، كما ذكرناه في معاقبة النفس من كتاب "المراقبة" فإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسّنت عنده تناول الشهوة، وتفسد الرياضة عليه بالكلية».

هذا كلام أبي حامد، وهو حسن، ومعناه صحيح مجرّب، فلتعتمد عليه أيها المريد. وقد يعجل الله تعالى لبعض هؤلاء العقوبة رحمة له، ومنة عليه.

قال أبو تراب النخشبي رضي الله عنه: «ما تمنت نفسي شهوة من الشهوات إلا

مرة واحدة، تمنت خبزا وبيضا وأنا في سفر، فعدلت إلى قرية، فقام واحد وتعلق بي وقال: هذا كان مع اللصوص، فضربوني سبعين درة، ثم عرفني رجل منهم، فقال: هذا أبو تراب النخشبي، فاعتذروا إليّ، فحملني رجل منهم إلى منزله، وقدّم لي خبزا وبيضا، فقلت في نفسي: كلي، بعد سبعين درة».

وقال بعضهم: اشتهى أبو الخير العسقلاني رضي الله عنه السمك سنين ثم ظهر له ذلك من موضع حلال، فلما مدّ يده إليه ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه، فذهبت في ذلك يده، فقال: «يا رب هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى حلال، فكيف بمن مدّ يده بشهوة إلى حرام».

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: «كنت جائعا في الطريق فوافيت الري فخطر ببالي أن لي بها معارف، فإذا دخلتها أضافوني وأطعموني، فلما دخلت البلد رأيت فيها منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف، فأخذوني وضربوني، فقلت في نفسي: من أين أصابني هذا الضرب على جوعي، فنوديت في سري: إنما أصابك ذلك، لأنك سكنت إلى معارفك بقلبك، وقلت: إنهم يطعموني إذا دخلت البلد».

وحكي عن إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه أنه قال: «كنت بحلب، واشتهيت شبعة من الخبز والعدس، فاتفق ذلك فأكلت حتى شبعت، فرأيت على باب المسجد قوارير معلقة شبه إنموذجات، فتوهمتها خلا، فقال لي: قائل: أما تنظر إليها إنها خمر، فقلت: لزمني فرض، فدخلت الحانوت فلم أزل أصب دنّا دنّا حتى أتيت على

الجميع، فأخذوني وضربوني مائة خشبة وطرحوني في السجن أربعة أشهر، حتى دخل أستاذي أبو عبد الله المغربي البلدة فسمع بحالي فشفع لي، فلما وقع بصره عليّ، قال: ما شأنك؟ قلت: شبعة خبز وعدس، وضربت مائة خشبة، وسجنت أربعة أشهر، فقال لي، نجوت مجانا. أي: وردت عقوبة هذه الأكلة على ظاهرك ولم تقدح فيما كنت فيه من سرائرك، فكان ذلك رفقا من الله بك».

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه وما أصدق ما قال: فإنّ من أدب في دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه، فقد خفف عنه في عقباه، بل طهّر بالتأدب جوهره ومعناه.

وحكاية خير النساج رضي الله عنه المشهورة من معنى ما ذكرناه، فانظرها ففيها عبرة للمعتبرين.

قال الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه: «حدّثني جعفر بن محمد بن نصير في كتابه قال: سألت خير النساج، أكان النسج حرفتك؟ قال: لا، قلت: فمن أين سميت به؟ قال: عاهدت الله، وعقدت أن لا أكل الرطب أبدا، فغلبتني نفسي يوما فأخذت نصف رطل، فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إليّ وقال: يا خير، أين هربت مني، وكان له غلام اسمه خير فوقع عليّ شبهه وصورته، فخنقني، واجتمع الناس فقالوا: والله هذا غلامك خير، فبقيت متحيرا، وعلمت بماذا أخذت، وعرفت جنايتي، فحملني إلى حانوته الذي كان ينسج فيه غلمانه، فقالوا: يا عبد السوء أتهرب من مولاك؟ ادخل واعمل عملك الذي كنت تعمل فيه، وأمرني بعمل

الكرباس، فدلّيت رجلي على أن أعمل، فأخذت بيدي آلته، فكأني كنت أعمل من سنين، فبقيت معه أشهرا أنسج له، فقمت ليلة فنسجت، وقمت إلى الصلاة الغداة، فسجدت، وقلت في سجودي: إلهي لا أعود إلى ما فعلت، فأصبحت فإذا الشبه قد ذهب عني وعدت إلى صورتي التي كنت عليها فأطلقت، فثبت علي هذا الاسم، فكان سبب النسج اتباعي شهوة عاهدت الله تعالى ألاّ آكلها، فعاقبني بما سمعت».

وفي بعض الأخبار عن الله تعالى «إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي»، وستأتي إن شاء الله تعالى كيفية مجاهدة النفس عند قوله: (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين)، ولهذا المعنى كرهوا التزويج من غير ضرورة محققة، لأنه إنما يقصد بذلك قضاء شهوته وبلوغ نهمته، وذلك في الضرر به بمنزلة السمّ القاتل.

وقد قالوا: «من وافق شهوته عدم صفوته».

وقال بعضهم: «من همّ بشيء مما أباحه العلم تلذذا عوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهمّ بالدنيا».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث».

وقال: «ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوّج فثبت على مرتبته».

وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: «من تعود أفخاذ النساء لا يفلح».

وقيل لبعضهم: «لم لا تتزوج؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال».

ثم فيه من مكابدة أمر غيره، ومن مراعاة توفية حقوقه، ومعاناة أخلاقه، واتباع مرضاته ما يشوش على المريد حاله، ويكدّر عليه وقته، وقد كان له في معاناة نفسه أعظم شاغل عن أن تضاف إلى نفسه نفس أخرى، مع ما يتسلط على باطنه من خوف الفقر، ومحبة الجمع والمنع، وما يرتكبه بسبب ذلك من التأويلات والرخص، وذلك كله مضاد لحال المريد.

وقد قالوا: «إذا تزوج الصوفي فقد ركب السفينة، فإذا ولد له فقد غرقت السفينة».

وكان بشر الحافي رضي الله عنه يقول: «لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلوازا على الجسر».

وفي الخبر في "فتن آخر الزمان" قال النبي ﷺ: «**وفي ذلك الوقت حلت العزبة، فقيل: كيف ذلك؟ قال: يعيرونه بالفقر، فيتكلف ما لا يطيق، فيورده موارد الهلكة**».

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «**خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ، قيل: يا رسول الله، وما خفيف الحاذ؟ قال: الذي لا أهل له ولا ولد**».

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «إياكم والاستمتاع بالنساء، والميل إليهن، فإن النساء مبعِّدات من الحكمة قريبات من الشيطان، وهن مصايده وحظه من بني

آدم، فمن عطف إليهن بكليته فقد عطف على حظ الشيطان، ومن حاد عنهن يئس منه، وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استُرِقَّ بالنساء، وأن الشر معهن حيث كن، فإذا رأيتم في وقتكم من قد ركن إليهن، فايئسوا منه، قيل له، فحديث النبي ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم ثلاث** » فذكر النساء، فقال: النبي ﷺ معصوم، وقد بلّغكم ما كان فيه معهن، هي عدوة الرجل ظاهرا وباطنا، إن أظهرت له المحبة أهلكته، وإن أضمرتها له أغوته، وأن الله عز وجل جعلهن فتنة، فنعوذ بالله من فتنتهن»، انتهى كلام سهل رضي الله عنه.

وقال حذيفة المرعشي رضي الله عنه: «كان ينبغي للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه وبين أن يتزوج امرأة في الفتنة لاختار ضرب العنق على تزويج امرأة في الفتنة» وإنما قال ذلك: لما يؤول إليه أمر المتزوج من اكتساب الحرام، وارتكاب الآثام في زمن الفتنة، وضرب العنق أحسن حالا وأحمد عاقبة من التعرض لارتكاب شيء من معاصي الله عز وجل، فإن قارف شيئا من ذلك المريد فهو داء عضال في حقه فقد قالوا: «زلّة بعد الإرادة أقبح من سبعين زلّة قبل الإرادة»، وفي المثل: «من عرف بالخيانة لا يعتمد عليه في الأمانة».

وقال بعض الأنبياء في مناجاته لربّه: «لو عفوت عن فلان ذنوبه بعد عظيم نعمتك، فأوحى الله إليه: ليس الذنب في القرب كالذنب في البعد».

وسئل بعضهم: «هل يجد العاصي حلاوة الطاعة؟ فقال: لا، ولا من همّ بالمعصية».

ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل إلى أهل الدنيا، وأن يتقرب منهم، وأن يصاحبهم.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا، فإن صحبتهم سم مجرب، لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: (لا تصحب من لا ينهضك حاله)، ومن ذلك أيضا معاشرته للأحداث والشبان، وقبول إرفاق النسوان، فإن تعرض لاستجلاب ذلك منهن، فهو أشد».

وقال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه: «رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد، ورفق النسوان».

قال الإمام أبو القاسم القشيري: «ومن أصعب الآفات في هذه الطريق صحبة الأحداث، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع من الشيوخ أن ذلك عبدٌ أهانه الله عز وجل، وخذله، بل عن نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهّله» ثم قال بعد كلام كثير: فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه فتح باب الخذلان وبدء حال الهجران، ونعوذ بالله من قضاء السوء.

وآداب المريد كثيرة، وإنما نبهنا ها هنا على بعض ما يعظم فيه الخطر والضرر مما حذر منه أئمتنا رضي الله عنهم، وبالغوا في التوصية به والنهي عنه، وجميع ذلك

محتمل لأن يكون مراد المؤلف رحمه الله تعالى في قولـه: (مـن جهـل المريـد أن يسيء الأدب)، فرأينا أن لا يخلو هذا الموضع من هذا التنبيه، لأن ذلك يقع للمريد كثيرا، والله ولي التوفيق.

٦٨ . إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الأَوْرَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الإِمْدَادِ، فَلاَ تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلاَهُ لأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا العَارِفِينَ، وَلاَ بَهْجَةَ المُحِبِّينَ، فَلَوْلاَ وَارِدٌ مَا كَانَ وِرْدٌ.

عباد الله المخصوصون ينقسمون إلى قسمين: مقربين، وأبرار.

فالمقربون: هـم الـذين أخـذوا مـن حظـوظهم وإرادتهـم، واسـتعملوا في القيـام بحقوق ربّهم عبودية له وطلبا لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون.

والأبرار: هم الذين بقوا مع حظوظهم وإرادتهم، وأقيموا في الأعمال والطاعات ليجزوا عليها رفيع الدرجات في الجنات، وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون.

وكل واحد منهم ممدود في مقامه الذي هو فيه بمـدد إلهـي اقتضى منهم القيـام بحقوق مقاماتهم على اختلافها، فإذا رأيـت عبـداً لله أقامـه الله تعـالى في أعـمال الـبر الظاهرة ومواصلة الأوراد المتواترة، وأمدّه في ذلك بالمعونـة والتيسـير، فـذلك مـن اختيار الله تعالى له، فلا تحتقرن ذلك لأجل أنك لم تر عليه سيما العـارفين مـن تـرك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإرادات بين يدي المريد المختار، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم، والانبساط والإذلال بين يدي حبيبهم، فلولا الوارد

الإلهي الذي أورده الله تعالى عليه ما استقام على عمله ووروده، فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته، فلم تستحقر خطير ما منحه، وتستقل كثير ما ربحه، وهل ذلك إلا من وجود جهلك ونقصان عقلك، وسيأتي كلام المؤلف رحمه الله تعالى: (لا يستحقرن الوارد إلا جهول).

٦٩ . قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الحَقُّ لِخِدْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]

الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]: فطائفة أقامهم الحق تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته، وهم الزاهدون العابدون، كما تقدم، وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا لقربه والدخول إلى حضرته، وهم العارفون والعلماء.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «الزاهد صيد الحق من الدنيا، والعارف صيد الحق من الجنة» فإذا شهد العبد انفرد الله تعالى بهذه الإقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكرناه من الاستحقار، وسلم الأمر لمن بيده والتدبير والاختيار.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: «اطّلع الله تعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة»، وذكر الحافظ أبو نعيم في كتابه "حلية الأولياء" عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «إن الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسما فلا يجد في قلوب العباد

ولا في قلوب الزهّاد موضعا لتلك القسمة من نفسه، فيمن عليهم أن يشغلهم بالتعبّد عن نفسه».

وقال أبو العباس الدينوري رضي الله عنه: «إن لله عباداً لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفته»، والإشارة بالآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله بينة في هذا المعنى.

وقال رضي الله عنه:

٧٠ . قَلَّمَا تَكُونُ الوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّةُ إِلاَّ بَغْتَةً، لِئَلاَّ يَدَّعِيَهَا العِبَادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْدَاد.

الواردات الإلهية هدايا من الله تعالى، وتحف وكرامات يكرم الله بها عباده، فلا تكون في الغالب إلا بغتة، أي: فجأة، لئلا يدّعوها ويروا أنفسهم أهلا لها بوجود استعدادهم وتهيئهم.

وتحف الله تعالى وهداياه مقدّسة عن أن تعلل بأمر، ومنزهة عن أن تقابل بأعمال بر، بل هي محض كرم وفضل من الكريم المتفضل.

٧١ . مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ ما شهد ، وذاكراً كل مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِه.

الإجابة عن كل سؤال، والتعبير عن كل مشهود، والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتصف بها، كما قال: أما الإجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه

الإحاطة بجميع المعلومات، وذلك محال في حقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فكيف يتصور منه مع هذا الإجابة عن كل سؤال لو لا وجود جهله، وأيضا فإنه يجب عليه أن يراعي حال السائل من وجود الأهلية فيه لما سأل عنه، فيمتنع عن إجابة من لا أهلية فيه لذلك، ويفعل ما فعله رسول الله ﷺ فيما روي عنه مع السائل الذي جاء يسأله أن يعلّمه من غرائب العلم فإنه استفصله، وقال له: ما فعلت في رأس العلم، وفي كذا، وفي وكذا...؟ فأجابه السائل، فقال له النبي ﷺ: اذهب، فأحكم ما هنالك ثم تعال حتى أعلمك من غرائب العلم.

وكما أخذ الله تعالى على العلماء أن لا يكتموا العلم عن أهله، كذلك أخذ عليهم أن يصونوه عن غير أهله، فمن لا يسلك هذا المسلك فهو جاهل.

وأما التعبير لكل مشهود، فلأن فيه نوعان من إفشاء السر الذي يجب كتمه، وقد قالوا: «قلوب الأحرار قبور الأسرار»، والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة، والله تعالى لا يحب الخائنين، وأيضا فإن الأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارات فيها إفصاح بها وإشهار لها، وفي ذلك ابتذالها وإذاعتها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضا وانغلاقا، لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراك حقائقها بالعبارة النطقية، فيؤدي ذلك إلى الإنكار والقدح في علوم السادة الأخيار.

قال أبو علي الروذباري رضي الله عنه: «علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفـي» وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفريقه بين المعلومات، وقد يكون له علم يختص بـه، فإذا ذكره لغيره استغربه وإن كـان ينتفـع بـه هـو، فعـدم تفريقـه بـين المعلومـات في ذكرها من وجود جهله.

٧٢ . إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلاًّ لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لاَ بَقَاءَ لَهَا.

إنما جعل ثواب المؤمنين في الدار الآخرة فيما ظهر لنا لوجهين:

أحدهما: أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ومعنى، أما الحس، فلأن الدنيا متدانية المسافة، ضيّقة الأقطار، ويعطي الله تعالى لآحاد المؤمنين في الدار الآخرة في ملك واحد منهم كما ورد في الخبر مسيرة خمسمائة عام، فما ظنـك بخوّاصهم، فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم، وأما المعنى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص، والخساسة والحقارة، والأشياء التي يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة، كـما جـاء في الأخبـار: «**إن موضـع سـوط في الجنـة خـير مـن الـدنيا وما فيها، وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس**» وما أشبه هـذا، ويكفـي في ذلـك قولـه عـز مـن قائـل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] وقـول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

والثاني: أن الله تعالى أجلّ أقدار عباده المؤمنين، فلم يجعل لهم الجزاء على طاعتهم في دار فانية، منقضية، منصرمة، لأن كل ما يفنى وإن طالت مدته كلا شيء، بل أعطاهم الخلود في النعيم، والبقاء الدائم في الملك المقيم، وناهيك به شرفا تسميته إياهم باسمه الكريم وهو ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] .

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] أنه يرسل الله تعالى الملَك إلى وليّه، ويقول له: استأذن على عبدي، فإن أذن لك فادخل، وإلا فارجع فيستأذن عليه من سبعين حجابا، ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عز وجل عنوانه: «من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت» فإذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه: عبدي، اشتقت إليك فزرني، فيقول: هل جئت بالبراق؟ فيقول: نعم فيركب البراق، فيغلب الشوق على قلبه، فيحمله شوقه، ويبقي البراق إلى أن يصل إلى بساط اللقاء.

٧٣ . مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلاً.

ثمرة العمل: وجدان الحلاوة فيه والتنعم به، ويتصور ذلك في أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره واستثقال له، هذا هو غالب الأمر.

قال بعض العارفين: «ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هي مجاهدة النفس، ثم مخالفة الهوى، ثم مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم».

وقال عتبة الغلام رضي الله عنه: «كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة».

وقال ثابت البنّاني رضي الله عنه: «كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة».

وقال بعض العلماء: «كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه رضي الله عنهم، ثم رفعت إلى مقام فوقه وكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى فأنا الآن كأني أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه».

وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم، إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى.

قال أبو تراب رضي الله عنه: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل» والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله تعالى، وورد في الخبر: «**لا يقبل الله من مسمع ولا مراء**» دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول من قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو من ثوابه المعجل، كما يقول المؤلف بعد هذا: (وذلك علامة على وجود الجزاء عليه في

الدار الآخرة) حسبما يأتي في قوله (وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا).

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «كل عمل ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة» فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء، ولذلك قال الحسن رضي الله عنه: «تفقدون الحلاوة في ثلاث، فإن وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدكم، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وعند السجود»، وزاد غيره: «وعند الصدقة وبالأسحار».

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] قال: جنة معجلة، وهي حلاوة الطاعة ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات، وجنة مؤجلة، هي فنون المثوبات، وعلو الدرجات.

فقلت: وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون إلا في مقام المعرفة الخاصة، وهي التي تنافيها المعصية.

قيل لبعضهم: هل تعرف الله؟ فغضب على السائل، وقال: أتراني أعبد من لا أعرفه؟ فقال له: أوَتعصي من تعرفه؟

وقيل لبعضهم: بم تعرف أنك عرفته؟ فقال: لم أقصد مخالفته إلا وَرَدَ على قلبي استحياء منه.

وقال إسماعيل بن نجيد رضي الله عنه: «التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالأمر، فإن العصيان في حال العرفان بعيد»، فإن وقعت منه زلّة أو هفوة بحكم – وكان أمر الله قدرا مقدورا– وجد لا محالة لذلك مرارة وألما في قلبه، فوجدان هذه المرارة والألم في المعصية علامة على صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم في الطاعة، فهذه هي الحلاوة التي هي الميزان للأعمال المقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه.

وأما الحلاوة التي يجدها من دون أهل هذا المقام في بعض العبادات فمدخولة معلولة إلا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة.

والحلاوة على الإطلاق إذا وجدها العامل في العمل لا ينبغي له أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذلك أيضا لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزانا لأعماله ومحكا لأحواله فقط.

قال الواسطي رضي الله عنه: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة».

قال في "لطائف المنن" وصدق الواسطي، فأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها، وتحب دوامها، لا قياما بالوفاء بها ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائما لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك.

٧٤ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ.

هذا ميزان صحيح، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه، فإن الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه**».

وهذا الإنزال المذكور المنسوب إلى العبد هو معنى الإقامة المذكورة، إذ العبد لا فعل له على التحقيق.

قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: «إنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه».

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «فإذا كان العبد لنظر مولاه مكرما، ولحرماته معظما، وإلى محبوبه ومرضاته مسارعا كان الله عز وجل له في الآخرة، لوجهه مكرما، ولشأنه معظما، وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعا، وإذا كان العبد بحق مولاه متهاونا، وبأمره مستخفا، ولشعائره مستصغرا كان الله عز وجل له مهينا، وبشأنه متهاونا، وإلى ما يكره من العذاب الأليم مسارعا، والعياذ بالله من ذلك».

وقال وهب بن المنبه رضي الله عنه: «قرأت في بعض الكتب: يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني بما يصلحك، إني عالم بخلقي، إنما أكرم من أكرمني وأهن من هان عليه أمري، لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر عبدي في حقي».

٧٥ . مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالغِنَى بِهِ عَنْهَا فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر في الظاهر، والتعلق بالله في الباطن وهو

الاستغناء به عن غيره، فإذا رزق الله تعالى العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية الأمل في الدنيا والآخرة، سبحانه جل وعلا.

وقال رضي الله عنه:

٧٦ . خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ.

إن كان لا بد من الطلب منه فاطلب ما هو طالبه منك، من الاستقامة على سبيل العبودية له، فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، لأنك حينئذ تكون به وله، ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير.

وأما إن طلبت منه حظ نفسك ونيل مرادك فقد يحصل في ذلك تأخير ومنع، مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب في الطلب، يحكى عن أبي الحسين الديلمي رضي الله عنه أنه قال: «وصف لي بأنطاكية إنسان أسود يتكلم على القلوب، قال: فقصدته، فلما رأيته رأيت معه شيئا من المباحات يريد أن يبيعه، فساومته، وقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إليّ ثم قال: اقعد، فإنك جائع منذ يومين، حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا».

قال: فمضيت إلى غيره، وتغافلت كأني لم أسمع ما قال، وساومت غيره ما كان بين يديه، ثم رجعت إليه فقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إليّ وقال: اقعد، فإنك جائع منذ يومين، حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا.

قال فوقع في قلبي منه هيبة، فلما باع ذلك أعطاني شيئا ومضى، قال: فمضيت خلفه لعلي أستفيد منه شيئا.

قال: فالتفت إليّ وقال: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله، إلا أن يكون لك فيها حظ فتحجب بها عن الله تعالى.

ومن دعاء أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: «اللهم وكلّ سؤال سألتك فعن أمرك لي بالسؤال، فاجعل سؤالي إليك سؤال محابِّك، ولا تجعلني ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ، بل يسأل القيام بواجب حقك».

ومن دعاء أيضا: «اللهم إني أسألك منك ما هو لك، وأستعيذك من كل أمر يسخطك، اللهم اجعلني ممن يذكرك من لا يريد بذكره منك إلا ما هو لك، اللهم اجعل غاية قصدي إليك ما هو لك، ولا تجعل قصدي إليك ما أطلبه منك».

٧٧ . الحُزْنُ عَلَى فُقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْهَا مِنْ عَلاَمَاتِ الاغْتِرَارِ.

هذا هو الحزن الكاذب الذي يكون عند البكاء الكاذب، كما قالوا: كم من عين جارية وقلب قاس وهو من مكر الله تعالى الخفيّ، حيث منعه ما ينفعه، وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء.

سمعت رابعة العدوية رضي الله عنها رجلا يقول: واحزناه، فقالت: «بل قل وَاقلّة حزناه، لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفّس».

وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا، وهو مقام من مقامات السالكين، وهو يبعث على الانكماش في الأعمال والنهوض إلى الطاعات على كل حال، كما قال الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: «صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل في شهر

ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين» وفي الخبر: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ**»، وفي التوراة: «إن الله إذا أحب عبدا نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدا نصب في قلبه مزمارا».

وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، وقيل: «الحزن إذا فقد من القلب خرب، ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة» فإذا الحزن الذي يجده العبد من نفسه إن لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامات الاغترار، وليس بمقام السالكين الأبرار.

٧٨ . مَا العَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ العَارِفُ مَنْ لاَ إِشَارَةَ لَهُ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ، وَانْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ.

الإشارة ألطف من العبارة، وهي كناية وتلويح، وإيماء لا تصريح، وهي التي يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم لأسرار التوحيد، كما تقدم عند قوله: (من رأيته مجيبا عن كل ما سئل، ومعبرا عن كل ما شهد) فالمشير إلى الله تعالى الملاحظ لإشارته، وإن وجد الله تعالى أقرب إليه من إشارته غير عارف على التحقيق، لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار، بل العارف الفاني في وجوده، المنطوي في شهوده، الذي غاب عن الإشارة والمشير والمشار به.

سئل الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله عنه عن المريد، فقال: «حقيقة المريد أن يشير إلى الله تعالى فيجد الله مع نفس الإشارة، قيل له: فالذي يستوعب حاله؟ قال: هو الذي يجد الله بإسقاط الإشارة».

وسئل أبو علي الروذباري رضي الله عنه عن الإشارة، فقال: «الإشارة: الإبانة عمّا يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير».

وفي الحقيقة: إن الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة من عين الحقائق.

وقال الشبلي رضي الله عنه: «وكل إشارة أشار به الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحق بالحق وليس لهم إلى ذلك طريق».

قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: «أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه».

٧٩ . الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلاَّ فَهُوَ أُمْنِيَةٌ.

الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين، وهو يبعث على الاجتهاد في الأعمال، كما ذكرناه في الحزن، لأن من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه.

وأما الرجاء الكاذب الذي يفتر صاحبه عن العمل، ويجرئه على المعاصي والذنوب، فليس هذا برجاء عند العلماء، ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى، وقد ذمّ الله قوما ظنوا مثل هذا، وأصروا على حب الدنيا والرضا بها، وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم "خلفا"، والخلف: الرديء من الناس، فقال عز من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال معروف الكرخي رضي الله عنه أيضا: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق».

وقال معروف الكرخي أيضا: «رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق».

واعلم أنه ليس في أفعال الحق سبحانه وتعالى ما يوجب أن يؤمن عقابه، إنما في أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته، وكما لا يحسن أن يظهر من لطفه في خلقه لا يحسن الطمع في جانبه ويؤمن أخذه وانتقامه، فإن من قطع أشرف عضو بربع الدينار لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا.

وقد قالوا: «من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح في الفقر وقدح النار في البحر صحيح».

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأماني**».

وقال الحسن رضي الله عنه: «إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة، يقول أحدهم: أحسن الظن بربي، وهو يكذب، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل، وتلا قوله عز وجل: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]».

وكان يقول رضي الله عنه: «عباد الله اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية الهلكة يحلون فيها، والله ما آتى الله عبدا بأمانيه خيرا في الدنيا ولا في الآخرة».

وكتب أبو عمير المنصوري إلى بعض إخوانه: «أما بعد، فإنك قد أصبحت تؤمل

بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما تضرب حديدا باردا».

٨٠ . مَطْلَبُ العَارِفِينَ مِنَ اللهِ تَعَالَى الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّةِ، وَالقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم، سواء كانوا عبادا أو زهادا أو علماء، لأن مطلب العارفين من ربهم إنما هو الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط، من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس، وكل من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك).

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور».

٨١ . بَسَطَكَ كَيْ لاَ يُبْقِيكَ مَعَ القَبْضِ، وَقَبَضَكَ كَيْ لاَ يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْطِ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا كَيْ لاَ تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ.

القبض والبسط من الحالات التي يتلوّن بها العارفون، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين، وسببهما الواردات التي ترد على باطن العبد وقوتهما وضعفهما بحسب قوّة الواردات وضعفهما.

والمقصود ها هنا، أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما، فإنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده، فمن لطف الله بعبده تلوينه فيهما، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه.

قال فارس رضي الله عنه: «القبض أولا ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا».

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: «الخوف يقبضني والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني، إذا قبضني بالخوف أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردّني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري، فغطاني عنه، فهو تعالى في ذلك كله محركي غير مسكني، وموحشي غير مؤنسي، فحضوري لذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتعني، أو غيبني عني فروّحني».

وقد تكلم صاحب كتاب "عوارف المعارف" في القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله هاهنا اختصار، فمن أراده فلينظر هناك.

٨٢ . العَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا، وَلاَ يَقِفُ عَلَى حُدُودِ الأَدَبِ فِي البَسْطِ إِلاَّ قَلِيلٌ.

إنما اشتد خوف العارفين في البسط ما لا يشتد في القبض من قبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض، كما سيقوله المؤلف، فيخالفون حينئذ من رجوعهم إليه، وذوقهم لطعم نفوسهم، وفي ذلك الطرد والبعد، وقد كتب يوسف بن الحسين الرازي إلى الجنيد رضي الله عنه: «لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لا تذوق بعدها خيرا أبدا»، ومن ثَم يتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمر عسير في هذا الحال، ولذلك لا يقف على حدود

الأدب في البسط إلا قليل، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى، وقد قيل: «قف على البساط وإياك والانبساط».

وقال رجل لأبي محمد الجريري رضي الله عنه: «كنت على بساط الأنس، وفتح علي طريق البسط، فزللت زلة فحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه؟ دلني على الوصول إلى ما كنت عليه»، فبكى أبو محمد وقال: «يا أخي الكل في قهر هذه الخطيئة، ولكني أنشدك أبياتا لبعضهم، وأنشأ يقول:

قف بالديار، فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بربعها مستخبرا ... عن أهلها، أو سائلا أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى فعزّ الملتقى

وسئل بعض المشايخ عن هذه المسألة، فقال: «انبساط مع الحق بغير أدب».

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «ومن هذا خشي الأكابر والسادة».

قال في "لطائف المنن": «البسط مزلة أقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم، وكثرة لجئهم، والقبض أقرب إلى وجود السلامة، لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله، وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه، والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو اللائق بهذه الدار، إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى».

قال: وأخبرني بعض الصوفية قال: «رأي شيخنا شيخه في المنام بعد موته

مقبوضا، فقال له: يا أستاذ، ما لك مقبوضا؟ فقال له: يا بني، القبض والبسط مقامان من لم يوفهما في الدنيا وفاّهما في الآخرة. قال: وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط» انتهى.

٨٣ . البَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الفَرَحِ، وَالقَبْضُ لاَ حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ.

في هذا إشارة إلى ما تقدم، من: أن مراعاة الأدب في البسط أمر عسير، وذلك أن في البسط وجود حظ النفس، فيستولي عليها الفرح بذلك، فلا يتمالك حتى يقع في سوء الأدب، والقبض ليس فيه حظ للنفس، فلذلك كان أسلم.

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول: «القبض حق الحق منك، والبسط حق العبد منه، ولأن تكون بحقه منك أتم من أن تكون بحظك منه».

وأما آداب القبض والبسط فلا أعلم الآن من استوفى الكلام فيهما من علماء الصوفية ومصنفيهم، وإنما وجدنا لهم من ذلك إشارات إلى أمور جملية، كقول الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه بعد أن تكلم على لفظتي "القبض والبسط" وتبيين معانيهما، إلى أن قال: «وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه، يجد في قلبه قبضا لا يدري ما موجبه ولا سببه، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضي ذلك الوقت، لأنه لو تكلف نفيه، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد في قبضه، ولعله يعدّ ذلك منه سوء أدب، وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض، فإن الله سبحانه قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]».

وقد يكون بسط يرد بغتة، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف لها سببا يهز صاحبه ويستفزه، فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب، فإن في هذا الوقت له خطر عظيم فليحذر صاحبه مكرا خفيا، كما قال بعضهم: «فتح عليّ باب من البسط، فزللت زلّة فحجبت عن مقامي» انتهى كلام الإمام أبي القاسم.

وقد رأيت كلاما مبسوطا مستوفى في آداب القبض والبسط لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فأحببت أن أذكره هاهنا، لتتم به الفائدة التي تعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى، وإن كان كلام الشيخ أبي الحسن في ذلك أعم مما هو عند غيره من أئمة الصوفية، قال رضي الله عنه: «القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما، وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار، والحق سبحانه وتعالى يرتضي منك العبودية فيهما، فمن كان وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه، أو لا يعلم، وأسباب القبض ثلاث:

ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك، أو ظالم يؤذيك في نفسك أو في عرضك أو ينسبك لغير دين أو غير ذلك، فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترجع إلى العلم مستعملا له كما أمرك الله تعالى، أما في الذنب فبالتوبة والإنابة وطلب الإقالة.

وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب.

وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال.

واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان: ظلم غيرك لك، وظلم لنفسك.

فإن فعلت ما التزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له فتجاب فيه دعوتك، وما أحسن ذلك إذا رحم الله بك من ظلمك، فتلك درجات الصديقين الرحماء، ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا، فالوقت وقتان: ليل ونهار، فالقبض أشبه شيء بالليل، والبسط أشبه شيء بالنهار، فإذا ورد عليك القبض بغير سبب تعلمه فالواجب عليك السكون، والسكون عن ثلاثة أشياء: عن الأقوال، والحركات، والإرادات، فإن فعلت ذلك فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك أو ببدوّ نجم تهتدي به، أو قمر تستضيء به، أو شمس تتبصر بها؛ والنجوم نجوم العلم، والقمر قمر التوحيد، والشمس شمس المعرفة.

وإن تحركت في ظلمة ليلك فقلما تسلم من الهلاك، واعتبر بقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣] فهذا حكم العبودية في القبضين جميعا.

وأما من كان وقته البسط فلا يخلوا إما أن يعلم له سببا أو لا، والأسباب ثلاثة:

الأول: زيادة في الطاعة، أو نوال من المطاع كالعلم والمعرفة.

الثاني: زيادة من دنيا بكسب، أو كرامة، أو هبة، أو صلة.

الثالث: بالمدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك بطلب الدعاء منك وتقبيل يديك.

فإذا ورد عليك البسط من أحد هذه الأسباب فالعبودية تقتضي أن ترى النعمة والمنة من الله تعالى عليك، واحذر أن ترى شيئا من ذلك لنفسك وحصّنها أن لا يلازمها خوف السلب مما به أنعم عليك فتكون ممقوتا.

هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى.

وأما الزيادة من الدنيا، فهي نعمة أيضا كالأولى، وخف مما بطن من آفاتها!.

وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستره عليك، وخف من الله تعالى أن يظهر ذرّة مما بطن منك، فيمقتك أقرب الناس إليك. فهذه آداب القبض والبسط في العبودية.

وأما البسط الذي لا تعلم له سببا، فحق العبودية فيه ترك السؤال والإدلال، والصولة على النساء والرجال، اللهم إلاّ أن تقول: سلّم.. سلّم.. إلى الممات. فهذه آداب القبض والبسط في العبودية جميعا إن عقلت، والسلام».

انتهى ما ذكره الشيخ أبو الحسن، وكلامه في ذلك حسن، والحمد لله الذي بيده سوابغ المنن.

٨٤ . رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ.

منع الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته، والكون مع شيء من عادته عطاء

جزيل منه، لأنه أبقاه معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرّده منها، وعكس هذا هو "المنع" على التحقيق، وإن كان عطاء في الظاهر.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: «إذا منعت فذلك عطاؤه، وإذا أعطيت فذلك منعه، فاختر الترك على الأخذ».

فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك، فلن يعدم منه خيرا.

٨٥ . مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الفَهْمِ فِي المَنْعِ عَادَ المَنْعُ عَيْنَ العَطَاءِ.

سيأتي بيان هذا من كلام المؤلف رحمه الله في قوله: (متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره...) إلى آخره.

٨٦ . الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا.

الأكوان ها هنا: كل ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظ من متاع الدنيا وزهرتها، وهي رائقة الظاهر قبيحة الباطن، كما قيل:

على وجه ميٍّ مسحة من ملاحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهي من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة، وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها، فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنية، فيعتبر بها، فيسلم من شرها.

وقد روي في الكتب السالفة: أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: يا روح الله صف لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال عليه السلام: هم الذين بهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب، وبه علموا، وبهم قام الكتاب، وبه قاموا، نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فصار ذكرهم فيها قوتا، وفرحهم فيها حزنا، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرف لهم منها بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها، وخربت فيما بينهم فلم يعمروها، وماتت في صدورهم فلم يحيوها بعد موتها، هدموها، وبنوا بها آخرتهم، أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره، ويضيئون به، لهم الخبر العجيب، وعندهم الخير العجيب.

وكان بعض الأولياء يقول: «ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا إلا كشف له عن باطنه فظهر لي عزوف عنها».

قال أبو طالب المكي: «فهذه عناية من الله لمن وليه من أوليائه المقربين منه، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها».

وكان عيسى عليه السلام يقول: «ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن».

٨٧ . إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لاَ يَفْنَى فَلاَ تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَى.

العز الذي لا يفنى: هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مسببها، لأنه باق لا يفنى، فالتعلق به عز لا يفنى.

والعز الذي يفنى: هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها، لأنها فانية، فالتعلق بها عز فان لا يبقى.

والتعلق بالله عزّ لا يفنى وليس لك إلا أحدهما، لأنهما ضدان لا يجتمعان، فإن اخترت العز الباقي بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلك، يحكى أن رجلا أمر بالمعروف لهارون الرشيد، فحرد عليه هارون الرشيد، وكانت له بغلة سيئة الخلق، فقال: اربطوه معها تقتله برمحها، ففعلوه ذلك فلم تضرّه، فقال: اطرحوه في بيت وطيّنوا عليه الباب، ففعلوا ذلك فرأي في بستان وباب البيت مسدود، فأخبر هارون الرشيد بذلك، فأُتي للرجل فقال: من أخرجك من البيت؟ فقال: الذي أدخلني البستان، فقال: ومن أدخلك البستان؟ فقال الذي أخرجني من البيت، فقال: أركبوه دابة وطوفوا به في البلد، وليقل قائل: «ألا إن هارون قد أراد أن يذل عبدا أعزه الله فلم يقدر!!».

وإن اخترت العز بالأسباب خذلتك وأسلمتك أحوج ما تكون إليها، وكنت في غاية الذل والهوان، حكي عن بعضهم أنه قال: رأيت رجلا في الطواف وبين يديه شاكرية يطردون الناس، فبعد ذلك بمدة رأيت إنسانا يتكفف الناس على الجسر

ويسأل شيئا، قال: فنظرت إليه وشبهته بذلك الرجل، فقال: لأي شيء تنظر؟ فقلت: أشبهك برجل رأيته في الطواف من شأنه كذا وكذا، فقال: أنا ذلك الرجل: تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله في موضع يترفّع فيه الناس.

قال في "التنوير": فإن اعتززت بالله دام عزّك، وإن اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز.

قال: وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه:

اجعل بربك شأن عز ... ك يستقر ويثبت

فإن اعتززت بمن يمو ... ت فإن عزك ميت

قال: ودخل إنسان على بعض العارفين وهو يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت!! ويقال لك: إذا اعتززت بغير الله تعالى فقدته، واستندت إلى غيره فعدمته ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٧: ٩٨].

٨٨ . الطَّيُّ الحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ، حَتَّى تَرَى الآخِرَةَ أَقْرَب إِلَيْكَ مِنْكَ.

طيّ مسافة الدنيا إنما يتصور من العبد إذا أشرق نور اليقين في قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره وتنطوي في اعتباره، ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده، بل

يراها أقرب إليه منه، إذ ذاته فانية منطوية بهذا الاعتبار، فمن كانت هذه مشاهدته فلا يتصور منه حب الغائب الفاني وهو الدنيا، واستبداله بالحاضر الباقي وهو الآخرة، ولذلك كان أصل الرغبة في الدنيا وإيثارها على الآخرة ضعف اليقين، فمن لم يشرق في قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير، ومن لم يشاهده أحب الدنيا، وهي لا شيء، فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيئا، فهذا هو الطيّ الحقيقي لمسافة الدنيا الذي يكرم الحق به أولياءه وبه تتحقق عبوديتهم لربّهم عزّ وجل، لا طيّ مسافة الأرض الذي ربما يكون استدراجا ومكرا، ولا طيّ الليالي والأيام بالوصال للصيام وترك الشراب والطعام إذا لم يتمحض طاعة وبرّا، وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: (لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها).

٨٩ . العَطَاءُ مِنَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ.

عطية الخلق لك حرمان على التحقيق، لما فيه من رؤيتك لغير الله، ووقوفك مع حظوظك وشهواتك.

ومنع الله لك إحسان، لأنه ألزمك الوقوف ببابه، وعافاك من وجود حجابه.

وإن شئت قلت: العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم.

والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك وكل ما يفعله الحبيب محبوب، ولله در القائل:

فلا ألبس النعمى وغيرك ملبسي ولا أقبل الدنيا وغيرك واهب

وفي وصية علي رضي الله عنه: لا تجعل بينك وبين الله منعما، واعدد نعمة غيره عليك مغرما.

وقال بعض الحكماء: حمل المنن أثقل من الصبر على العدم.

وقال آخر: عزّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة.

٩٠ . جَلَّ رَبُّنا أَنْ يُعامِلَهُ العَبْدُ نَقْداً فَيُجازِيَهُ نَسْيئَةً.

جزاء المعاملة لا يختص بدار الآخرة، بل ربما أظهر الحق تعالى منه لبعض أوليائه في الدنيا أنموذجا يحملهم على الاجتهاد في الأعمال ويتحققون به وجود قبولها في كل الأحوال، وذلك لعظيم كرمه وعميم فضله جلّ وعلا.

٩١ . كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً.

هذا بيان جزائهم المعجل: وهو أنه عرّفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقروا معه أنفسهم أن يكونوا أهلا لأن يكلفهم القيام بطاعته، ويمدّهم فيها بتيسيره ومعونته، فسباهم حينئذ حبه، واستولى عليهم قربه، فانخنست إذ ذاك نفوسهم واضمحل وجودهم، وذهب بهم الحياء كل مذهب، وهذا هو غاية الجزاء، ونهاية العطاء عند العلماء العارفين الذين يمنعهم وجدانه عن التطلع إلى غيره من الحظوظ الآجلة.

٩٢ . كَفَى العَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤانَسَتِه.

هذا بيان آخر لما يكرمهم به من الجزاء المعجل، وهو أن العاملين لربّهم يفتح عليهم من المعارف، ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الأنس، ويتنعمون به في حضرة القدس، وهذا من علامات وجود الرضوان الأكبر الذي يتلاشى دونه كل جزاء ويستحقر، كان بعضهم يقول: التملق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا، هو من الجنة أظهر لأهل الله تعالى في الدنيا لا يعرفه إلا هم، ولا يجد سواهم روحا لقلوبهم.

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: دخلت على أبي سليمان الداراني رضي الله عنه يوما وهو يبكي، فقلت له: وما يبكيك؟ فقال: يا أحمد، ولم لا أبكي، إنه إذا جن الليل، ونامت العيون، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه، فنادى: يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم، فلم لا تنادى فيهم؟ يا جبريل، ما هذا البكاء، هل رأيتم حبيبا يعذّب أحبابه، أم كيف يجمل بي أن آخذ قوما إذا جنّهم

الليل تملقوا لي، فبي حلفت إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليّ، وأنظر إليهم.

٩٣ . مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ العُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ.

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء، أو فرارا من عقوبة المولى مدخول معلول، ليس من شأن العارفين المحققين، لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضي أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب، لأنه عبد يستحق عليه مولاه كل شيء ولا يستحق هو عليه شيئا، وهذا من أعلى المحبة لله تعالى، لأن المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه لا مراد له إلا ما أراد، فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها، فإن خالف هذا أو عمل على طلب حظّه لم يقم بحق صفات مولاه، وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته وعدم حبه لربه ومعرفته.

قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض إلا وهم جهّال بالله تعالى، إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته»، وفي أخبار داود عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه إن أَوَدَّ الأودّاء إليّ من عبدني لغير نوال، لكي يعطي الربوبية حقها، وفيما نقل وهب ابن منبه من الزبور: ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو لنار، لو لم أخلق جنةً ولا نارا ألم أكن أهلا لأن أطاع؟ أو كما قال عز وجل.

وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت التقي مشغوفا في طلب الربّ فقد ألهاه ذلك عما سواه.

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشِّنان البالية، فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله تعالى، فقال: ولأي شيء تعبدتم؟ قالوا: خوّفنا الله من ناره فخفنا منها، فقال: حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه، ثم جاوزهم، فمرّ بآخرين أشد عبادة منهم، فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: شوقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه، فنحن نرجوها، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم، ومر بآخرين يتعبدون فقال: ما أنتم؟ قالوا: المحبون لله عز وجل لم نعبده خوفا من ناره، ولا شوقا إلى جنته، ولكن حبا له، وتعظيما لجلاله، فقال: أنتم أولياء الله حقا، معكم أمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفي لفظ آخر أنه قال للأولين، مخلوقا خفتم، ومخلوقا أحببتم، وقال للآخرين: أنتم المقربون.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وممن روي عنه هذا القول وأقيم في هذا المقام جماعة من التابعين، منهم: أبو حازم المدني كان يقول: إني لأستحي من ربي أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وأستحي أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له».

قال الشيخ أبو طالب المكي: «وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله ﷺ: «**لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجر لم يعمل**».

وقال بعض إخوان معروف رضي الله عنه له: أخبرني عنك يا أبا محفوظ، أي شيء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت، فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ فقلت: فذكر القبر، قال: وأي شيء القبر؟ فقلت: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذان، من ملك هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

قال أبو طالب: وحدّثوا عن علي بن الموفق قال: «رأيت في النوم كأني أُدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيّبات وهو يأكل، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفّح وجوه قوم، فيدخل بعضهم الجنة ويرد الآخرين، قال: ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس، فرأيت في سرادقات العرش رجلا قد أشخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: هو معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته، بل حبا له، فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة، وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما».

قال أبو طالب المكي: «وروينا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين، وكان

سفيان الثوري يجلس بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول له: نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا، وكان يعترف لها ويسلم قولها، وكان عالما زاهدا إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والإقبال على الناس، وهي أبواب الدنيا، وقال لها الثوري يوما: لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبا للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطي عمل، ولكن عبدته حبا له وشوقا إليه»، والآثار والحكايات في هذا المعنى كثيرة لا تنحصر.

فإذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبدا لله حقا، فإن طلب منه الثواب أو استعاذ به من العقاب فإنما يطلبه أو يستعيذ به انتجازا لوعد ربه، وفرارا من دعوى رؤية حظّه، واتباعا لما أحبه منه وأذن له فيه، من طلبه لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه، وهذا وما أشبهه هو المعني بالحديث المروي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «**مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: أَتَشَهَّدُ، ثُمَّ أَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا وَاللهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**». لا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثا له على القيام بطاعته وملازمة عبادته، فيكون عمله إذ ذاك مدخولا معلولا، هذا هو مذهب العارفين والمحققين، وعليه تبنى قواعد التصوف كلها.

٩٤ . مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ.

المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى، ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرفه لهم، وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزله بهم من النوازل، ويورده عليهم من الأحكام.

ثم هي على قسمين: ما وافق الهوى والطبع، ويسمى ذلك "عطاء ومنحا" وما خالفهما ويسمى "منعا".

فبوجود العطاء تشهد صفاته البرية من: الجود، والكرم، والإحسان، واللطف، والعطف، وغير ذلك.

وبوجود المنع تشهد صفاته القهرية من: الجبر، والكبرياء، والعزّة، والاستغناء.

فينبغي لك أيها العبد أن لا تفرّق بينهما إن أردت معرفة ربك ولم يستغرقك حب حظك.

إذن فمنعه لك عطاء على التحقيق، فهو في كلتا الحالتين منعم عليك، ومقبل بوجود عطفه إليك.

وهذا هو بيان ما تقدم من قوله: «متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء» والله أعلم.

قال سفيان الثوري رضي الله عنه: «أتيت أبا حبيب البدري أسلم عليه، ولم أكن رأيته، فقال لي: أنت سفيان الثوري الذي يقال؟ قال: فقلت نعم، فنسأل الله عز

وجل بركة ما يقال، فقال لي: يا سفيان ما رأينا خيرا قط إلا من ربنا، فقلت: أجل، قال: فمالنا نكره لقاء من لم نر خيرا قط إلا منه، ثم قال: يا سفيان منع الله إياك عطاء منه لك، وذلك أنه لم يمنعك من بُخل ولا عُدم، وإنما منعه لك نظر منه واختبار، يا سفيان إن فيك لأنسا، ومعك شغلا، ثم أقبل على غنيمته وتركني».

٩٥ . إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ الله فِيهِ.

إذا كان منع الله سبحانه وتعالى وعطاؤه نعمتين عظيمتين، كما ذكرناه الآن، فينبغي أن يكون في كلتيهما قرّة عين المريد، فإن تألم بأحدهما وهو المنع وتلذذ بالآخر وهو العطاء، فذلك لعدم فهمه وقصور علمه، وإنما الأكمل والأفضل له أن يألم بالعطاء ويلذّ بالمنع كما قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: لا يصح الفقر للفقير حتى يكون فيه خصلتان:

إحداهما: الثقة بالله تعالى.

والأخرى: الشكر لله فيما زوى عنه مما ابتلى به غيره من الدنيا، ولا يكمل الفقير حتى يكون نظر الله له في المنع أفضل من نظره له في العطاء، وعلامة صدقه في ذلك: أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء ولا يعرفه غير باريه الذي خصّه بمعرفته وأياديه، فهو لا يرى سوى مليكه، ولا يملك إلا ما كان من تمليكه، وكل شيء له تابع، وكل له خاضع.

٩٦ . رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ القَبُولِ، وَرُبَّمَا قَضى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبًا فِي الوُصُولِ.

ينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء، ولينظر إلى حقائقها، فصور الطاعات لا تقتضي وجود القبول لها، لما قد تضمنته من الآفات القادحة في الإخلاص فيها، وذلك مانع من وجود القبول لها، ووجود صورة الذنب لا تقتضي الإبعاد والطرد، بل ربّما يكون ذلك سببا في وصوله إلى ربه، وحصوله في حضرة قربه، كما قيل: «ربّ ذنب أدخل صاحبه الجنة».

وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ، أنه قال: **«وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ»** وذلك أنه يصحبه عند عمله بالطاعة أن يعجب بها ويعتمد عليها ويتكبر بفعلها، ويستصغر من لم يفعلها ويصحبه عند وقوعه في الذنب اللجاء إلى الله تعالى والاعتذار إليه منه، واستصغار نفسه وتعظيم من لم يفعله.

قال أبو حازم رضي الله عنه: «إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها، وما خلق الله له من سيئة أضر له منها. وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، وما خلق الله له من حسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسره، فيمتن بها، ويروى أن له فضلا على غيره، ولعل الله أن يحبطها ويحبط معها عملا كثيرا، وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، ولعل الله أن يحدث له بها وجلا حتى يلقى الله تعالى، وإن خوفها في جوفه لباق».

ثم بين المؤلف رحمه الله هذا المعنى بقوله:

٩٧ . مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلاًّ وَافْتِقَاراً خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا.

الذل والافتقار من صفات العبودية، والعزّ والاستكبار مناقضان لهما، لأنهما من صفات الربوبية، ولا خير في الطاعة إذا لزم عنها شيء مما يناقض صفات العبودية، لأنها تحبطها وتبطلها، كما لا مبالاة بالمعصية إذا لزمتها صفات العبودية، لأنها أيضا تمحوها وتزيلها. قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «انكسار العاصي خير من صولة المطيع».

وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى حتى أنه ربّما دخل عليه مطيع فلا يعبأ به، وربا دخل عليه عاص فأكرمه.

لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصي دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته، وقد تقدم مثل هذا عند قوله: (لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى).

فمن هذا المعنى ما روي عن أبان بن أبي عياش أنه قال: «خرجت يوما من عند أنس بن مالك ﵁ بالبصرة، فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر، فقلت: بسوق البصرة وجنازة مسلم لا يشيعها أحد، فلأكونن خامسهم، فمضيت معهم، فلما وضعوها بالمصلى قالوا لي: تقدم، فقلت: أنتم أولى

به، فقالوا: كلنا سواءاً فتقدمت فصليت عليه وقلت لهم: ما القصة؟ اكترتنا تلك المرأة، قال: فقعدت حتى دفنوها، فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة وهي تضحك، فدخل قلبي شيء، فقلت: لا ينجيك إلا الصدق، أخبريني ما القصة؟ فقالت: إن هذا ابني ما ترك شيئا من المعاصي إلا فعله فمرض منذ ثلاثة أيام فقال: يا أماه، إذا مت فلا تخبري بوفاتي جيراني، فإنهم لا يحضرون جنازتي ويشمتون بموتي، واكتبي على خاتمي هذا "لا إله إلا الله محمد رسول الله" واجعليه على كفني فلعل الله يرحمني به، وضعي رجلك على خدّي وقولي: هذا جزاء من عصى الله، فإذا دفنتني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي: إني رضيت عنه فارض عنه، فلما مات فعلت جميع ما أوصى به، فلما رفعت يدي إلى السماء سمعت صوته بلسان فصيح: انصرفي يا أماه، فقد قدمت على رب كريم رحيم، غير غضبان علي»، فإنما ضحكت من هذا».

ومن المعنى الآخر ما روي أن رجلا من بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد، فقال له العابد: ارفع، فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله عز وجل إليه: أيها المتألّي عليّ، بل أنت لا يغفر الله لك.

قال الحارث المحاسبي رضي الله عنه: لأنه إنما تألّى على الله عز وجل أن لا يغفر الله له لعظم قدر نفسه عنده، وأن الإساءة إليه عند الله عز وجل عظيمة لا يغفرها الله تعالى لموضع عبادته وسجوده، لأنه عدّ نفسه عظيم القدر عند الله عز وجل فجمع بين عجب وكبر واغترار بالله عز وجل.

ومن المعنيين جميعا ما روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحي بني إسرائيل فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم، فقعد منتبذا عنهما منكسرا، فدعا الله سبحانه وتعالى وقال: اللهم اغفر لي، ودعا هذا الصالح وقال: اللهم لا تجمع بيني وبين هذا العاصي، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: إني قد استجبت دعائهما جميعا، رددت ذلك الصالح، وغفرت لذلك المجرم.

وروي عن الشعبي، وروي أيضا عن الخليل بن أيوب: أن رجلا كان في بني إسرائيل يقال له "خليع بني إسرائيل" لكثرة فساده، فمر برجل آخر من بني إسرائيل يقال له "عابد بني إسرائيل" وعلى رأس العابد غمامة تظله، فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله عز وجل أن يرحمني به فجلس إليه، فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل يجلس إليّ، فأنف منه، وقال: قم عنّي فأوحى الله عز وجل إلى نبي ذلك الزمن: مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد، وفي حديث آخر: فتحولت الغمامة على رأس الخليع.

قال الحارث المحاسبي: «وإنما أراد الله عز وجل من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد، وأنف وتواضع الجاهل أو العاصي وذلّ هيبة لله عز وجل وفرقا منه فهو أطوع لله عز وجل من العابد أو العالم بقلبه».

٩٨ . نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا، وَلاَ بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا: نِعْمَةُ الإِيجَادِ، وَنِعْمَةُ الإِمْدَادِ.

نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد نعمتان لازمتان لكل مكوّن موجود، لأنه في ذاته معدوم متلاش، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، ولولا ذلك لم يزل معدوما، ونعمة الإمداد أزالت العدم اللاحق، ولولا ذلك لتلاشى وفني.

قال سيدي أبو مدين: «الحق تعالى مستبد، والوجود مستمد، والمادّة من عين الوجود، فلو انقطعت المادة انهدم الوجود» وهذا توطئة لما يريد بيانه من الفقر الذاتي للعبد.

٩٩ . أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلاً بِالإِيجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الإِمْدَادِ.

هذا أحد جزئيات الكلية المتقدمة، وهو وجودك ودوام وجودك، ومما لا ينبغي أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس نعمة إيجاد الإيمان ومحبة الطاعة في قلبك، وإمدادهما، وكراهية الكفر والمعصية، فإن ذلك من النعم العظيمة التي لا مدخل للعبد فيها ولا له وسيلة إليها، ولولا تولي الله تعالى له بتينك النعمتين في القسمين لتاه في الظلمات الضلالات وغرق في بحار الجهالات، وقد نبه الله عز وجل على هذا المعنى في كتابه الكريم فقال عز من قائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات: ٧: ٨].

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «إن من افتكر في صنوف الضلال، وكثرة طرق المحال، وشدّة أغاليظ الناس في البدع والأهواء، وما يتشعب بكل قوم مختلفي النحل والآراء، ثم فكر في ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيره في الأمور وشدة جهله، وتناقض تدبيره في أحواله، وشدّة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله في أعماله، ثم رأى خالص يقينه، وقوّة استبصاره في دينه، ونقاء وجه توحيده عن غبرة الشرك، وصفاء عين عرفانه عن رهج الشرك، علم أنّ ذلك ليس من طاقته، ولا بجهده وكده وسعيه وجده، بل بفضل ربه، وسابغ طوله، قال الله تعالى ذكره: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فهو الظاهر بنعمائه، وآثار نعمه عليك متظاهرة، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة».

فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة ويتوكل على مولاه في بقائها وحفظها عليه، ولا يعتمد في ذلك على عقله وعلمه.

قال بعض العارفين: «من نظر في توحيده إلى عقله لم ينجه توحيده من النار».

وعن ذي النون المصري رضي الله عنه ما هو قريب من هذا المعنى: «من كان في توحيده ناظرا إلى نفسه لم ينجه توحيده من النار حتى يكون نظره إليه في توحيده إياه عز وجل، فهذا هو شكر هذه النعمة العظيمة».

قال الشيخ أبو طالب المكي بعد أن ذكر ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «**أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه ولما يغذوكم به أيضا**» فمن أفضل ما غذّانا به نعمة

الإيمان به والمعرفة له، وغذاؤنا لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه في تصريف الأحوال، إذ هو أصل الأعمال التي هي مكان النوال، فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا في الذنوب، ولو قلّب قلوبنا في الشك والضلال كما يقلب نياتنا في الأعمال، أي شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء كنا نعوّل؟ وبأي شيء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من أعظم النعم، ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوّة وحول هو كفر نعمة الإيمان، وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان، لأنه بدّل شكر نعمة الله كفرا». انتهى كلام الشيخ أبي طالب، وهو حسن في هذا المعنى.

١٠٠ . فَاقَتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةٌ، وَوُرُودُ الأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا، وَالفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لاَ تَرْفَعُهَا العَوَارِضُ.

إذا ثبت أن نعمتي الإيجاد والإمداد لازمتان لك، وأنك في ذاتك عدم لولاهما، فالفاقة إذن ذاتية لك، والاضطرار لازم لوجودك، وإن كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فإن ذلك أمر عرضي، والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية.

وإنما أورد عليك الأسباب التي تضاد وجودك و بقاء وجودك ليذكرك بذلك ما خفي عليك من وجود الفاقة الذاتية لك والاضطرار اللازم لوجودك، فتلازم مركزك وتقوم بحق عبوديتك ولا تجاوز حدك وطورك.

قال بعضهم: «إنما حمل فرعون على قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] طول العافية والغنى، لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولم يحم جسده ولم يضرب عليه عرق، فادعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة، أو المليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية».

قال في "لطائف المنن": «الاضطرار تعطيه حقيقة العبد، إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ومدد يمده، وكما أن الحق سبحانه هو الغني أبدا فالعبد مضطر إليه أبدا، ولا يزيل العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل في الجنة فهو محتاج إلى الله تعالى فيها، غير أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق، إذ لا يختلف حكمها لا في الغيب ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الآخرة، فالعلم صفته الكشف، أي علم كان، في أي وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص؛ أي إرادة كانت في أي وقت كانت ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره وقد عاتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية، وقال: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ...﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤] الآيتين، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى، ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم سلّط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيته».

١٠١ . خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَى وُجُودِ ذِلَّتِكَ.

إنما كان ذلك خير الأوقات لوجود حضورك فيها مع ربك، وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك وحجبك، فهي لا محالة خير أوقاتك، وهي مواسمك وأعيادك حسبما يقوله المؤلف رحمه الله بعد ذلك.

حكي عن عطاء السلمي رضي الله عنه: أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شيء فسر قلبه بذلك غاية السرور، فقال: «يا ربّ إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة».

وقيل: «إن فتحا الموصلي رضي الله عنه رجع ليلة إلى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا، فأخذ يحمد الله تعالى ويتضرع إليه ويقول: إلهي لأي سبب وبأي وسيلة واستحقاق عاملتني بما عاملت به أولياءك».

وقال بشر الحافي رضي الله عنه: «بلغني أن بنتا لفتح الموصلي عريت، فقيل له، ألا تطلب من يكسوها؟ فقال: لا أكسوها حتى يرى الله عريها وصبري عليها، قال: وإذا كان ليالي الشتاء جمع عياله ومال بكسائه عليهم ثم قال: اللهم أفقرتني وأفقرت عيالي، وجوعتني وجوّعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، بأي وسيلة توسلت إليك وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك، فهل أنا منهم حتى أفرح؟».

وقيل إن الفضل بن عياض رضي الله عنه بكى في ليلة قرة، ثم قال: إلهي أجعتني وأجعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، وأقعدتني وأقعدت عيالي، في بيت ليس

فيه مصباح، وقديما تفعل هذا بأوليائك وأهل طاعتك، إلهي فبأي عمل أستحق هذا منك حتى أداوم لك عليه.

وقيل للربيع بن خيثم رضي الله عنه: قد غلا السعر، فقال: نحن أهون على الله من أن يجيعنا، إنما يجيع أولياءه.

١٠٢ . مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الأُنْسِ بِهِ.

فتح باب الأنس بالله تعالى هو الاستيحاش من الناس، ولذلك قيل: «الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس».

فإذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الأغيار كلها، وتحققت في أنسك بربك، ومعنى الوحشة هنا أن تشمئز بقلبك منهم، وتنقبض عنهم بسرّك، ولا يكون للأشياء وقع عندك، ولا تجد فيها مقنعا لك، كما جاء عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه حين اطلع على أنواع من العجائب، ووُوْجه بسنيّ الرغائب، وكشف له عن الملكوت الأعلى، فقيل له: هل استحسنت منها شيئا؟ فقال: لم أر شيئا أستحسنه، فقيل له: أنت عبد الله حقا.

فإذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الأنس، ونزوله في حضرة القدس، وسيأتي هذا المعنى في قوله في مناجاته: (أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم).

١٠٣ . مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ.

إطلاق اللسان بالطلب هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذي أوجبه الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الفاقة والافتقار، فإذا حل عنه هذه العقدة بشهود فقره وفاقته، وأطلق لسانه بالطلب، كان إذ ذاك داعيا بلسان الاضطرار، وكان مجابة الدعوة لصدق الوعد بإجابة دعوة المضطر، والله لا يخلف الميعاد، وأنشدوا:

لو لم ترد نيل ما أرجوه من طلب   من فيض جودك ما ألهمتني الطلبا

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر ﭬ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أذن له في الدعاء منكم فتحت له أبواب الرحمة، وما يسأل الله شيئا قط أحب إليه من يسأل العفو والعافية في الدنيا والآخرة**».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة**».

قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضي الله عنه: «وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته، ولولا ذلك ما فتح له باب الدعاء».

وعن أنس بن مالك ﭭ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا صَبَّ عَلَيْهِ البَلَاءَ صَبًّا، وَسَحَّهُ عَلَيْهِ سَحًّا، فَإِذَا دَعَا قَالَتِ المَلَائِكَةُ: صَوْتٌ مَعْرُوفٌ، وَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، اقْضِ حَاجَتَهُ، فَيَقُولُ اللهُ: دَعُوا عَبْدِي، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ، فَإِذَا قَالَ: يَا رَبِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ، لاَ تَدْعُونِي بِشَيْءٍ إِلَّا اسْتَجَبْتُ لَكَ، وَلَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ، إِمَّا أَنْ أُعَجِّلَ لَكَ مَا سَالتَ، وَإِمَّا أَنْ أَدَّخِرَ لَكَ عِنْدِي أَفْضَلَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ أَدْفَعَ عَنْكَ بِهِ مِنَ البَلَاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ**».

١٠٤ . العَارِفُ لاَ يَزُولُ اضْطِرَارُهُ، وَلاَ يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرَارُهُ.

معرفة العارفين هي معرفتهم بأنفسهم، وبما هي عليه من الفاقة والافتقار إلى العزيز الجبار، وبقدر ما يتحققون بذلك من أنفسهم تكون معرفتهم بالله عز وجل كما جاء في الخبر: «مَنْ عَرفَ نَفْسَهُ عَرفَ رَبَّهُ»، فلذلك كان العارف لا يفارقه الاضطرار.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] الولي لا يزال مضطرا.

قال الأستاذ تاج الدين بن عطاء قدس الله سره: «معنى كلام الشيخ هذا أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم، وإنما لم يكن له مع غير الله قرارا لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم، وكأنه -رحمه الله- قصد بهذا أن يعلمك أن ما تقدم له من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب من الحق نعتان من نعوت العارفين».

١٠٥ . أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ؛ لأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ القُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ:

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْـ ـلِ وَشَمْسُ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

أنوار الظواهر التي بها أنارها الحق تعالى، هي: الإدراكات، والإحساسات، والحركات التي اتصف بها ظاهر العبد.

وأنوار السرائر التي بها أنارها الحق تعالى، هي: المعارف، والعلوم، ولطائف الإدراكات والفهوم اشتمل عليها باطنه وسره، فأنوار الظواهر متعلقة بأنوار الآثار الحادثات، وأنوارها معانيها ولطائفها المستكنة فيها.

وأنوار السرائر متعلقة بأنوار الصفات الأزليات، ولأجل اختلاف التعلقين في الحدوث والقدم، والغنى والفقر، والفناء والبقاء، كان ما ذكره المؤلف رحمه الله من أفول أنوار ما تعلق بالحادث الفاني وعدم أفول أنوار ما تعلق بالقديم الباقي، ثم أنشد المؤلف البيت المذكور مستشهدا به على ما ذكره، ومعناه بيِّن، وقبله:

طلعت شمس من أحب بليل　　فاستضاءت، فما لها من غروب

وفي هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها، ويعتني بترتيبها، ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام:٧٦].

ويروى أن رجلا سأل سهل بن عبد الله رضي الله عنه عن القوت، فقال: هو الحي الذي لا يموت، فقال: إنما سألتك عن القوام، فقال: القوام هو العلم، فقال: إنما سألتك عن الغذاء، فقال، الغذاء هو الذكر، فقال: إنما سألتك عن طعم الجسد، فقال: ما لك وللجسد، دع من تولاّه أوّلاً يتولاه آخرا، إذا دخلت عليه علة فرده

إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردّت إلى صانعها حتى يصلحها؟ وفي معناه أنشدوا:

كَمِّل حقيقتك التي لم تكمل ... والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أتكمَّل الفاني وتترك باقيا ... هملاً، وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى، وتبقى دائما في غبطة ... أو شقوة وندامة لا تنجلي
أعطيت جسمك خادما فخدمته ... أ تُمُلَّك المفضول رقّ الأفضل
شرك كثيف أنت في أحباله ... ما دام يمكنك الخلاص فعجّل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ... ما باله يرضي بأدنى منزل

وقيل في هذا المعنى:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... وتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

١٠٦ . لِيُخَفِّفْ أَلَمَ البَلاَءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ المُبْلِي لَكَ، فَالَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدَارُ هُوَ الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيار.

إذا علم العبد أن الله تعالى رحيم به، ومتعطف عليه، وناظر إليه، فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يكترث بذلك، ولا يباليه فإنه لم يتعود منه إلا خيرا ، فليحسن به ظنه، وليعتقد أن ذلك اختيار له، وأن له في ذلك مصالح

خفية لا يعلمها إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦] قال أبو طالب المكي في هذه الآية: فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضرّ وهو خير له في الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة.

وفي معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠] قيل: ظاهرةً: العوافي، وباطنةً: البلايا، لأنها نعمة في الآخرة.

فإذن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ما كان، فله الحمد على نعمه، قال في "التنوير" إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره، وأنشد فيه لنفسه بقوله:

وخفف عني ما ألاقي من العنا   بأنك أنت المبتلي والمقدِّر
وما لأمري عمّا قضى الله معدل   وليس له منه الذي يتخير

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول: «جرِبت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك، فدخلت الحمام ففتح على قلبي بشيء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر».

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره، وقد اشتدت به العلة: «من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم»، ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا إلى ما كان فيه من حاله: «هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «كنت نائما عند سري السقطي رضي الله عنه فنبهني وقال لي: يا جنيد رأيت كأني قد وقفت بين يديه فقال: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادّعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، وخلقت النار فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم، ولا من النار هربتم، ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت لهم: إني أسلّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا: إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت، فهؤلاء عبادي حقا».

١٠٧ . مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ.

قصور النظر في عدم رؤية اللطف في القدر إنما هو من ضعف اليقين وقلة حسن الظن بالمقدر الحكيم، إذ لو كمل نظر العبد وقوي بصره لرأى في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى وما غاب عنه أكثر، ولكان كما روي عن بعض الصالحين والعارفين أنه قال: «لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول»، وكان عمران بن الحصين رضي الله عنه قد استسقى ببطنه، فلبث ملقى على ظهره سطيحا ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له على سرير من جريد، وكان تحته نقب لغائطه وبوله، فدخل عليه مطرف أو أخوه العلاء بن الشخير فجعل يبكي لما رأى من حاله، فقال له: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذا الحالة العظيمة، قال: لا تبك فإني أحب

ما أحبه الله تعالى إليّ، ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى ينفعك به واكتم علي حتى الموت، إن الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها.

وقال بعضهم: «دخلنا على سويد بن شعبة نعوده، فرأينا ثوبا ملقي فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك، ما نطعمك وما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة، ودبرت الحراقيف، وأصبحت نضوا ما أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا، فذكر أياما، ثم قال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر».

فهؤلاء شاهدوا في بلاياه عطاياه، وفي محنه منته، وفي عنفه لطفه، فأوجب لهم ذلك من الرضا بما هم فيه والتنعم به والتلذذ ما حملهم على أن لا يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه.

ووجوه الألطاف والمنن في البلايا لا تحصى، ولكنا نذكر منها هاهنا ما يزداد المريد به قوة، وحسن ظن بربه عز وجل، ويحمله ذلك على القيام بواجبها، فنقول: البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لإرادتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك راد له إلى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجاء والافتقار، وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية، وفيها أيضا ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها، إذ بوجود ذلك يقع العبد في الذنوب والمعاصي، وتتأكد منه الرغبة في الدنيا، والحرص على اتباع الهوى.

وقد قيل: «لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة، أو ذلة أو قلة» وفي الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجني، والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببت من عبادي» وفيها أيضا تحصل له طاعة القلوب وأعمالها، وذرّة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وذلك مثل: الصبر، والرضا، والزهد، والتوكل، وحب لقاء الله تعالى.

قيل لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنه: «هاهنا رجل قد تعبّد خمسين سنة فقصده، فقال: أخبرني عنك، هل قنعت به؟ قال: لا، قال: فهل أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصيام؟ قال: نعم، قال: لو لا أني أستحي منك لأخبرتك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: أراد بذلك أنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين، فيوجدك مواجد العارفين، فيكون مزيدك منه أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن، والأنس به مقام المحب، والرضا وصف المتوكل، أي: إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح، وهذه إشارة إلى ما قلنا من أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة به فقد حصل على كنوز البر.

وذكر أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبي القرطبي المالكي رحمه الله في كتاب "النصائح" له: أن عروة بن الزبير ﷺ امتحن بقرحة في ساقه بلغت به إلى نشر

عظم ساقه في الموضع الصحيح منها، فقال له الأطباء: ألا نسقيك مرقدا فلا تحس بما نصنع بك؟ فقال: «لا، ولكن شأنكم بها»، فنشرت الساق، ثم حموها بالنار، فما حرك عضوا، ولا أنكروا منه، حتى مسته النار، فما زاد على أن قال: «حسبي».

وأصيب حينئذ ابنه محمد، وكان من أحب ولده إليه، فلما رأى القدم بيد بعضهم قال: «أما إن الله تعالى يعلم أني لم أمش بها إلي معصية قط»، ثم قال: «يا غلام، اغسلها وكفنها وادفنها في مقبرة المسلمين»، ثم جعل يقول: «لئن أفنيت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لطالما أعطيت».

وذكر ابن قتيبة في "عيون الأخبار" له عن المدائني قال: «قدم رجل من عبس ضرير محطوم الوجه على الوليد، فسأله عن سبب ضره، فقال: بت ليلة في بطن الوادي ولا أعلم على الوجه الأرض عبسيا يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل أذهب ما كان لي من مال وأهل وولد إلا صبيا رضيعا، وبعيرا صعبا، فندّ البعير والصبي معي، فوضعته، واتبعت البعير لأحبسه، فما جاوزت إلا ورأس الولد في بطن الذئب قد أكله، فتركته، واتبعت البعير، فاستدار، فرمحني رمحة حطّم بها وجهي وأذهب عيني، فأصبحت لا ذا مال، ولا ذا أهل، ولا ذا ولد، ولا ذا بدن، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاء منه».

وروي عن عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه أنه خرج مع بعض إخوانه إلى ناحية من نواحي البصرة، فأواهم السير إلى كهف جبل، فإذا فيه عبد مقطع

بالجذام، يسيل جسده قيحا وصديدا، فقالوا له: يا هذا، لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الذي بك، فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا سيدي، بأي ذنب سلّطت علي هؤلاء ليسخطوني عليك ويكرّهونك إليّ، سيدي لك العتبى من ذلك الذنب، وأستغفرك منه ولا أعود فيه أبدا، قال: ثم أعرض عنّا بوجهه، فانصرفنا، وتركناه.

وروي عن بشر بن الحارث رضي الله عنه أنه قال: «رأيت بـ "عبادان" رجلا قد قطعه البلاء وقد سألت حدقتاه على خديه وهو مع ذلك كثير الذكر عظيم الشكر لله تعالى، قال: وإذا هو قد صرع من جنة به، قال: فوضعت رأسه في حجري وجعلت أسأل الله تعالى أن يكشف ما به وأدعو، فأفاق، فسمع دعائي، فقال: من هذا الفضوليّ الذي يدخل بيني وبين ربّي ويعترض عليه في نعمته عليّ، ونحىّ رأسه من حجري، قال بشر: فعاقدت الله أن لا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء».

وقد روي في بعض الأخبار: أن يونس وجبريل عليهما الصلاة والسلام التقيا، فقال يونس لجبريل: دلّني على أعبد أهل الأرض، فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه، قال: وإذا هو يقول: «متعتني بهما حيث شئت، وسلبتنيهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك الأمل يا برّ يا وصول، فقال يونس: يا جبريل، إنما سألتك أن تريني صوّاما قوّاما، قال: إن هذا كان قبل البلاء هكذا، وقد أمرت أن أسلبه بصره، فأشار إلى عينيه فسالتا، فقال: متعتني بهما حيث شئت، وسلبتنيهما حيث شئت، وأبقيت لي الأمل فيك يا برّ يا وصول، فقال جبريل: هلمّ تدعو وندعو

معك أن يرد الله عليك يديك، ورجليك، وبصرك، فتعود إلى العبادة التي كنت فيها، فقال: ما أحب ذلك، قال، ولمَ؟ قال: إذا كانت محبته في هذا فمحبته أحب إليّ من ذلك. قال يونس: يا جبريل، والله ما رأيت أحدا أعبد من هذا، قال جبريل: يا يونس، إن هذا طريق ليس يتوصل إلى رضاه بشيء أفضل منه».

وفي الخبر «**إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه**».

وفيها أيضا يحصل له كفارة الذنوب والخطايا، ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا، ولا سبيل له إلى ذلك إلاّ بما يرد عليه من أنواع البلايا لأن العبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات، ويتكاسل عن المواظبة، على نوافل الخيرات، فيكون حينئذ محروما من ثوابها غير حاصل له تكفير سيئاته بها، وإن قدر عليها ولم يتكاسل عنها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب، وحينئذ يبطل عمله، ويخيب من انتفاعه به أمله، فليحسن العبد ظنه بمولاه، وليعلم أن ما اختاره له خير له مما يختاره لنفسه بشهوته وهواه.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أن قال للرجل الذي قال له: أوصني، قال: «**لا تَتَّهِمَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ**».

وذكر مسلم رحمه الله من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحد إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**».

وذكر البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**».

وذكر أيضا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ عنه بِهِ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**».

وذكر البخاري ومسلم أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ دَرَجَةً، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**».

وذكر البخاري أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**».

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ المَرِيضِ إِذَا بَرِئَ وَصَحَّ من مَرَضِهِ كَمثلِ البَرْدَةِ تَقَعُ مِنَ السَّمَاءِ فِي صَفَائِهَا وَلَوْنِهَا**».

وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال: «لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله، لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه».

وروي عن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أخبار كثيرة في الحمى والعمى وغير ذلك.

وروى البزار من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**أنه دَخَلَ عَلَى رَسُوْلِ الله ﷺ، فَوَضَعَ يَدهُ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ حُمَّى، فَوَجَدَ حَرَّهَا مِنْ فَوْقِ اللِّحَافِ، فَقَالَ: مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ**

يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِنَّا كَذَلِكَ يُشْتَدُّ عَلَيْنَا البَلَاءُ، لِيُضَاعَفَ لَنَا الأَجْرُ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا العَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلى بِالقُمَّلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ».

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] أي: من الآثام والذنوب بالحمى والأمراض، كما قال رسول الله ﷺ فيما يروى عنه للحمّى: «**اذهبي إلى أهل قباء**»، وقد روي في بعض الأخبار بدلا من أهل قباء "الأنصار" ففيه أن النبي ﷺ: «**رأى شخصا أسود فقال: من أنت؟ فقالت: أم ملدم، آكل اللحم وأشرب الدم وحرّي من فيح جهنم: صورة الحمى، فقال عليه السلام: اذهبي إلى الأنصار فإن لهم علينا حقوقا، فأصبح النبي ﷺ فلم ير أحد من الأنصار حضر الصلاة، فطلبهم، فقيل: أخذتهم الحمّى، فقال: فقوموا بنا نعودهم، وقال لهم: الحمى طهارة وكفارة، فقالوا: يا رسول الله، ادع الله حتى يزيدنا منها**».

وذكر مسلم رحمه الله، من حديث جابر ﷺ «**أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ المُسَيِّبِ فَقَالَ: مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ المُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الحُمَّى، لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: لَا تَسُبِّي الحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**».

وذكر البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي المؤمن بحبيبتيه ثم صبر، عوّضته منهما الجنة**»،

يريد: عينيه. كذا قال في آخر الحديث من قول أحد الرواة والحبيبتان هما: العينان، وهما الكريمتان أيضا.

وروي أن أنس بن مالك وأبا ظلال رضي الله عنهما كانا في بيت ثابت البناني «**فَقَالَ أَنَسٌ: يَا أَبَا ظِلالٍ مَتَى فَقَدْتَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: وَأَنَا صَبِيٌّ لاَ أَعْقِلُ، قَالَ: أَلاَ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ حَبِيْبِيْ رَسُولُ الله ﷺ يَرْوِيهِ عَنْ جِبْرِيلَ، وَيَرْوِيهِ جِبْرِيلُ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، قَالَ: جَزَاؤُهُ الخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي**».

ومن طريق هلال بن سويد، وهو أبو ظلال المذكور، أنه سمع أنسا رضي الله عنه يقول: «**مر بنا ابن أم مكتوم، فسلم، فقال رسول الله ﷺ: ألا أحدثكم بما حدثني به جبريل عليه السلام عن هذا وأضرابه الذين ذهبت أبصارهم؟ قال رسول الله ﷺ: حدثني جبريل أن الله عز وجل يقول: حق عليّ من أخذت كريمتيه ليس له جزاء إلا الجنة**».

وفي حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «**ما أصيب عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره، وما ذهب بصر عبد فصبر إلا لقي الله ولا حساب عليه**».

وذكر البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أَنَّ اِمْرَأَةً سَوْدَاءَ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَنْكَشِفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. قَالَتْ: أَصْبِرُ، ثُمَّ قَالَتْ: فَإِنِّي أَنكَشِفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لاَ أَنْكَشِفَ، فَدَعَا لَهَا**» إلى غير ذلك مما روي عن النبي ﷺ في هذا الباب مما لا يحصى كثرة.

وفيها أيضا يحصل له تجديد التوبة وأداء الحقوق والتبعات والظلامات وكثرة الاستغفار، وحسن التذكار، وكثرة ذكر الموت، إذ ذاك أبلغ ما يذكر به، فقد قيل: الحمى بريد الموت، وقيل في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦] أي: يختبرون بها.

وفي حديث عائشة وأنس ﵄: «**قيل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ قال: نعم، من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة**». وفي لفظ الحديث الآخر: «**من يذكر ذنوبه فتحزنه**».

وقد كان السلف رضي الله عنهم يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال.

ويقال: «لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع يروّع بروعة، أو يصاب بنكبة»، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشيء.

وفيها أيضا يقع له خلف ما يفوته من الطاعات ونوافل العبادات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ له في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعالى له، وهو خير مما اختاره لنفسه، وفي الخبر: «**يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله في صحته، فإنه في وثاقي، إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي**».

وفي الحديث الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»، إلى غير ذلك

من الألطاف التي لا نعلمها، وإنما ذكرنا هذه المعاني هاهنا لأنها لائقة بكلام المؤلف رحمه الله وكأنها مفسّرة له، وأيضا فإن العبد محتاج إليها غاية الاحتياج، لأنه في حال نزول البلايا يتسخط ويجزع، ويضطرب إيمانه، ويتزلزل إيقانه، فيحتاج إلى مذكّر يذكره بأمثال هذه المعاني، ليحصل له بذلك من الرضا وحسن الظن بالله تعالى والمحبة له ما يرجى له بذلك إن مات من فوره حسن الخاتمة وحبّ لقاء الله تعالى، والأعمال بخواتيمها.

وهذا الغرض هو الذي أوجب لنا في هذا الفصل الإكثار من الحكايات وإظهار نسبة أكثر الأحاديث فيه إلى رواتها الثقات، لتطمئن قلوب أهل البلاء بذلك وتسلك إلى الله واضحات تلك المسالك، والله ولي التوفيق.

١٠٨. لاَ يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوَى عَلَيْكَ.

الطريق الموصلة إلى الله تعالى واضحة لائحة، لأن الحق تعالى هو الذي تولى ذلك، وبه أنزل الكتب وأرسل الرسل ونصب عليه الأدلة والبراهين، فلا يخاف على العبد من التباسها عليه، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن ربه.

قال أحمد بن خضرويه البلخي رضي الله عنه: «الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى».

١٠٩ . سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ البَشَـرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّـةِ فِي إِظْهَارِ العُبُودِيَّة.

سرّ الخصوصية، هو حقيقة المعرفة التي اختص بها أهل ولاية الله تعالى بحيث لا يبقى معها وجود لغير ولا كون.

وذلك لما جعله فيهم من التهيؤ والقابلية، فمن لطيف حكمة الله تعالى أن ستر ذلك بما أظهره من البشرية التي من لوازمها وجود الغير والكون، ولولا هذا الستر لكان سرّ الله مبتذلا غير مضمون كما قال في "لطائف المنن": «ولا بد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب»، ثم إن من حقيقة ظهور البشرية الاتصاف بصفة الافتقار والاحتياج وغير ذلك من أوصاف الحدوث، وذلك هو حقيقة التأله والتعبد، فظهر لنا من ذلك لزوم وجود إله معبود، وهذا هي عظمة الربوبية التي ظهرت لنا من وراء حجاب العبودية، ولو لا ذلك لكان باطنا لا يظهر، كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية»، فسبحان اللطيف الخبير، ومن هو على كل شيء قدير، والتسبيح الذي ذكره المؤلف هاهنا في غاية المناسبة لما ذكره من المعنى.

١١٠ . لاَ تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ.

إذا دعوت ربك وسألت منه مطلبا من المطالب ولم تظهر لك الإجابة فحسن به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك، فإنه يفعل ما شاء، لا يسأل عمّا يفعل، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك، فإنها أهل للمطالبة.

وسوء أدبها من وجوه:

أحدها: أنك دعوت لتجاب في دعائك، فيحصل لك بذلك غرض، وهذا مما يقدح في كمال عبوديتك، وسيأتي هذا المعنى عند قوله: «لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياما بأحكام الربوبية».

والثاني: اعتقادك أنه لم يستجب لك، إذ ظهر لك عدم الإجابة منه، وليس من شرط الإجابة أن تظهر لك، بل له أن يخفيها عنك لما في ذلك من المصالح، والإجابة إليه أمرها يجعلها ما شاء مما تعلمه أو تجهله، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (لا يكن تأخير أمر العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك...) الخ.

والثالث: وهو أشدها، اعتراضك على ربك في حكمه ومطالبتك له إذا تأخرت إجابته عليك.

ثم ذكره المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التي يكون عليها العبد قائما بحق الأدب، وواصلا إلى غاية الأرب، فقال:

١١١ . مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاسْتِسْلاَمَ لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ المِنَّةَ عَلَيْكَ.

هذان الأمران هما اللذين يلزمانك في إقامة العبودية لربك لا غير، فمتى يسّرهما الله تعالى لك، وأقامك في مراعاة أحكامها ووفّقك لذلك فقد أعظم المنة عليك،

فلماذا تتشوف؟ وما الذي تلتمس بعدهما إن كنت عبدا حقيقيا؟

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: «صحبت أخا في الله تعالى في البادية واعتزلنا في مغارة عسى أن نكون من أولياء الله تعالى وأن يفتح علينا بما فتح الله عليهم، فأقمنا زمانا نقول: لعل في هذه الجمعة، لعل في هذا الشهر، فلم يفتح الله علينا، فنحن كذلك وإذا بشيخ على باب المغارة يستأذن، فأذنّا له، فدخل، فسلم، ووقف، فقلنا له: من أنت؟ فقال: عبد الملك، فعلمنا منه أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حالك... كيف حالك...!، يردّدها كالمنكر علينا، ثم قال: كيف حال من يقول لنفسه: في هذه الجمعة أكون وليّا، في هذا الشهر أكون وليا، فلا ولاية، ولا فلاح، ولا دنيا، ولا آخرة، يا نفس ألا تعبدين الله تعالى كما أمرك مخلصة لوجهه كما أمرك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم انصرف عنا فانتبهنا لغلطتنا وتيقظنا، من أين دخل علينا؟ وعلمنا أن الله تعالى رحمنا به، فرجعت على نفسي باللوم والتوبيخ، وقلت لها: يا نفس، من أنت؟ وما عملك؟ وما خطرك؟ أنت لا شيء، وتبنا واستغفرنا الله تعالى، قال: ففتح الله علينا بجوده وفضله».

١١٢ . لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمَلَ تَخْلِيصُهُ.

التخصيص هاهنا هو: أن يظهر الحق تعالى على بعض عباده أثرته وعنايته، وتولية لطفه ورعايته، فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان، ويتخلص

عن رؤية الأغيار والأكوان، وهؤلاء هم خواص المقربين أهل العلم بالله والحب له، ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال ويريه في حاله بما يليق به من علوم وأعمال، وهؤلاء عامة المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد، وأهل المجاهدة والأوراد، وهؤلاء وإن شاركوا الأولين فيما يتحفهم الحق تعالى من لطائف الكرامات، وفيما يمنحهم إياه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم، ولم ينفكوا عن مراعاة حظوظهم، بل هم ساكنون إلى الأسباب، مرتبطون بوجود الحجاب، وقد يختص الله تعالى هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم، وبسببهم، تسكينا لنفوسهم، وتثبيتا لليقين في قلوبهم، ويمنعها الأولين، لأنهم لا يحتاجون إليها، لما هم فيه من الرسوخ في اليقين، والقوة والتمكين، كما قال صاحب كتاب "عوارف المعارف" وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معاني القدر أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر القادر، ومن أُهِّل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئا من القدرة، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء عالم الحكمة.

وسئل الشبلي رضي الله عنه وقيل له: إن أبا تراب ذكر أنه جاع في البادية فرأى البادية كلها طعاما، فقال: عبد رفق به، ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كمن قال: إني أبيت عند ربّي فيطعمني ويسقيني.

قال في "لطائف المنن": واعلم أن الكرامات تارة تظهر للولي في نفسه، وتارة تظهر منه لغيره، فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله، وفرديته،

وأحديته، وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب، وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هي حاكمة عليه وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته، فالواقف عندها مخذول، والنافذ منها إليه من هو بالعناية موصول، قال: وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: فائدة الكرامة: تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية بجمع لا يفترق وأمر لا يفتقد، كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد، لا يستوي من تعرّف الله إليه بنوره بمن تعرّف إلى الله بعقله، ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بدايتهم، وفقدها أهل النهايات في نهايتهم، إذا ما عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت.

وهكذا كان السلف رضي الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية ولا يحتاج الجبل إلى مرساة، فالكرامة رافعة لزلزلة الشك في المنة ومعرّفة بفضل الله تعالى فيمن ظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من ظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هي الكرامات؟ إنما هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على

حدودهم حتى لا يلحقوا مقاما ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشبي لأبي العباس الرقي: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي تكرّم الله بها على عباده؟ فقال: ما رأيت أحدا إلا وهو مؤمن بها، فقال أبو تراب: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال، فقال: ما أعرف لهم قولا، فقال أبو تراب: بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يفرح بها ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين وكان هذا من أبي تراب رضي الله عنه بعد أن عطش القوم وهم أصحابه، فضرب بيده الأرض فنبع الماء، فقال فتى: إني أريد أن أشربه في قدح، فضرب بيده الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض فشرب وسقانا، قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.

قال الشيخ أبو الحسن: «والقول الفصل في ذلك: أنه لا ينبغي أن تطلب، أدبا مع الله تعالى، ومن ظهرت عليه عُظِّم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى».

قال: «والقسم الثالث: وهو أن تظهر الكرامات في الولي لغيره، والمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي ظهرت عليه الكرامة إما أن يكون جاحدا فيرجع إلى الاعتراف، أو كافرا فيعود إلى الإيمان، أو شاكا في خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرّفك الله بما فيه من ودائع الإحسان» انتهى كلامه.

قال أبو النصر السراج: «سألت أبا الحسن بن سالم، فقلت له: ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختيارا، وكيف أكرموا بأن تجعل لهم الحجارة ذهبا، فما وجه ذلك؟ فقال: لا يعطيهم ذلك لقذرها، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بذلك على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذي قسم الله لهم، فيقولون: الذي يقدر على أن يصيَّر لك الحجارة ذهبا كما هو ذا تنظرين إليه قادر على أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسبين، فيحتجوا بذلك على تصحيح نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج نفوسهم، فيكون ذلك سببا لرياضة نفوسهم وتأديبا لها».

قال أبو نصر: «وقد حكى لنا ابن سالم في معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد وكان من أبناء الدنيا فخرج من الدنيا، أعني من جميع ماله، وتاب، وصحب سهلا، فقال يوما لسهل: يا أبا محمد، إن نفسي هذه ليست تترك الصياح والصراخ من خوف فوت القوت والقوام، فقال له سهل: خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله، فقال له: ومن إمامي في ذلك حتى أفعل، فقال: إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] المعنى في ذلك: أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين، لأن من جبلتها الشك، فقال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى حتى تطمئن نفسي فإني

مؤمن بذلك، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين.

قال: فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديبا لنفوسهم وتهذيبا لها، وزيادة لهم» انتهى كلام أبي نصر.

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدي البله من الصادقين.

وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله رضي الله عنه فقال له يوما: ربّما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدي قضبان ذهب وقضبان فضة، فقال سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها.

وحكى جعفر الخالدي عن الجنيد رضي الله عنه قال: جاءني أبو حفص النيسابوري مرة ومعه عبد الله الرباطي وجماعة، وكان فيهم رجل أصلع قليل الكلام، فقال يوما لأبي حفص: قد كان فيمن مضى لهم الآيات الظاهرة -يعني بها الكرامات- وليس لك شيء من ذلك، فقال أبو حفص رضي الله عنه تعالى: فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم، فأحمى فيه حديدة عظيمة، فأدخل يده في الكير فأخذ الحديدة المحماة فأخرجها فبردت في يده، فقال له: يجزيك هذا. فسئل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه فقال: كان مشرفا على حاله، فخشي على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك، فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله، وزيادة لإيمانه، بل ربما ينفر عنها العارفون، ويخاف منها المحققون.

قال بعض السلف: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

وذكر عن أبي حفص أو غيره: أنه كان جالسا وحوله أصحابه فنزل ظبي من الجبل فبرك عندهم، قال: فبكى أبو حفص، فسئل عن بكائه فقال: كنتم حولي فوقع في قلبي أن لو كان لي شاة لذبحت لكم، فلما برك هذا الظبي عندنا شبهت نفسي بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجري معه النيل فأجراه معه، فبكيت وسألته الإقالة مما تمنيت وأطلقت الظبي.

ويحكي أن بعض الأبدال قال لتلميذ من تلامذة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ما بالنا لا يعتاص علينا شيء، وهو يعتاص عليه أقل الأمور، مع أنّا نتمنى مقامه وهو لا يتمنى مقامنا. فبلغ ذلك الشيخ أبا مدين، فقال: قل له تركنا مرادنا لمراده.

وعن بعضهم أنه كان يسير في البادية فانتهى إلى بئر فإذا الماء ارتفع إلى رأس البئر، فقال: أنا أعلم أنك قادر على هذا، ولكن لا أطيقه، فلو قيّضت لي بعض الأعراب ليصفعني صفعات ويسقيني شربة ماء كان أسلم لي، ثم إني أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته.

قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق المحبة، وهو أعلى من الذي قبله، وإذا رأيته يشير إلى الذكر ويكون قلبه معلقا بالذكر الذي ذكر فطريقه طريق العارفين، وهو أعلى درجة من جميع الأحوال.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: كنت في بدايتي يريني الحق تعالى الآيات

والكرامات فلم ألتفت إليها، فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلا.

١١٣ . لاَ يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إلاَّ جَهُولٌ، الوَارِدُ يُوجَدُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ، وَالوِرْدُ يَنْطَوِي بِانْطِوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ، وَأَوْلَى مَا يُعْتَنَى بِهِ مَا لاَ يُخْلَفُ وُجُودُهُ، الوِرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ، وَالوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ، وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ؟

الورد: عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة.

والوارد: هو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره.

فالورد: ما من العبد للحق تعالى من معاملة وعبودية، والوارد: ما من الحق سبحانه وتعالى للعبد من لطف وكرامة.

والورد أحق ما يعتني به العبد ويراعيه من الوارد، لوجهين:

أحدهما: أن الورد مختص بهذه الدار لا يقع إلا فيها، فهو منقطع بانقطاعها وفان بفنائها، فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها، إذ لا يمكنه خلف ما فات منها.

والثاني: أن الورد هو حق الحق منك، والوارد هو حظك منه، وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها، فإذا ثبتت مزية الورد على الوارد باعتبار العبد كان استحقاره من نهاية الجهل، وكان مستحقره جهولا، كما قال في "لطائف المنن" «واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في

أصناف الطاعات، فإن من فاته من الطاعات صنف، أو أعوزه من الموافقة جنس فقد من النور بمقدار ذلك، فلا تهملوا شيئا من الطاعات، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما رضي به المدّعون من جري الحقائق على ألسنتهم وفقد أنوارها من قلوبهم، لأن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه، وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب، والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب، ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفهموا عن الله، ولا واجههم المدد من الله، والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف عليه الوقت استبطأ أدبه ولا يستبطئ مطلبه».

ثم ذكر كلاما كثيرا، وفي كلامه رحمه الله تعالى تنبيه على تأكُّد أمر الأوراد وعظم موقعها من الدين وأن مراعاتها من أحسن سمات العارفين، وقد رؤي الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة، فقال: نعم، سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدا.

وكان يدخل كل يوم حانوته، ويسبل الستر، ويصلي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، ورؤي بعد وفاته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات، وأبيدت تلك الرسوم، وغابت تلك العلوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

وحكى أبو محمد الجريري رضي الله عنه قال: كنت عند الجنيد رضي الله عنه في حال نزعه، وكان يوم الجمعة، ويوم نيروز، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟فقال: ومن أولى مني بذلك وهو ذا يطوي صحيفتي.

وقال أبو الحسن السراج رضي الله عنه: «ذكر عند الجنيد أهل المعرفة بالله تعالى، وما يراعونه من الأوراد والعبادات بعدما لاطفهم الله به من الكرامات، فقال الجنيد: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك».

وقال أبو بكر العطار: «حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا فرأيناه قاعدا يصلي ويثني رجله إذا أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه، فثقلت عليه حركتهما، فمد رجليه، فرآه بعض أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت، وكانت رِجلا أبي القاسم قد تورّمتا، فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال: هذه نعم الله، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري: يا أبا القاسم، لو اضطجعت، فقال: يا أبا محمد، هذا وقت منة الله، الله أكبر، فلم يزل ذلك حاله حتى مات، رحمه الله».

وقال الحصري رضي الله عنه: «الناس يقولون: الحصري لا يقول بالنوافل، وعلي أوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوتبت».

وقال محمد بن ثابت البناني رضي الله عنه: «لما حضرت أبي الوفاة جعلت ألقنه الشهادة، فقال: يا بني دعني فإني في وردي السابع».

وقال أبو طالب المكي: «ومداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطريقة العابدين، وهي مزيد الإيمان، وعلامة الإيقان».

وفي خبر عائشة ﵂ سئلت عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان عمله ديمة»، وفي لفظ آخر: «كان إذا عمل عملا أتقنه وأثبته».

وفي الخبر المشهور: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**».

وجاء في الأثر كلام تارة يروى عن الحسن بن علي، وتارة يروى عن الحسن البصري، ومرة عائشة ﵂، وبعضهم يحكيه عن النبي ﷺ في المنام «**مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمَهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَحْرُومٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيْ مَزِيْدٍ فَهُوَ فِي نُقْصَانٍ، وَمَنْ كَانَ فِي نُقْصَانٍ فَالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ**».

وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد، ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات، وتظهر له صور كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته، وفي ذلك رفض العبودية بالكلية، وهو أمارة لوجود الطرد والبعد، والعياذ بالله، وصاحب هذا عظيم الجهالة، شديد العماية والضلالة.

وقد قال الجنيد رضي الله عنه لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك تلك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله تعالى، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه

رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد لي في معرفتي، وأقوى في حالي.

قال السهروردي رضي الله عنه في كتاب "عوارف المعارف": «فأما من تعوق بخيال، أو قنع بمحال، ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص فيدخل الخلوة بالزور، ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحقرها، ويسلبه الله تعالى لذّة المعاملة، ويذهب عن قلبه هيبة الشريعة، ويفتضح في الدنيا والآخرة، فيعلم الصادق أنّ المقصود من الخلوة، التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات، وكفّ الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة مداومة الأوراد، وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر»، انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام السهروردي رضي الله عنه وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، وليس من هذا المعنى ما روي عن أبي سليمان الداراني وأحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله عنهما أنهما قالا: «إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح»، وإن كان ظاهره موهما له، فإنّ أبا نصر السراج رضي الله عنه فسّره بعد أن حكاه عن أبي سليمان الداراني فقال: «وهذا الذي قاله أبو سليمان يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه أراد بذلك استراحة الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال إذا اشتغل بحفظ قلبه، ومراعاة سره من الخواطر المشغلة، والعوائق المذمومة التي تشغل عن ذكر الله تعالى قلبه. ويحتمل أيضا أنه أراد بذلك أن يتمكن

من المجاهدة والأعمال، والعبادة، وتصير وطنه، ويستلذ بها بقلبه، ويجد حلاوتها، ويسقط عنه التعب ووجود الآلام التي كان يجدها قبل ذلك». انتهى كلام أبي نصر، ومعناه صحيح، والله أعلم وبه التوفيق.

١١٤ . وُرُودُ الإِمْدَادِ بِحَسَبِ الاسْتِعْدَادِ، وَشُرُوقُ الأَنْوَارِ عَلَى حَسَبِ صَفَاءِ الأَسْرَار.

ورود الموارد الإمدادية من الله على قلب عبده بحسب القوة الاستعدادية المجعولة فيها.

وشروق الأنوار اليقينية على حسب صفاء سره من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار.

١١٥ . العَامِلُ إِذَا أَصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ، وَالعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ.

أول خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده، فالغافل إذا أصبح أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى نفسه، فيقول: ماذا أفعل اليوم، فهو مشتغل بتدبير نفسه، مصروف عن النظر إلى مولاه، وذلك لوجود غفلته عنه، فهو حقيق بأن يكله الله تعالى إلى نفسه، فيشتت عليه قلبه، وينغص عليه مراده، والعاقل أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى فيقول: ماذا يفعل الله بي، فهو ناظر إلى الله تعالى، وإلى ما يرد عليه منه، وذلك لوجود عقله، ودوام يقظته، فلا جرم أن يكفيه الله تعالى تعلقات الآمال، ويفرغه من جميع الأشغال، ويرضيه، ويقرّ عينه بما يقيمه فيه من

أعمال، أو يورده عليه من أحوال، وهذه سعادة عظيمة، ومنّة من الله تعالى لمن وليه من عباده جسيمة.

قال عمر بن عبد العزيز: «أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر».

وقال أبو عثمان رضي الله عنه: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته».

ومن أملح ما رأيت في هذا المعنى الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، وما يجب أن يحذو على مثاله كل عاقل متصوف ما ذكره الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلي رضي الله عنه في كتابه "صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء" بسنده إلى أيوب بن بشر الطالقاني قال: «حدثنا رجل من أصحابنا، قال: رأيت رجلا في مرج الديباج ليس معه شيء، فدنوت منه، فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت: يرحمك الله أين تريد؟ قال: ما أدري، قلت: هل رأيت أحدا يريد مكانا لا يدري أين يذهب؟ فقال: نعم، أنا واحد، فقلت: فأين تنوي؟ قال: إلى مكة، قلت: تنوي مكة ولا تدري أين تذهب؟ قال: نعم، وذلك أني كم مرة أردت أن أذهب إلى مكة فيردّني إلى طرسوس، وكم مرة أردت أن أذهب إلى طرطوس فيردّني إلى عبادان فنيتي إلى مكة ولا أدري، قلت: فمن أين المعاش؟ قال: لا أدري، قلت: أخبرني بأسباب ذلك؟ قال: من حيث يريد يجيعني مرة، ويشبعني مرة، ويكرمني مرة، ويهينني مرة، ومرة يقول لي: ما على وجه الأرض أزهد منك، ومرة يقول لي: أنت

لصّ، ومرة ينوّمني على الفراش ويطعمني الطيب ويدهن رأسي ويكحل عيني، ومرة يطردني الطرد العنيف ولا ينوّمني إلا عند النواويس، قلت: يرحمك الله، من يفعل ذلك بك؟ قال: الله عز وجل، قال: فألقاني في بحر، قلت: فسّر لي يرحمك الله، كيف هذا؟ قال: أنا رجل أسير نهاري فأينما جنّ الليل بتُّ، فربما يأويني الليل إلى قرية فإذا نظر إلي أهلها قال بعضهم لبعض: هذا لصّ، لا تدعوا هذا يأوي الليلة في هذه القرية، فإذا صليت العشاء الآخرة يدخل المسجد رجل فيقول: يا نائم، فأقول: لبيك، فيقول لي بالعنف: قم من هنا ليس لك هاهنا موضع، فأقول له: حبا وكرامة فأين أبيت الليلة؟ فيقول: خارج القرية عند النواويس فأقول: نعم وكرامة، لا يكون لي مأوى إلا عند النواويس تلك الليلة، فإذا أصبحت سرت فيأويني الليل إلى قرية فإذا رآني أهلها قال بعضهم لبعض: قد ورد عليكم الليلة رجل زاهد خير فاضل، فيقول هذا: عندي يبيت، ويقول هذا عندي يبيت، فإذا صليت العشاء الآخرة، فيقول رجل منهم: قم بنا إلى البيت، فأقول: نعم حبا وكرامة، فأمضي معه إلى المنزل، فيأتيني بالطعام الطيب، ويدهن رأسي ويكحل عيني، ويأتيني بالفراش الليّن فينومني عليه ولا يدع شيئا من البر إلا فعله بي حتى أصبح، فهذا حالي مع سيدي، فقلت: رحمك الله، متى قدّر لك أن تدخل بغداد فإنّ منزلي في موضع كذا وكذا».

قال: فأنا يوما قاعد في منزلي وإذا بإنسان يدق الباب فخرجت فإذا أنا بصاحبي، فسلّمت عليه وأدخلته البيت، فقلت له: أي شيء صنع بك مولاك؟ قال: آخر ما فعل بي ضربني ضربا شديدا وقال لي: يا لصّ. ثم أراني ظهره فإذا أثر الضرب

عليه، فقلت: وما القصة؟ قال: كان أجاعني جوعا شديدا، فلما بلغت الأنبار جئت إلى مقثأة قد نبذ منها المُدَوَّدُ والمرّ فقعدت مقعدا آكل منه، فنظرني صاحب المقثأة فأقبل إليّ بعصاه، فجعل يضرب ظهري ويقول: يا لصّ، ما أخرب مقثأتي غيرك، مذ كم أرصدك حتى وقعت عليك، وإذا أنا بفارس قد أقبل مسرعا إليه فضربه بالسوط في رأسه وقال: أما تخاف الله، تعمد إلى رجل زاهد فتضربه، أوَيقال لمثل هذا لصّ؟

قال: فما كان بأسرع من أن كنت عنده لصّا فصرت زاهدا كما حدثتك، قال: فأخذ بيدي صاحب المقثأة، فذهب بي إلى منزله، فما بقي من الكرامة شيئا، واستحلني، فخرجت من عنده وجئت إليك».

وقد يكون من معنى نظره إلى ما يفعل الله به: أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارة من قبله، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق، وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره.

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «احرص من أن تصبح وتمسي إلا مفوّضا مستسلما لعله أن ينظر إليك فيرحمك».

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه، ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله، فانظر إذا استقبلك شغل، فإن عاد قلبك في أول وهلة إلى حولك وقوّتك فأنت المنقطع عنه، وإن عاد قلبك إلى الله فأنت الواصل إلى الله وكل العالم في قبضته.

وتخصيص أهل الوصلة بأنهم في كنف إيوائه، لا يكلهم إلى غيره واعتبر هذا المعنى بعمرة الحديبية، وذلك أن النبي ﷺ لمّا صدّه المشركون فيها عن مكة، ومنعوه من أن يتم بين أظهرهم نسكه رجع في الحال عن تلك العمرة ولم يتعرض لهم بما يحصل له به في الظاهر عزة أو نصرة بعدما كان دعا إليه من بيعة الرضوان تحت الشجرة وما عزم عليه من مناجزة من حادّه من الكفرة، وعمل في ذلك على ما أظهره الله له من آياته العظام عند بروك ناقته لما أراد توجيهها إلى البيت الحرام، وقال حينئذ مظهرا لما قصده ومقررا لما اعتمده: «**إنما حبسها حابس الفيل، لا تدعوني اليوم قريش إلى خطة فيها صلة رحم إلا أجبتهم إليها**»، فكان كما قال ﷺ وشرّف وكرّم: صالحهم على وضع الحرب فيما بينهم عشر سنين لينقلبوا في الأرض آمنين، فلما استتب بينهم الصلح وأنزل الله تعالى سورة الفتح ظهرت الفوائد التي تضمنها ذلك التدبير الحسن وقرّت أعين الصحابة رضي الله عنهم بما أبرزه الله إليهم من ألطاف ومنن، وقد صح بمعنى جميع ما قلناه الخبر، ونقله إلينا علماء الحديث والسير.

وليكن من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليوافق عقده قوله في جميع تصرفاته: اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي ضرّا ولا نفعا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني، اللهم وفقني لما تحبه وترضاه، من القول والعمل في طاعتك، إنك ذو الفضل العظيم.

وليقل أيضا ما رأيته لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: اللهم إن الأمر عندك وهو محجوب عني ولا أعلم أمرا أختاره لنفسي، فكن أنت المختار لي،

واحملني في أجمل الأمور عندك وأحمدها عاقبة في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير.

١١٦ . إِنَّمَا يَسْتَوْحِشُ العُبَّادُ وَالزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ.

العباد والزهاد في حجبة عن ربهم ينظرون لنفوسهم ومراعاة حظوظهم، فهم يفرون من الأشياء ويستوحشون منها لأنها موجودة في نظرهم، والزهد في المزهود شاهد له بالوجود، كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها، فهم يخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم عن مقاصدهم بميلهم إليها وافتتانهم بها، ولو كانوا من أهل العلم بالله والمحبة لله لرأوه ظاهرا في الأشياء كلها، ولكان لهم في ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لأنفسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة، لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار.

١١٧ . أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ.

رؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم، ففي هذه الدار يرونه ظاهرا في المكونات بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابها، ولذلك أمرهم بالنظر فيها، وفي الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع، وهذا غاية الظهور والكشف.

١١٨ . عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لاَ تَصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ.

عدم الصبر عن الله تعالى من وجود الاحتظاء بمعرفته، وهو حال شريف يقتضي دوام وجود المعية الاختصاصية، والمعية الاختصاصية تقتضي دوام المشاهدة والحضور، والمشاهدة الحقيقية غير متصورة في هذه الدار لما هي عليه من الدناءة والنقص والفناء والذهاب، فأكرم الله تعالى عبده لعلمه بعدم صبره عنه بأن أشهده ما برز منه من الآثار والأكوان تسلية له بالأثر عن النظر، فحصلت له حينئذ المعية الاختصاصية اللائقة بحاله، حتى إذا أقعده في مقعد الصدق وحصلت له عندية الحق خلع عليه خِلع التقريب والتكريم، وواجهه بوجهه الكريم، فحصلت له حينئذ المعية الحقيقية والمشاهدة السرمدية، وما ذلك على الله بعزيز.

١١٩ . لَمَّا عَلِمَ الحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ المَلَلِ لَوَّنَ لَكَ الطَّاعَاتِ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ الشَّرَهِ فَحَجَرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ؛ لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلاَةِ لاَ وُجُودَ الصَّلاَةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ.

تلوّن الطاعات لوجود الملل، وتحجيرها في الأوقات لوجود الشره، نعمتان عظيمتان أنعم الله بهما على عبده، فإن الملل والشره فتنتان عظيمتان قاطعتان على العبد سبيل عبوديته، والملل تكرُّه يعرض للإنسان من عمل يلحقه فيه مشقة فيصبر عليه ويتحمل التعب فيه حتى يضجر ويسأم، فيترك ذلك العمل ويرفضه استثقالا له، وهو شيء يعرض للطبع بعد إيثاره للشيء ومحبته له.

والشره: مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل والحرص عليه.

والذي يوجب وجود الملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها، فإذا لوّنت عليها استحلتها واستخفّتها، وقد قال بعض الشعراء:

لا يصلح النفس إذا كانت مدبرة   إلا التنقل من حال إلى حال

والموجب لوجود الشره صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات فيها مع شدة الحرص عليها.

وعند وقوع الشره يقع النقص والتقصير فيها، فلذلك عيّن لها أوقاتا تقع فيها، وأوقاتا لا تقع فيها، وذلك هو معنى "تحجيرها" في الأوقات، فإن كان الملل والشره واقعين في الصلاة لم يكن الآتي بها مقيما لها، لوقوع التقصير منه فيها، ولم يؤمر إلا بإقامة الصلاة، لا بوجود صورة الصلاة.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح، فإنه إنما جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال الله عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء: ٧٨] و﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] و﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الحج: ٣٥]

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥] ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة، فالإقامة: أنه إذا صلى المؤمن صلاة فقبلت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته راكعة ساجدة إلى يوم القيامة، وثواب ذلك لصاحب الصلاة، وإقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهرا وباطنا».

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: «إقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهرا وباطنا مع حفظ السر مع الله عز وجل، لا يختلج بسرك سواه».

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «هو القيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يُصلى له».

فتحفظ عليه أحكام الأمر فيما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم منهم مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة في حقائق الوصلة.

وتمثيل المؤلف رحمه الله تعالى بالصلاة دون سائر العبادات حسن، لأن ذلك أكثر ما يقع بها، وقد يكون ذلك استطرادا للكلام على الصلاة، حسبما يقوله بإثر هذا.

١٢٠ . الصَّلاَةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ.

كما روي في الحديث الصحيح، عن رسول الله ﷺ من قوله: «**إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك، أيبقى من درنه شيء**».

وَاسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ الغُيُوبِ.

لأن القلوب إذا طهرت وتزكت رفع عنها الحجب والأستار فرأت ما غاب عنها من الأسرار.

١٢١ . الصَّلاَةُ مَحَلُّ المُنَاجَاةِ.

لأن فيها يكون الثناء والدعاء له، والمناجاة: مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار.

وَمَعْدِنُ المُصَافَاةِ.

وهي زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك، حتى يصفو قلبك وسرك فيصفو لك حينئذ شهوده ويمحو ذاتك وجوده.

تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الأَسْرَارِ.

حتى تتكاثر عليك في الظهور.

وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوَارِ.

فيكون في قلبك نور على نور، وهذه العبارات الستة معانيها متقاربة.

ولما كانت هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، من فوائد الصلاة، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فإن الصلاة المعتبرة إنما هي صلاة

الخاشعين، لا صلاة الغافلين التي لا تنهض لبلوغ هذه المقاصد السنيّة، ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات وعماد الدين، قال الله تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر.

وقد روي معنى ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله**».

ولذلك كانت قرة عين حبيب الله ﷺ، على ما سيأتي الكلام عليه حيث تعرّض المؤلف له.

وفي بعض الأخبار: «أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو يعلم المناجي من يناجي ما انفتل، وإن أبواب السماء تفتح للمصلي، وإن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين».

وفي التوراة: «يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري».

وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذي يجده المصلي في قلبه من دنوّ الرب من القلب.

وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: «دعا الله تعالى الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيّأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعل وقول شيئا من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهي عرس الموحدين هيّأها رب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرض خوفا منه، لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا كبّر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه بسرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه الكريم، فإذا قال: الله أكبر، اطّلع الملك على قلبه، فإذا كان ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت، الله أكبر في قلبك كما تقول، قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فينكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات. قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملك على قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده، فيقول الملك: كذبت ليس الله أكبر في قلبك كما تقول، قال: فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت، فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه، فلا تزال تنفخ فيه، وتنفث، وتوسوس إليه، وتزين له، حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه».

ومعاني هذه الأخبار والآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف دالة عليه، فلذلك أوردها هاهنا، والله ولي التوفيق برحمته.

١٢٢ . عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا، وَعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا.

هذا من فضل الله تعالى الذي عوده عبده، فتقليل أعدادها: بأن جعل الخمسين خمسا، وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه، وتكثير أمدادها: بأن جعل للخمس ثواب الخمسين، وذلك فضل منه عليه، إذ كان محتاجا إليه، فله الحمد والشكر على ذلك.

وهذه المعاني مذكورة في حديث الإسراء.

١٢٣ . مَتَى طَلَبْتَ عِوَضًا عَلَى عَمَلٍ طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ، وَيَكْفِي المُرِيبَ وِجْدَانُ السَّلاَمَةِ.

تقدم أن العمل لأجل حصول الجزاء مدخول معلول، وحكينا هنالك من الآثار والحكايات عن العارفين وأرباب القلوب ما فيه مقنع، وقد كرر المؤلف رحمه الله تعالى هذا المعنى في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، وما ذكره هاهنا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل.

ومعنى ما ذكره: أن العمل على هذا الوجه معرّض للبطلان، لأنه إذا طالب ربه بالجزاء على عمله طالبه ربّه بوجود الصدق فيه، والصدق فيه الوفاء بحقه في

العمل، وأنى له توفية ذلك، مع كونه طالبا للحظ من ربه، فهو لا محالة مريب، فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها.

وقال الواسطي رضي الله عنه: «العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها».

وقريب من هذا قول النصرآباذي: «العبادات إلى طلب العفو والصفح عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها».

وقال خير النساج رضي الله عنه: «ميزان أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميزان فضله فإنه أتم وأحسن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

١٢٤ . لاَ تَطْلُبْ عِوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً، يَكْفِي مِنَ الجَزَاءِ لَكَ عَلَى العَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً.

المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله عز وجل، فكيف يطلب العبد الجزاء على عمل لا مدخل له فيه على الحقيقة؟.

ومعنى كون القبول جزاء قد تقدم.

١٢٥ . إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ.

فضل الله تعالى عظيم، فإذا أراد أن يظهره عليك خلق لك الطاعة، وحلاّك بها،

ونسبها إليك، وقال لك: يا عبدي أنت مطيع، ومتق، ومجتهد، وعامل وسأثيبك على ذلك.

فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم، واستولى عليه الخجل من سيده الكريم، وانطلق لسانه في هذه الحالة بالدعاء والسؤال، وقال: يا رب كما تفضلت عليّ بخلق الطاعة لي، وحليتني بها، ووصفتني بصفات حميدة أنا خليٌّ عنها في الحقيقة، ووعدتني مع ذلك جزيل الثواب والنجاة من العقاب، فتقبل مني عملي، وأنجز لي ما وعدتني: كان في ذلك مصيبا، وإلا فلا.

فحق العبد ألا ينسب إلى نفسه شيئا من محامد الصفات ومحاسن الأعمال حقيقة ولا أدبا، إذ لا أهلية فيه لذلك.

وأما مذام الصفات والأعمال ومساوئها فمقتضى الأدب أن يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهّلت. شكر الله تعالى له ذلك، وقال له: يا عبدي، بل أنت أطعت، وأنت تقربت. وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت، وأنا تقربت. أعرض الله تعالى عنه، وقال: يا عبدي، أنا وفّقت، وأنا أعنت، وأنا سهلت. وإذا عمل سيئة وقال: يا رب أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت. غضب المولى عليه وقال له: يا عبدي بل أنت أسأت، وأنت جهلت،

وأنت عصيت. وإذا قال: يا رب أنا ظلمت نفسي، وأنا أسأت، وأنا جهلت. أقبل المولى جلّت قدرته عليه، وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت، وحلمت، وسترت».

١٢٦ . لاَ نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلاَ تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ.

من أرجعه الحق إلى نفسه، ووكله إلى عقله وحسه، فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه، وكانت أحواله مدخولة معلولة، وأعماله مستقبحه مرذولة، ومن آواه إليه وأظهر جوده عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه، وكانت أحواله حسنة جميلة، وأعماله كلها ممدوحة مقبولة، كما قيل:

لّما انتسبت إلى حماك تعرّفت ذاتي فصرت أنا وإلا من أنا

١٢٧ . كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا.

التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك، ولوازم وجودك، لا شيء من جميع ذلك لك ولا منك، وإنما هي عوار عندك، فلا ترى وجودك إلا بوجوده، ولا بقاءك إلا ببقائه، ولا عزتك إلا بعزته، ولا قدرتك إلا بقدرته، ولا غناك إلا بغناه...، إلى غير ذلك من الأوصاف، ولا يتم لك ذلك إلا بأن تتحقق بأوصاف عبوديتك من: عدمك، وفقرك، وذُلِّك، وعجزك، والتعلق والتحقق المذكوران متلازمان، بل هما شيء واحد لا تعدد فيهما على التحقيق.

١٢٨ . مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ العَالَمِينَ؟

أورد هذا كالدليل على ما ذكرناه آنفا، من أنه: لا حظ للعبد من صفات مولاه إلا التعلق بها فقط، وأنّ ادعاء شيء منها من كبائر معاصي القلب ومن مشاركة المربوب للرب، ومن مقتضى الغيرة التي اتصف بها وأعلمنا بشأنها على لسان رسول الله ﷺ حيث قال: «**لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ تعالى**»، ومن غيرته أنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، تحريم ذلك على العبد والتسجيل عليه باستحقاق الطرد والبعد، ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادّعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه عقدا أو قولا، لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ**».

ومعنى المنازعة: الدعوى قولا وعبارة، والإضمار فعلا وإشارة.

ومعنى الغيرة في حقه تعالى: أنه لا يرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية، وفيما هو حق له من الأعمال الدينية.

وإذا كان الحق تعالى مانعا لك ومحرما عليك أن تدعي ما ليس لك مما أعطى للمخلوقين من الأموال، ومسميا ذلك ظلما وعدوانا، فكيف يبيح لك أن تدّعي

وصفه وهو رب العالمين، لا شريك له في ذلك لا أنت ولا غيرك، فهو إذن من أعظم الظلم، وأشد العدوان، عافانا الله من ذلك.

قلت: وهذا المعنى الذي ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى في هذه المسألة هو الغرض الأقصى الذي هو مرمى نظر الصوفية، وكلّ ما صنّفوه ودوّنوه وأمروا به ونهوا عنه من أفعال وأقوال وأحوال إنما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف.

فشأنهم أبدًا إنما هو العمل على موت نفوسهم وإسقاط حظوظهم بالكلية، كما قيل: الصوفي دمه هدر وملكه مباح.

وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات، وإنما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى عندهم بالوجود ولوازم الوجود انفرادا لا يشاركونه في شيء منها ألبتة، كما ذكرناه آنفا.

وهذا هو كيمياء السعادة الذي أعوز أكثر الناس، ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس، إذ بذلك يستحق المرء عبودية الله عز وجل الذي لا مقام للعبد أشرف منه، كما قال الشاعر:

ألست لي خلفا مني، كفى شرفا   فما وراءك لي قصد ومطلوب

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائق خطرات الحظوظ وخفّيات هواجس الهوى، وكل ما يقتضي بقاء حظ النفس وثبوتها من محبة المقامات وإيثار الألطاف والكرامات ذنوبا عظيمة وأخلاقا ذميمة لئيمة قادحة في صدق العبودية

والإخلاص للربوبية، يتوبون من جميع ذلك إلى ربهم، ويتعوّذون به من شرّه، ويخافون من مساكنته وملاحظته غاية البعد، نهاية المكر والطرد، كما قيل:

إذ قلت ما أذنبت، قالت مجيبة   وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

ذكر أنه كان لبعض الملوك عبد يقدّمه على أشكاله وأقرانه، فشكا أهل إقليم عاملهم إلى الملك، فقال: تخيّروا من شئتم أوليه عليكم، فاختاروا ذلك العبد لمّا رأوا ميل الملك إليه، فقال الملك: راجعوه، فإن اختار الولاية وليّته عليكم، فرغب الغلام في الولاية، فأمر بكتب المنشور، وأمر باستقباله إذا وافى محل ولايته، والمبالغة في إلطافه بأنواع المكرمات والمبار، وأمر بصيغ جميع الإكرام معه، ودسّ من يرش عليه ماءَ ورد فيه سم، ثم أمر من يقول إذا أشرف على الموت: هذا جزاء من اختار الولاية على خدمة مولاه. ففي هذا عبرة لألي الأبصار، وتبصرة لأرباب الاعتبار، وإلى هذا المعنى الجليل المؤدي إلى سواء السبيل تشير الحكاية المشهور، المروية عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: حدّث يحيى بن معاذ رضي الله عنه: أنه رآه في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه، رافعا أخمصيهما مع عقيبه عن الأرض، ضاربا بذقنه على صدره، شاخصا بعينه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطال، ثم قعد فقال: اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك.

وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طيّ الأرض، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك.

وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض، فانقلبت لهم الأعيان، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك.

وإن قوما طلبوك فأعطيتهم عبدك خضرا، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك.

حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء، ثم التفت إليّ فرآني، فقال: يحيى، قلت: نعم، قال: منذ متى أنت هنا؟ قلت: منذ حينٍ، فسكت، فقلت: يا سيدي، حدثني بشيء، فقال: أحدّثك بشيء يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسود، فدوّرني في الملكوت السفلى، فأراني الأراضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلويّ، فطوّف بي في السماوات، وأراني ما فيها من الجنات إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه، فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت: يا سيدي، ما رأيت شيئا أستحسنه فأسألك إياه، فقال: أنت عبدي حقا، تعبدني لأجلي صدقا، لأفعلن بك..، وذكر أشياء، فقال: يحيى بن معاذ: فهالني ذلك، وامتلأت به، وعجبت منه، فقلت: يا سيدي، لِمَ لَمْ تسأله المعرفة به، إذ قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت؟ قال: فصاح بي صيحة وقال: ويلك، اسكت. وتلك غيرة عليه منّي، لا أحب أن يعرفه سواه.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه بعد أن ذكر هذه الحكاية: فهذا حال عبد فان عن نفسه مأخوذًا، إذ كان ربه عز وجل له موجودا أطال مقامه في المقامات، فقصرت عن وصفه الصفات، وحق له إذا نظر إلى الحسن الذي حسنت

المحاسن كلها عن حسنه، وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته، وشهد الجمال الذي تجمّل الجمال والمتجمّلون بجماله أن لا يستحسن سواه، وكيف يحبّ غير ما استحسن أو يزيّن في عينيه إلا إياه؟ أم كيف يطلب غير ما أحب، أو يصبر مع غير ما طلب؟ بل كيف يهتم بغير ما طلب؟ فهذا نعت عبد مطلوب بعين ما طلب، ووصف شخص محبوب ما أحب ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وفي الإشارات عن الله سبحانه وتعالى: يا عبدي أعزل نفسك ينعزل معها الملك والملكوت، فتلحق الدارين بالملك، وتلحق العلوم بالملكوت، فتكون عندي من وراء ما أبدي، فلا يستطيعك ما أبدي، لأنك عندي، وإذا كنت عندي كنت عبدي حقا، وإذا كنت عبدي كان عليك نوري فلا يستطيعك ما أبدي وإن أرسلته إليك، لأن نوري عليك وليس نوري عليه، فإذا جاءك لم يطقك، فأوذنك به، فتأذن أنت له.

والعبارات عنهم في هذا المعنى خارجة عن الحصر، وفيما رسمناه منها كفاية.

وإنما ذكرنا هذه المعاني، وإن كانت في الظاهر أعلى من أن يتناولها كلام المؤلف رحمه الله تعالى، لأن مرجع أمره إليها إذا دققنا في النظر، وتصرفنا فيه بوجوه العبر، فكان باطنه هو المقصود المعتبر.

وكلام الصوفية رضي الله عنهم كثيرا ما يجري هذا المجرى، والله تعالى يجزيهم عنّا خيرا، ويمنّ علينا بالفهم عنهم، وحسن القبول منهم، ويفتح أسماعنا للإصغاء إليهم، ويشرح صدورنا باستحسان ما يرد منهم، أو يبدو عنهم، بمنّه وفضله.

١٢٩ . كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرُقْ مِنْ نَفْسِكَ العَوَائِدَ؟

خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يكرم الحق تعالى به إلا من خرق عوائد نفسه، وفني عن إرادته وحظوظه، فمن لم يصل إلى هذه المقامات لا يطمع فيها، وإن ظهر له ما صورته صورة الكرامة فينبغي له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر، حيث لا يحبّ ذلك ولا يطلبه، فإن أحبه أو طلبه فهو دليل على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة؟ وهل هذا إلا محال لا يستقيم.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «جميع الأنوار من الغيوب التي وراء الحجب والأستار، لا يظهر عليها إلا مطلوب، والمطلوب لا يكون محجوبا، وهو عن نفسه مسلوب، فمتى بقيت عليه من نفسه بقية ونظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية، فيسترها عليه رحمة له، لأنه لو كوشف بها لهلك في حيرة الهوى وغرق في بحار الدنيا ونفس حبه وعين طلبه إياها هو حجابه عنها، واستتارها عنه حتى يكون كارها لظهورها كراهيته ظهور الخلق على معصيته، وخائفا منها كخوفه على نفسه في تظاهرها عليه بهلكته، فهنالك حين يبتلى بها ويختبر يظهر كيف يعمل».

وكذا الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه قال: «من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهي في حقه حجاب، وسترها عليه رحمة، فإذن من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات

وخوارق العادات له، بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك، فإذا فني عن إرادته جملة فكان له تحقق في رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف ووجود الإسعاف، وسلك إلى مرتبة الصديقية المهيع الناهج، وضرب مع أهل الإرادة بالقدح الفالج».

قال الشيخ أبو العباس بن العريف: «أصبحت يوما مهموما، فقلت للشيخ أبي القاسم بن رويبل: حدثني بحكاية عسى الله أن يفرج ما بي، فقال: نعم، وصف لي رجل ببعض السواحل يعرف بـ "أبي الخيّار" فقصدته، فوجدته على ساحل البحر، فسلمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أكلمه، حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل نفر من بعض الأودية متفرقون، فاجتمعوا إليه، وتقدّمهم واحد منهم فصلى بهم، ثم افترقوا ولم يكلم أحدٌ منهم أحدًا، وجلس الشيخ مكانه، وجلست عنده حتى إذا كان وقت الصلاة حضر النفر فصلوا ثم انصرفوا، حتى إذا كان وقت صلاة العصر اجتمعوا وصلوا، ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا سير الصالحين ومقامات العارفين والأولياء إلى قرب اصفرار الشمس، ثم تفرقوا، واجتمعوا للمغرب، ثم تفرقوا، فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك، ثم وقع في نفسي أن أسأله عن مسألة أستفيدها، فتقدمت إليه فقلت: أيها الشيخ، مسألة أسأل عنها؟ فقال: قل، فنظر الجماعة إليّ كالمنكرين ففزعت، فقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ قال: فأعرض عنّي ولم يجبني، فخفت أن أكون قد أغضبته، فقمت عنه، فلما كان في اليوم الثاني، قلت: لا بدّ أن أسأله، وعزمت على ذلك، فتقدمت إليه وقلت: أيها الشيخ، متى

يعلم المريد أنه مريد؟ فأعرض عني كالأولى ولم يجاوبني، فقمت، وعدت في الثالثة فسألته عن المسألة بعينها، فاجتمع وقال: لا تقل هكذا، أظنك تريد أن تسأل عن أول قدم يضعه المريد في الإرادة؟ فقلت: نعم، قال لي: إذا اجتمع فيه أربع خصال:

إحداها: أن تطوى له الأرض وتكون عنده كقدم واحد، وأن يمشي على الماء، وأن يأكل من الكون متى أراد، وأن لا ترد له دعوة. فعند ذلك يضع أوّل قدمه في الإرادة، وأما متى ما علم المريد عندنا أنه مريد سقط من حدّ الإرادة. قال الشيخ أبو العباس بن العريف رضي الله عنه: فصحت صيحة كادت نفسي تذهب معها، ثم قلت له: آيستنا من الإرادة يا أبا القاسم، وتعجّبت من علوّ همّة هذا الشيخ» انتهى.

واعلم أنه أول ما تخرق له من العادة تسميته باسم "المريد" مع كونه مسلوب الإرادة، وما أحسن ما قال الشاعر:

تكون مريدا ثم فيك إرادة ... إذا لم ترد شيئا فأنت مريد

والتحقيق في هذا: أن من تمحّضت إرادته لعبودية الله عز وجل بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك لا يتوصل به إلى نيل حظ ما: هو الذي يسمى مريدا، فلم يسم بذلك إلا لأنه متصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب ونهاية الآمال والمآرب، وذلك أمر وجودي يصح أن يشتق منه اسم لمن قام به ذلك الأمر، إلا أنه سمي بذلك لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه، لكن لمّا كان سلبُ إحداهما يقتضي وجود الأخرى كاقتضاء الواجب صحّ لذلك الشاعر

أن يطلق اسم الإرادة على من سلبت منه، ويحجزه عمن وجدت فيه رشاقة وملاحة ونعمة، وبهذا تبين لك صحة كلام أبي يزيد، واستقامته حين قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد أن لا أريد. وأنه ليس بمختل، ولا متناقض كما توهّم بعضهم.

قال في "التنوير": واعلم أنه قال بعضهم: إن أبا يزيد لمّا أراد أن لا يريد فقد أراد، وهذا قول من لا معرفة عنده، وذلك: أن أبا يزيد إنما أراد أن لا يريد، لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه، فهو لا يختاره معه شيئا ولا يريده، فهو في إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله له.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: «فكل مختارات الشرع وترتيباته هو مختار لله، ليس له منه شيء، فاسمع وأطع، وهذا موضع الفقه الرباني والعلم اللدنّي وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله».

قال: فأبان الشيخ بهذا الكلام إن كل مختار الشرع لا يناقض اختيار مقام العبودية المبني على ترك الاختيار، لئلا ينخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة بذلك، فيظن أن الوظائف والأوراد ورواتب السنن إرادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية، لأنه قد اختار. فبين الشيخ أن كل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شيء، وإنما أنت مخاطب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها لا عن تدبير الله تعالى ورسوله لك، فافهم.

قال: فقد علمت أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد، إلا لأن الله أراد منه ذلك، فلم تخرجه هذه الإرادة عن العبودية المقتضاة منه». انتهى.

وقد طال الكلام بنا في هذا المعنى حتى آل إلى بُعد المناسبة بينه وبين المسألة المنبّه عليها من الكتاب، والحديث شجون، يجرّ بعضه إلى بعض، لكن لمّا كان قصدنا في هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد في مواضعها ومظانها، لتقرع مسائل هذا الفن الغريب أسماع من أراد الله تعالى توفيقه ممن بينه وبينه بُعدُ المشرقين صح منا ذلك، وكنا سائرين فيها على أوضح المسالك، وبالله التوفيق.

١٣٠ . مَا الشَّأْنُ وُجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأَدَبِ.

إذا التزم العبد طلب حوائجه وحظوظه من مولاه، ولم يطلب ذلك من غيره، فلا يظن أنه وفّى بما يجب عليه من حق الربوبية، فليس ذلك بالشأن المعتبر عند المحققين، وإنما الشأن أن يتأدب العبد بين يدي مولاه أدبا حسنا بأن يفوّض أمره إليه، ويرضى بما قسم له، ولا يطلب منه ما ليس له، كما سيقوله المؤلف رحمه الله بعد هذا، ويطلب عبودية له، لا لقصد نيل حظه، فبهذين الوجهين يحسن أدبه، ويصحّ سؤاله وطلبه، وذلك هو الوفاء على التحقيق.

١٣١ . مَا طُلِبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرَارِ، وَلاَ أَسْرَعَ بِالمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ وَالافْتِقَار.

اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجلّ منه.

قال أبو محمد عبد الله بن منازل رضي الله عنه: «العبودية الرجوع في كل شيء

إلى الله عز وجل على حد الاضطرار»، وفيه أيضا خاصية إجابة الدعاء، قال الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] والاضطرار مطلوب منه أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوة، ولا يرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، ويكون بمنزلة الغريق في البحر، أو الضال في التيه القفر، لا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه.

وقال بعض العارفين: «المضطر الذي يقف بين يدي مولاه، فيرفع يديه إليه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا فيقول: يا مولاي، هب لي بلا شيء».

والذلة والافتقار أمران لازمان له، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذلّتهم أوجبت لهم عزّتهم ونصرهم، كما قيل:

وإذا تذللت الرقاب تقرُّباً منها إليك فعزّها في ذلها

وقيل: حين أسلمتني إلى الذال واللام تلقيتني بعين وزاي.

قال في "لطائف المنن": «والجالب للتوفيق علامة صدق الرجعى إلى الله في أول كل فعل وترك تحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ من ذلك أبدا، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فلا تدخل جنة عملك وعلمك، وما أعطيت من نور وفتح

فتقول كما قال من خُذل فأخبر الله عنه بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥] ولكن ادخلها كما بين لك، وقل كما رضي لك: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] وافهم هاهنا قوله ﷺ: «لاَ حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ» وفي رواية أخرى: «كَنْزٌ مِنْ كُنُوزٍ تَحْتَ العَرْشِ» فالترجمة ظاهر الكنز، والمكنوز فيها صدق التبرّي من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله تعالى وقوته».

١٣٢ . لَوْ أَنَّكَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلاَّ بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا؛ وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بمحو صفات النفس، وقطع علاقات القلب، وشيء من ذلك لا يتصور من العبد من حيث هو، لأن ذلك طبعه وجبلته، ولو لم يكن إلا إرادته وعمله في تحصيل هذا الغرض بنفسه، فهما من جملة المساوئ والدعاوي المحتاج إلى محوها.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله». يعني: انقطاع أدب لا انقطاع ملل.

وقال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: «ولن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته، أو اختيار من اختياراته» فلو خلى الله تعالى عبده

وذلك لم يصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إليه تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية، ونعوته القدسية ما يغيب بذلك صفات عبده ونعوت عنه، ويكون ذلك علامة على محبته، كما أشار إليه بقوله في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» وعند ذلك لا تكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره له مولاه وأراده، فيكون حينئذ واصلا إلى الله بما مِنَ الله إليه من الفضل والكرم، لا بما من العبد إليه من الاجتهاد والعمل، فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء.

١٣٣ . لَوْلاَ جَمِيلُ سَتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ.

العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله وقوته عليه، وهذا لا محيص له عنه، إلا بما شاء ربه، وقد يكثف حجابه فيرائي به، ويطلب حمد الناس له، وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص الحقيقي، والإخلاص شرط في قبول العمل كما تقدم.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «مسكين ابن آدم، جسم معيب، وقلب معيب، يريد أن يخرج من معيبين عملا بلا عيب»، فعمل العبد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجود القبول لولا جميل ستر الله تعالى وعظيم حلمه وبرّه.

فليعتمد المريد على فضل الله تعالى وكرمه، لا على اجتهاده وعمله.

قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم، وإذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرّؤوا عن كل شيء ومن كل شيء لهم ومنهم».

١٣٤ . أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ.

شرف العبد ورفعة قدره إنما تكون بنظره إلى ربه عز وجل، وإقباله عليه، وسكونه إليه، واعتماده عليه. ودناءته وخسته، وسقوطه من عين الله تعالى إنما تكون بنظره إلى نفسه، وإقباله على غيره، واستناده إلى سواه. فالعبد عند عمله بالطاعة معرّض لهذه الأخطار من نظره إلى نفسه، واستعظام عمله، وعجبه بطاعته، وسكونه إلى معاملته، وليته يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنّع، بخلاف المعصية في جميع هذه الأشياء، فإنها تحمله على الحذر، والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه.

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لعبادي الصديقين: لا تغتروا، فإني إن أقمت عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي الخاطئين: لا تيأسوا من رحمتي، فإني لا يكبر علي ذنب أغفره**».

ولهذا المعنى قال أبو زيد رضي الله عنه: «توبة المعصية واحدة، وتوبة الطاعة ألف توبة».

١٣٥ . السّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سِتْرٌ عَنِ المَعْصِيَةِ، وَسِتْرٌ فِيهَا، فَالعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ تَعَالَى السَّتْرَ فِيهَا؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الخَلْقِ، وَالخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السَّتْرَ عَنْهَا؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ.

العامة يغلب عليهم شهود الخلق، والتصنع والتزين لهم، ومحبة حمدهم، وكراهية ذمّهم، فهم يعملون المعصية ويستخفون بها، ويطلبون الستر من الله عليهم فيها، أي: في حال كونهم عاملين بها، لئلا يراهم الخلق فيسقطوا من أعينهم، وفي أمثالهم قال الله عز وجل: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨].

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في هذه الآية: «الغالب على قلوبهم رؤية الخلق، ولا يشعرون أن الحق مطّلع عليهم، أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة».

روى عدي بن حاتم ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يُؤْمَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى الجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا ونظروا إليها وَاسْتَنْشَقُوا رِيحَهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا: أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا، فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الأَوَّلُونَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا قَالَ: ذَلكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالعَظَائِمِ، فَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاؤونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ، هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي، وَأَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي، وَرَكَنْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَرْكَنُوا لِي، فَاليَوْمَ أُذِيقُكُمْ أَلِيمَ العَذَابِ مَعَ مَا حَرَمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ**».

وفي بعض الكتب المنزلة: إن لم تعلموا أني أراكم فالخلل في إيمانكم، وإن علمتم أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]: هو الرجل تمر به المرأة في القوم فيريهم أنه يغضّ بصره عنها، ويودّ أنه يطّلع على عورتها ويقدر عليها.

وقال في رواية أخرى: «هو الرجل يكون في القوم فتمرّ بهم المرأة فيريهم أنه يغضّ بصره عنها، فإذا رأى من القوم غفلة لحظ إليها ونظر، فإذا خاف أن يفطنوا غضّ بصره عنها، فقد اطلع الله عز وجل على قلبه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها».

وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار، ويهابون الناس أن يطّلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار.

والخاصة من أهل الإيمان واليقين براء من هذا الوصف الذميم، لا التفات لهم إلى الخلق مدحا ولا ذما، وهمتهم مصروفة عن النظر إليهم والاعتماد عليهم في نفع أو دفع ضرّ، وحالهم إنما هو القناعة بعلم الله تعالى، ومراقبة نظره، فهم يطلبون الستر من الله عنها في أن يغيّبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها، فيقعون في مخالفة ربّهم والتعرّض لسخطه والسقوط من عينه، وشتان ما بين الحالين.

وإلى هذا المعنى أشار سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في دعائه بقوله:

«اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذكّرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها، ومن التفكر في طرائقها، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها، واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدّها».

١٣٦ . مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ، فَالحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ.

العبد محل الآفات والعيوب، وستر الله الجميل هو الذي يحبب الناس إلى الناس، فإذا أكرمك أحد فلا يذهبن ذلك بك إلى أن ترى لنفسك وصفا محمودا تستحق به الإكرام، فتكون جاهلا بنفسك، ولا يحملنّك أيضا رؤية إكرام الخلق لك، لوجود جهلهم بحالك، على أن تحمدهم عليه دون ربك الذي اضطرهم إلى إكرامك، وستر عنهم عيوبك، وأظهر لهم محاسنك، فتكون بذلك كافرا بنعمة ربك ظالما بوضع الحمد في غير موضعه.

١٣٧ . لاَ تَصْحَبْ إِلاَّ مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلاَّ مَوْلاَكَ الكَرِيمُ. خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ، لاَ لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْه.

الصاحب على الحقيقة هو: من بذل إحسانه إليك، وأسبغ نعمه عليك، ولم يمنعه من ذلك ما يعلمه من عيوبك التي يكرهها منك، وليس ذلك إلا مولاك.

وخير صاحب لك أيضا من اعتنى بك وآثرك وأرادك من غير منفعة ينالها منك، وليس ذلك أيضا إلا مولاك فاتخذه صاحبا، ودع الناس جانبا.

١٣٨ . لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ اليَقِينِ لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَنَاءِ عَلَيْهَا.

نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه فيحق به الحق ويبطل به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها، فحقّ بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادةَ في الدنيا والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها.

ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ النُّورُ إِذَا دَخَلَ القَلْبَ انْشَرَحَ له الصَّدْر وَانْفَتَحَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عِلامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالإِنَابَةِ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**» أو كما قال ﷺ، وعند ذلك تموت شهواته، وتذهب دواعي نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهي، ولا يكون همّه إلا المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إلى اغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل وفوات صالح العمل.

وإلى هذا المعنى الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ ﵄: روى أنس بن مالك ﵁ قال:

بينا رسول الله ﷺ يمشي إذا استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟» فَقَالَ أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِالله حَقًّا، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لَيلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، فَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوونَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْصَرْتَ فَالزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ تَعَالَى الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ تَعَالَى لِي بِالشَّهَادَةِ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَنُودِيَ يَوْمًا فِي الخَيْلِ: يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي، فَكَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ، وَأَوَّلَ فَارِسٍ اسْتُشْهِدَ، فَبَلَغَ أُمَّهُ ذَلِكَ، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ ابْنِي حَارِثَةَ، فَإِنْ يَكُ فِي الجَنَّةِ فَلَنْ أَبْكِيَ، وَلَنْ أَجْزَعَ، وَإِنْ يَكُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ بَكَيْتُ مَا عِشْتُ فِي الدُّنْيَا قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ، وَلَكِنَّهَا جَنَّةٌ فِي جَنَّاتٍ، وَحَارِثَةُ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى»، فَرَجَعَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ، وَتَقُولُ: بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا حَارِثَةُ».

وروى أنس أيضا: أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال له «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ بِالله مُؤْمِنًا، قَالَ النَبِي ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ مِصْدَاقًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ، فَمَا مِصْدَاقُ مَا تَقُولُ؟»، قَالَ: يَا نَبِيَّ الله، مَا أَصْبَحْتُ صَبَاحًا قَطُّ إِلا ظَنَنْتُ أَنْ لاَ أُمْسِي، وَمَا أَمْسَيْتُ مَسَاءً قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ ألاَّ أُصْبِحُ، وَلا خَطَوْتُ خُطْوَةً إِلا ظَنَنْتُ أَن لاَ أُتْبِعُهَا أُخْرَى، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا مَعَهَا نَبِيُّهَا وَأَوْثَانُهَا الَّتِي كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الله، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عُقُوبَةِ أَهْلِ النَّارِ وَثَوَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ. قَالَ ﷺ: «عَرَفْتَ فَالزَمْ».

فهذان الرجلان الفاضلان: حارثة بن سراقة ومعاذ بن جبل الأنصاريان ﭬ، لمّا أشرف عليهما نور اليقين وتمكّن من قلبيهما أيّ تمكين صدر منهما ما صدر مما ذكراه من فنون العبر، وشاهدا أمر الدارين بمنزلة رأي العين، فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات، وحفظا من الهفوات والسيئات، وطهرت منهما الأسرار والقلوب، وسارعا في كل أمر محبوب، وطارت أرواحهما اشتياقا إلى لقاء الواحد الفرد، وطابت أنفسهما بالموت حتى صار عندهما أحلى من الشهد، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، وكذلك غيرهما من الصحابة وكبار التابعين وأئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين:

ولقد أجاب معبّر عن حالهم فاسمع مقالا صادقا مقبولا

إن الألى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلا معسولا

وروى أنس بن مالك ﭬ أن حرام بن ملحان ﭬ وهو خال أنس، طعن يوم بئر معونة في رأسه فتلقى دمه بكفه، ثم نضحه على رأسه ووجهه، وقال: فزت ورب الكعبة.

وكان حيان بن سلمى فيمن حضر بئر معونة مع عامر بن الطفيل، ثم أسلم بعد ذلك، فكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلا منهم فسمعته يقول: فزت والله، فقلت في نفسي: والله ما فاز، أليس قتلته؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله: فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله. والمطعون ها هنا والله أعلم هو: عامر ابن فهيرة.

وقال رسول الله ﷺ في شأن الأمراء الثلاثة يوم مؤتة أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح الله عليه، أظنه قال ﷺ: «**والله ما يسرنا أنهم عندنا**» أو «**ما يسرهم أنهم عندنا**»، وعيناه تذرفان دموعا، فللّه درهم، لقد حازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة، وتبًا لأمثالنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم، فحجبت عنا شموس المعارف، وأوقعتنا في أودية المهالك والمتالف واغتررنا بهذه الدار الغرّارة، الفتانة السحارة، فتشبثت مخالبنا بشباكها، وارتبكنا في مصائدها وأشراكها، من غير شعور منا بحالها، وتزوير محالها، فكنا في قصدنا إليها وتعويلنا عليها، بمنزلة ظمآن لاح له سراب حسبه ماء، فلما جاءه لم يجد فيه هناء ولا غناء، ثم مع هذا كله ينتسب إلى الدين، ويدعي كمال المعرفة واليقين، والدخول في بحار أولياء الله المتقين، مع أن أحدنا لو خيّر بين حلول الحين، أو البقاء في الدنيا معلقا بأشفار العين، لاختار البقاء فيها على هذه الحال، مع كونه لا يحدث نفسه في طاعة بازدياد، ولا عن معصية بانتقال، وهذه كلها أخلاق يهودية، لا تليق بمن ينتسب إلى هذه الملة المحمدية.

قال الله عز وجل مخبرا عن حال اليهود، وكاشفا لأسرارهم، وهاتكا لأستارهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦] فلو لم ينه العاقل عن محبته البقاء في هذه الدار، ويأمره بإيثار دار القرار إلا تشبهه باليهود

الناقضين للعهود، المتهاونين بأوامر المعبود، لكان ذلك أبلغ ناه وآمر، فضلا عما ورد في ذلك من مواعظ وزواجر، نزع الله عن قلوبنا حجاب الغفلة والغرور، وحمانا عن مشابهة كل ظلوم وكفور، وحبّب إلينا لقاءه، ورزقنا ما رزق أولياءه وأصفياءه وأحباءه، بمنه وكرمه.

١٣٩ . مَا حَجَبَكَ عَنِ اللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ.

تقدم: أن لا موجود سوى الله تعالى على التحقيق، وإن وجود ما سواه إنما هو وهم مجرّد، فلا حاجب لك من الله تعالى إلا توهّم وجود ما سواه لا غير، والتوهمات باطلة، فلا حاجب لك عن الله تعالى إذن.

وقد استوفى المؤلف رحمه الله تعالى ذكر جميع أنواع الاعتبارات في هذا المعنى قبل هذا.

قال في "لطائف المنن": «وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال، والظلّ لا موجود، باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر، لأن الشيء إنما يشفع بمثله، ويضم إلى شكله، كذلك أيضا من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله تعالى، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار.

ومن هاهنا يتبين لك أيضا أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله، ولو كان

بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه، ولا شيء أقرب إليك من الله، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه، وذلك كرجل بات في مكان وأراد البزار فسمع صوت الرياح من كوّة هناك، فظنّه زئير أسد فمنعه ذلك عن البزار، فلما أصبح لم يجد هناك أسدا، وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوّة، فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهّم الأسد.

١٤٠ . لَوْلاَ ظُهُورُهُ فِي الْمُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ أَبْصَارٍ؛ لَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ.

ظهور الحق تعالى من وراء حجاب المكوّنات هو الذي أوجب ظهورها ووقوع الأبصار عليها، ولولا وجود حجابيتها لم يقع عليها أبصار، ولتلاشت، لوجود التجلي الحقيقي كما قال: «لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته»، بل لم يكن هناك بصر ولا إبصار ولا مبصر، كما جاء في الحديث: «**حِجَابُهُ النَّار** -وفي رواية: **النُّورُ**- **لَوْ كَشَفَ عَنْهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ**».

١٤١ . أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لأَنَّهُ البَاطِنُ، وَطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لأَنَّهُ الظَّاهِرُ.

من أسمائه تعالى: الظاهر، والباطن، فاسمه الظاهر يقتضي بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه، فينطوي حينئذ وجود كل شيء، واسمه الباطن يقتضي ظهور كل شيء، حتى لا باطن معه، فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء، فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار والحمد لله.

١٤٢ . أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكَوَّنَاتِ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمُكَوَّنَاتِ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبقوله: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ الإِفْهَامِ وَلَمْ يَقُلْ: انْظُرُوا السَّمَاوَاتِ؛ لِئَلاَّ يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ الأَجْرَامِ.

أمر الله تعالى بالنظر في المكونات ليس لذاتها، لأن في ذلك البعد عن الله تعالى بالنظر إلى ما سواه، ولم يبح هذا، وإنما أمرهم بذلك ليتوصّلوا بنظرهم فيها إليه، لوجود ظهوره فيها، والإشارة إلى هذا المعنى بـ "في" في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالمعنى المقصود: في وجود الظرفية، ومنها يستفاد، وهو معنى قوله: «فَتَحَ لَكَ بَابَ الإِفْهَامِ»، فلو أسقطها وقال: انظروا السماوات، لكان فيه دلالة على وجود الأجرام، وهي أغيار له، وفيها البعد عنه، فكيف يدل على ذلك وهو لم يأذن فيه؟!

قال في "لطائف المنن": «فما نصبت لك الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها».

قال: ولنا في هذا المعنى:

ما أبينت لك العوالم إلا ... لتراها بعين من لا يراها
فارْقَ عنها رقي من ليس يرضى ... حالة دون أن يرى مولاها

١٤٣ . الأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِه.

الأكوان من ذاتها العدم المحض، كما تقدم، وإنما حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله تعالى لها، وجعلها أكوانا، فالثبوت لها أمر عرضي، والحق اللازم هو وجود أحدية الله عز وجل، والأحدية مبالغة في الوحدة، ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن يكون أشد ولا أكمل منها، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها، بحيث لا توجد، إذ لو وجدت لم تكن أحدية، ولكان في ذلك تعدد واثنينية، كما قيل:

ربٌّ وعبد ونفي وضدّ قلت له ليس ذاك عندي
فقال: ما عندكم؟ فقلنا وجود فقد وفقد وجدِ
توحيد حق بترك خلق وليس حق سواي وحدي

وأنشدوا أيضا:

سرٌّ سرى من جناب القدس أفناني لكن بذاك الفنا عني قد أحياني
وردني للبقاء حتى أعبر عن جمال حضرته لكل هيمان
وطرت في ملكوت من عجائبه لم ألق غير وجود ما له ثاني

وأنشد المؤلف رحمه الله تعالى لنفسه في "لطائف المنن" يوصي رجلا من إخوانه اسمه "حسن" فقال:

حسن بأن تدع الوجود بأسره حسن فلا يشغلك عنه شاغل

ولــئن فهمــت لــتعلمنّ بأنــه لا تــرك إلا للــذي هــو حاصــل
ومتـى شـهدت سـواه فـاعلم أنـه مـن وهمـك الأدنـى وقلبك ذاهـل
حســب الإلــه شــهوده لوجــوده والله يعلــم مــا يقــول القائــل
ولقد أشرت إلى الصريح من الهدى دلّــت عليــه إن فهمــت دلائــل
وحـديث كـان ولـيس شيء غـيره يقضــي بــه الآن اللبيــب العاقــل
لا غـــرو إلا نســـبة مثبوتـــة ليــذمّ ذو تــرك، ويحمــد فاعــل

١٤٤ . النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامًّا لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا.

ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه، لأن ذلك يؤديه إلى الحذر من غرورها وشرورها، فتصلح بسبب ذلك أعماله وتصدق أحواله، وإلا فسدت عليه واعتلت، لدخول الآفات عليها، ولا يصدنّه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له، لأنه يعلم من عيوب نفسه ما لا يعلمه غيره، ثم إنهم لّما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به، فينبغي أيضا أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها.

قال بعضهم: «من فرح بمدح نفسه، فقد أمكن الشيطان أن يدخل في بطنه»، وقال آخر: «إذا قيل لك نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل»، وقيل لبعض الصحابة رضي الله عنهم: «لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم، فغضب، وقال: إني لأحسبك عراقيا»، وقال

بعضهم لمّا مدح: «اللهم إنّ عبدك تقرب إليّ بمقتك فأشهدك على مقته»، وقال آخر: «اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون».

قال الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «وإنما كرهوا المدح، خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغّض إليهم مدح الخلائق، لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عند الله تعالى، الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله، إذ فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة، فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق، ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه». انتهى كلام أبي حامد رضي الله عنه.

١٤٥ . المُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لاَ يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

المؤمن الحقيقي هو الذي لا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يمدح أو يثنى عليه، وإنما يشهد ذلك من ربّه عز وجل، فإذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله تعالى استحياء تعظيم وإجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه فيزداد بذلك مقتا لنفسه واستحقارا لها ونفورا عنها، ويقوى عنده رؤية إحسان الله تعالى إليه، وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذي ينال به المزيد مع سلامته مع السكون إلى ثناء العبيد.

١٤٦ . أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ.

الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية في الجهل والغباوة، وذلك من علامات المقت، لأن المغتر بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به، وهو على كل حال أعلم بنفسه، وقد شبه الحارث المحاسبي رضي الله عنه الراضي بالمدح من الناس بالباطل بمن يُهزَأ به، ويقال له: إن العذِرة التي تخرج من جوفك لها رائحة المسك! وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به.

قلت: ولا شك أن الذنوب والعيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه، ولا فرق بين الحالين، إلا أنه في حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ للمستهزأ به في معرفة حال ما يخرج من جوفه، فهو بجهله وغباوته قد رضي بأن يكون له في قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاته بسقوطه من عين مولاه الذي يعلم من حاله ما لا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضي بالمدحة وفرح بها ولم يقابل ذلك بالإباء والكراهية، هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين، وأما إن كان جاهلا أو فاسقا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به.

قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: «تزكية الأشرار هجنة بك، وحبّهم لك عيب عليك».

وقيل لبعض الحكماء: إن العامة يثنون عليك، فأظهر الوحشة من ذلك وقال:

لعلهم رأوا مني شيئا أعجبهم، ولا خير في شيء يسرّهم ويعجبهم.

ويروى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام، فبكى، فقال له تلميذه: أتبكي وقد مدحك؟ فقال له: «إنه لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه، فلذلك بكيت». فانظر هذا، فقد نبهك هذا الحكيم على العلة في ذلك.

١٤٧ . إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

المؤمن هو الذي لا يرى نفسه أهلا لأن يمدح أو يثنى عليه، لأن موجبات ذلك ليس له منها شيء، كما تقدم.

فإذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليه، ولا أهلية فيه لذلك، فينبغي أن يعرف الحق لأهله فيستعمل نفسه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله، ليكون ذلك شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية.

١٤٨ . الزُّهَّادُ إِذَا مُدِحُوا انْقَبَضُوا؛ لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الخَلْقِ، وَالعَارِفُونَ إِذَا مُدِحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ.

تقدم أن الزهاد في غيبة عن الله تعالى، فهم لا يشاهدون إلا الخلق، فإذا مدحوا وأثني عليهم شهدوا ذلك من الخلق فانقبضوا عند ذلك لأنهم يخافون فوات نصيبهم من ربّهم لأجل ما يتوقعون من الاغترار بذلك. والعارفون حاضرون مع ربهم، فهم لا يشاهدون معه غيره فإذا مدحوا شهدوا الثناء من ربّهم فانبسطوا لذلك، وكان ذلك مزيدا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم. كان بعضهم

يمدح وهو ساكت، فقيل له في ذلك، فقال: وما عليّ من ذلك ولست أغلط في نفسي، بل لست في البين والمجزي والمثني هو الله عز وجل. وقيل هذا المعنى في الخبر المروي: «**إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ فِي وَجْهِهِ رَبَا الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ**».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الإيمان العلي إلى المولى الأعلى، فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه إلى سيده الذي تولاه، فيرد الصنعة إلى صانعها، ويشهد من الفطرة فاطرها، فيكون ذلك مدحا للصانع، ووصفا للفاطر لا ينظر إلى وصفه، ولا يعجب بنفسه» انتهى.

قلت: وللمؤلف رحمه الله تعالى قصائد في مدح شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه وكان ينشدها كثيرا بين يديه ويقع ذلك منه موقعا عظيما، وكان يستعيد منه بعضها، ويقول له في بعضها: أيّدك الله بروح القدس، نحو ما كان يقول رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت مع أن حبّ المدح عندهم من الرذائل التي تشبه الفضائل، وبهذا النظر والشهود الجمعي استقام لهم من مدحهم لأنفسهم وثنائهم عليها ما لم يستقم لغيرهم، كما وقع لجماعة منهم. وقد روي في ذلك عن سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وسيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنهم، وغيرهم غير شيء من أن ذلك معدود عندهم من الصدق القبيح، وما ذلك إلا لما ذكرناه، ولا يتأول ما وقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف عليه الصلاة والسلام لنفسه وثناءه عليها بغاية الحفظ والعلم لعدم الحاجة إليه في هذا المقام، والله تعالى أعلم.

وعلامة الصادق في حب المدح، وإن كان صاحب هذا المقام لا يحتاج إلى علامة، أن لا يكره ذمّ الناس له من حيث نسبة ذلك إليهم، لأنهم مصروفون في قبضة القدرة فيسمح لهم ويصفح عنهم، ولا يجد في قلبه عليهم، ولا يصل بشيء من الأذى إليهم كما قيل:

ربّ رام لي بأحجار الأذى　　لم أجد بدًا من العطف عليه

فعسى يطلع الله على　　فرح القوم فيدنيني إليه

١٤٩ . مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ العَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المَنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين، فمن وجد ذلك فليعرف به عدم صدقه في عبوديته، وأنه طفيلي بين أهل الله تعالى في ادّعائه مقاماتهم، وهو لم يؤهّل لها.

والطفيلي: هو الذي يأتي الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير دعوة، وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان كان يقال له "طفيل الأعراس" و"طفيل العرائس" وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، فشبّه صاحب الكتاب هذا به.

قال الشيخ عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه: «أكثر الخلق مع الله تعالى في أحوالهم وإراداتهم على الظنون ما تحقق منهم له إلا القليل، ألا تراه تعالى يقول:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] فمن تحقق في حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الأحوال والأقوال والأفعال، نظرا إلى ما إليه من رعاية الحق وحياطته وتولّيه، وكان للحق من حيث الحق له، لا من حيث هو للحق.

ولكن أكثر العبيد يشيرون إليه بالمعرفة، ويظهرون حالة المحبّة، فإذا ورد عليهم وارد بلاء أو خلاف مراد رجعت نفوسهم إلى حدّ الإشفاق عليها والاهتمام بها، ونسوا ما ادّعوا به وما أشاروا إليه، ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق لنسوا في جنب ما أشار إليه جميع الموارد ساء أم سرّ، لأن من حصل في ميدان الوصول لا يعترض عليه عارض خلافه، وأذهله حاله عما سواه».

١٥٠ . إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلاَ يَكُنْ سَبَبًا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ.

الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك، وإنما يناقضها الإصرار عليه، فإذا وقع من العبد ذنب فينبغي له أن يبادر إلى التوبة منه، ولا ييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربّه، ويرى أنه طرده وأبعده عن رؤية توجب له القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روح الله تعالى، لأنه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدّر عليه، وقد وقع ذلك وفرغ منه.

١٥١ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين، فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد ما من الله له من الفضل والكرم والإسعاف والألطاف فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء.

ومن أراد أن يفتح له باب الخوف، فليشهد ما منه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف.

١٥٢ . رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ القَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ البَسْطِ ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

تقدم أن القبض يؤثره العارفون على البسط، لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد ينفتح لهم فيه من أبواب المعارف ما لا ينفتح لهم في البسط، فينبغي للعبد أن يعرف نعمة الله تعالى عليه في ليل القبض، كما يعرفها في إشراق نهار البسط، لِما يعلم أن في الليل من المنافع ما ليس في النهار، فلْيكِل علم ذلك إلى ربّه وليحسن ظنّه به، فإنه لا يدري أيهما أقرب إليه نفعا، كما أشار إليه بالآية الكريمة، وتشبيه القبض بالليل والبسط بالنهار مجاز بديع، وقد تقدم نحوه في كلام الأستاذ سيدي أبي الحسن رضي الله عنه.

١٥٣ . مَطَالِعُ الأَنْوَارِ القُلُوبُ وَالأَسْرَارُ.

نجوم العلم، وأقمار المعرفة، وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم، وهذه هي الأنوار الحقيقية من المطالع الروحانية بخلاف الأنوار الحسيّة.

قال في "لطائف المنن": «واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولّى وليّا صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: «إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرس السماء بالكواكب والشّهب كيلا يسترق السمع منها فقلب المؤمن أولى بذلك، يقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «**لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن** » فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلا»، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع».

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: «لو كشف عن حقيقة الولي لعبد، لأن أوصافه من أوصافه، ونعوته من نعوته».

قال: ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخي صلاة فشهدت ما بهر عقلي، وذلك أني شهدت بدن الشيخ وقد ملأته الأنوار، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أني لم أستطع النظر إليه.

قال: فلو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من مشرقات أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أولياء الله تعالى لا كسوف لها ولا غروب، كذلك قال قائلهم:

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْـ ـلِ وَشَمْسُ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

١٥٤ . نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي القُلُوبِ مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الغُيُوبِ.

نور اليقين المستودع في القلوب يستمد ويتزايد ضياؤه من النور الوارد من خزائن الغيوب، وهو نور الأوصاف الأزلية، كما ذكرناه عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه قبل هذا، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: (أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ).

١٥٥ . نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ.

النور المدرك بالحواس يكشف لك به عن آثاره، وهي الأكوان المحدثة، وليس لك إلى ذلك كبير حاجة إلا من حيث تستدل به على المؤثر.

والنور المستودع في القلوب يكشف لك به عن أوصافه الأزلية حتى تراها عيانا، وفي هذا غاية بغيتك وبه شرف قدرك ومنزلتك، إذ بذلك تتحقق في المعرفة، وترتفع في المشاهدة، ولا تحتاج إلى دليل يدلك.

وهذا فرقان ما بين النورين، قال في "لطائف المنن": «نور الشمس تشهد به الآثار، ونور اليقين تشهد به المؤثر».

قال: ولنا في هذا المعنى:

هــذه الشــمس قابلتنــا بنــور ولشــمس اليقــين أبهــر نــورا

فرأينــا بهــذه النــور، لكــن بهاتيــك قــد رأينــا المنــيرا

١٥٦. رُبَّمَا وَقَفَتِ القُلُوبُ مَعَ الأَنْوَارِ كَمَا حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكَثَائِفِ الأَغْيَارِ.

القلوب نورانية، فتحتجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف.

والنفوس ظلمانية، فتحتجب بمحبّتها لكثائف الأغيار الظلمانية من العادات والشهوات.

فالقلوب محجوبة بالأنوار، كما أن النفوس محجوبة بالظلمات، والحق وراء ذلك كله.

قال أبو الحسن الششتري في قصيدته:

تقيــدت للأوهــام لمــا تــداخلت عليك ونور العقل أورثك السجنا

وهمــت بــأنوار فهمنــا أصــولها ومنبعهــا مــن أيــن كــان فــما همنــا

وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما تبعد من أظلام نفس حوت ضغنا

١٥٧. سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظَّوَاهِرِ؛ إِجْلاَلاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الإِظْهَارِ وَأَنْ يُنَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الاشْتِهَار.

أنوار السرائر إنما خفيت عن العيان بما سترها به من كثائف الظواهر، مع أن

الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها، لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر، فأجلّها عن الابتذال لها بوجود إظهارها.

وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار، فيكون ذلك نوعا من الإهانة بها.

وقد تقدم مثل هذا الستر في قوله: (سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ البَشَرِيَّةِ).

١٥٨. سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلاَّ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلاَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ.

لا دليل على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره، وكذلك أولياؤه. ولّما كان الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعناية والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه، كذلك لّما خلع عليهم الخلع العظيمة، وتولاّهم بمننه الجسيمة، فاصطفاهم لنفسه، واختصّهم بمحبته وأنسه، وطهّر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار، فكانوا لذلك صفوته في عباده، وخباياه في بلاده، كما قال في بعض الإشارات عنه سبحانه: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم أحد غيري**» وهذا من غيرته عليهم، لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم، فلم يجعل لأحد دليلا عليهم إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصّل إليهم إلا من أراد أن

يوصله إليه، لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويظهرهم بما يحقّرهم في أعين الخواص والعوام، فلم يكن لأحد دليل عليهم أو وصول بسبب إليهم.

قال في "لطائف المنن": «فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم».

قال: وقد سمعته يقول -يعني شيخه أبا العباس المرسي رضي الله عنه-: «معرفة الوليّ أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟»، ثم قال: «وإذا أراد الله أن يعرّفك بوليّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته».

وقال صاحب كتاب "أنوار القلوب": «لله سبحانه وتعالى عباد ضنّ بهم على العامة وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شكل مثلهم، أو محب لهم، ولله تعالى عباد ضنّ بهم على الخاصة والعامة، وعباد أظهرهم للخاصة والعامة، ولله تعالى عباد يظهرهم في البداية ويسترهم في النهاية، ولله عباد يظهرهم في النهاية ويسترهم في البداية، ولله عباد لا يظهر على حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة مما سواه حتى يلقونه بما أودعهم منه في قلوبهم وهم "شهداء الملكوت الأعلى والصفح الأيمن من العرش" الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل»، انتهى.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: «أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان

محرما لهم، وأما غيرهم فلا، وهم المخدرون عنده في حجال الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة».

وقال أبو علي الجوزجاني رضي الله عنه: «الوليّ هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق، تولّى الله سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوار التولي، لم يكن له عن نفسه إخبار، ولا مع غير الله عز وجل قرار».

وفي الإشارات عن الله سبحانه وتعالى: «**إنما سميت الولي وليا، لأنه يليني دون ما سواي**»، فهم منزهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل إليهم بغيره، ولذلك صدّر المؤلف كلامه بالتسبيح.

١٥٩. رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ العِبَادِ.

من لطف الله تعالى إخفاء أسرار الناس بعضهم عن بعض، لاسيما سر يقتضي وجود عيب، وهو ظاهر ما ذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذي عقّبه به، وقد يظهر لبعض الناس ما سوى ذلك من الأسرار الملكوتية، ووجه الفرق بينهما ما ذكره المؤلف الآن، ويحتمل أن يريد ما هو أعم مما ذكرناه، ويدخل في ذلك أسرار الولاية إذا اختص الله بها بعض عباده، ويكون في ذلك تنبيه على العلّة الموجبة لخفاء الولي حسبما ذكره المؤلف في المسألة التي فرغنا منها حتى يمتنع الوصول إليه بطلب أو سبب، وإخفاء ذلك أيضا عن عامة المؤمنين من النعم العظيمة، إذ لو ظهرت

أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقا لا يقدر على القيام بها، فإن فرّط في ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأسا وقع بسبب ذلك في محذورات لا يقوم لها شيء.

وقد فهمت هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله، وقد سأله بعض تلاميذه: كيف تعرف أولياء الله تعالى؟ فقال: «إن الله تعالى لا يعرّفهم إلا لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم، ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم، ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر، ومن قعد عنهم خرج، ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم، رحمة منه لخلقه ورأفة، ولكن الله تعالى قد أخبر بكرامتهم فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] فأفردهم به، ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان في النظر إليهم حجة، وكان الاستماع لحديثهم فرضا» انتهى.

والمعنى الذي ذكرته في هذه المسألة فهمته من الكلام الذي ذكره الشيخ أبو طالب رضي الله عنه في كتاب "الشكر" قال فيه: «ثم بعد ذلك من لطائف المنعم شمول ستره لهم، بعضهم من بعض، ونشرهم عند العلماء والصالحين منهم، ولولا ذلك لما نظروا إليهم، ثم حجب الصالحين عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من دلالة الله تعالى لهم، وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولحرم قبول إحسانهم عليهم، ولحبطت أعمال المسيئين إليهم، ففي

حجب ذلك وستره ما يحمل العاملين في الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله عز وجل وجليل قدرهم، ففي ستر هذا نعم عظيمة على الصالحين في نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم، ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله من أجلهم، إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطف خفيّ من لطف المنعم الوهاب، كما جاء في الخبر: «**مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ثُمَّ أَنَا الثَّائِرُ لِوَلِيِّ**».

فقد يكون مثل ذلك: من آذى نبيا، وهو لا يعلم بنبوته قبل أن يخبر أنه رسول الله، وأن الله عز وجل نبّأه، فلا يكون وزر من انتهك حرمة من كان أعلمه أنه نبي لله عز وجل لعظم حرمة النبي»، انتهى ما ذكره الشيخ أبو طالب، والوجه الأول أولى في تقرير معنى ما ذكره المؤلف، والله تعالى أعلم.

١٦٠. مَنِ اطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ العِبَادِ وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ كَانَ اطِّلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَسَبَبًا لِجَرِّ الوَبَالِ إِلَيْهِ.

المطلّع على السرائر التي تقتضي وجود العيب إذا لم يتخلّق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين، فإنه يكون ذلك الإطلاع فتنة عليه، لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بعمله والتكبر على غيره، وهذا هو أعظم

الفتنة، ويكون ذلك سببا إلى جرّ الوبال إليه، من ادعائه لصفات ربّه، ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال، وغاية الخزي والنكال.

وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ**».

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**».

وفي الإشارات عن الله تعالى أنه قال: «**عبدي، إن استخلفتك شققت لك من الرحمة شقّا فكنت أرحم بالمرء من نفسه**».

وقد أدب الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام في بعض مواطنه العظيمة المقدار، وعلّمه كيف يتخلّق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الأسرار.

روي عن قسامة بن زهير رضي الله عنه أنه قال: «بلغني أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق، قال: فرفعه الله تعالى حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون، فقال: يا ربّ دمّرهم، فقال الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم، اهبط إلى الأرض فلعلهم يتوبون ويرجعون».

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لما أرى الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض أشرف على رجل مختلي بمعصية من معاصي الله عز وجل، فدعا الله عليه، فهلك، وكذلك آخر، وآخر، فهلكوا، فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدع**

على عبادي، فإنهم منّي على ثلاث خصال: إما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لي، وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت عنه، وإن شئت عاقبته».

وقيل: إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو المعنى الذي ظهر منه من غلطته على العصاة وقلّة رحمته لهم.

وقد ذكر في بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[الأنعام: ٧٥] فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب يفعل فاحشة، فقال: اللهم أهلكه، يأكل رزقك ويمشي على أرضك ويخالف أمرك؟ فأهلكه الله تعالى، فاطلع على آخر فقال: اللهم أهلكه، فنودي: كفّ عن عبادي رويدا رويدا فإني طالما رأيتهم عاصين، فلما هبط رأى في المنام ما ذكر الله تعالى عنه حيث يقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] فلما تشمّر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللهم هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحب الناس إليّ، فسمع قائلا يقول: أما تذكر الليلة التي سألت فيها إهلاك عبدي؟ أوَما تعلم أني رحيم بعبادي كما أنت شفيق بولدك، فإذا سألتني إهلاك عبدي أسألك ذبح ولدك واحدا بواحد، والبادي أظلم.

١٦١. حَظُّ النَّفْسِ فِي المَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِي، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاَجُهُ.

النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فهي لا تسعى إلا في

ذلك، ولو في عملها في الطاعات فضلا عن المعاصي، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا.

وقد تجد من النشاط واللذة في نوع من العبادة ما لا تجده في نوع آخر، وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه، وما ذاك إلا من أجل أن حظّها فيه أكثر من الآخرة، فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت بابا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها، فيشوشون ذلك عليها وينتقلون منه.

وقد حكي عن أبي محمد المرتعش رضي الله عنه أنه قال: «حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لي أن جميع ذلك كان مشوبا بحظي، وذلك أن والدتي سألتني يوما أن أستقي لها جرّة ماء، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجّات كانت بشوب وحظ من نفسي، إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حقّ في الشرع». فهذا ما يبين أن حظ النفس في الطاعة موجود، ولكنه خفي على العامل، فلذلك تعسر مداواته، لأنه يحتاج إلى دقّة فهم ونفوذ إدراك، فليتطلب بذلك آفات نفسه، ولطائف خدعها، وخفايا حظوظها، فيعمل على تصفية عمله من ذلك، فلا جرم إذ كان ذلك متعذرا يجب عليه اتهام نفسه، ومخالفتها في كل ما تدعو إليه كائنا ما كان.

قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضي الله عنه: «سمعت بعض مشايخي يقول عن أحمد بن أرقم البلخي قال: حدثتني نفسي بالخروج إلى اسبيجاب للغزو، فقلت:

سبحان الله، إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] وهذه تأمرني بالخير، لا يكون هذا أبدا، ولكنها استوحشت، فتريد لقاء الناس فتستروح به، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالبر والتعظيم والإكرام، فقلت لها: لا أسألك العمران ولا أنزل على معرفة، فأجابت، فأسأت ظنّي بها وقلت: والله أصدق قولا، فقلت لها: أقاتل العدوّ حاسرا فتكوني أوّل قتيل، فأجابت، وعدّ أشياء مما أرادها به، فأجابت إلى كل ذلك، فقلت: يا ربّ، نبهني لها، فإني لها متهم، ولقولك مصدق، فأُلهمتُ كأنها تقول لي: إنك تقتلني كل يوم مرات، بمخالفتك إياي ومنع شهواتي ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت فقُتلتُ كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال: استشهد أحمد، فيكون شرفا لي وذكرا في الناس، قال: فقعدت ولم أخرج ذلك العام».

فهكذا خدع النفس وغدرها، أعاذنا الله من شرّها، وسيأتي من كلام المؤلف: (إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلها على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا).

١٦٢. رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لاَ يَنْظُرُ الخَلْقُ إِلَيْكَ.

رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر، لا يحتاج إلى أمارة عليه، ورياؤه بعمله حيث لا يراه أحدٌ أمر خفي لا يعرف إلا بالأمارات والعلامات، بل هو أخفى من دبيب النمل. ومن أماراته: أن يلتمس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل والمجالس، ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه، وإذا قصّر أحدهم

في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد منه ذلك واستنكره، ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره، وإهانته وإهانة سواه، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم، فيتوعّدون من قصر في حقّهم بمعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثأرهم، فإذا وجد العبد هذه الأمارات من نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس.

وقد روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة للفقراء: ألم تكونوا يرخّص لكم في السعر؟ ألم تكونوا تبادَرون بالسلام؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج؟**» وفي الحديث الآخر: «**لا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم**».

وقال عبد الله بن المبارك: روى وهب بن منبه أن رجلا من العبّاد قال لأصحابه: إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحبّ أن يعظّم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال السائح: ما هذا؟ فقيل له: هذا الملك قد أتاك، فقال للغلام: ائتني بطعام، فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجرة، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا، فقال الملك أين صاحبكم؟ قالوا: هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير، فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذي صرّفك عنّي وأنت لي ذام.

ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار، وعدوّا أنفسهم بسببه من الأشرار، كما روي عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال: «من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ». وسمع مالك بن دينار رضي الله عنه امرأة وهي تقول: له يا مرائي، فقال لها: يا هذه، وجدت اسمي الذي أضلّه أهل البصرة.

ودخل رجل على داود الطائي رضي الله عنه فقال: ما حاجتك؟ قال: أريد زيارتك، فقال: أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي: من أنت لتزار؟ لا، والله. أمن العباد أنت؟ لا، والله. أمن الصالحين أنت؟ لا، والله. ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقا فلمّا كبرت صرت مرائيا. والله، للمرائي شرّ من الفاسق...، إلى غير هذا مما روي عنهم في هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الخفي والجلي إلا العارفون الموحدون، لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيّب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قِبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس، وبمرأى منهم.

ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق، وتوقّع منهم حصول المنافع ودفع المضارّ فهو مراء بعمله، وإن عبد الله تعالى في قنّة جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به. وقد تقدم من قول يوسف بن الحسين بن الرازي رضي الله عنه: «أعزّ شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

١٦٣. اسْتِشْـرَافُكَ أَنْ يَعْلَـمَ الخَلْـقُ بِخُصُوصِـيَّتِكَ دَلِيـلٌ عَـلَى عَـدَمِ صِـدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

الخصوصية هنا: ما اختص الله تعـالى بـه بعـض عبـاده مـن علـم نـافع، أو عمـل صالح، وصدق العبودية فيه: أن يقنع بعلم الله تعالى فيـه بحالـه، ولا يتطلـع إلى أن يعـرف بـذلك أحـد مـن الخلـق، فيشـغله حينئـذ الحيـاء مـن ربّـه والشـكر لـه عـن الاستشراف إلى معرفة الخلق بذلك، ويغار على حاله مـن رؤيـة الأغيـار لـه، ولهـذا فُضل عمل السرّ على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد في الخبر عن نبينا ﷺ.

وقال عيسى عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسـه، وليمسـح شفتيه، فإذا خـرج إلى النـاس رأوا أنـه لم يصـم، وإذا أعطـى أحـدكم فـليعط بيمينـه وليخفها عن شماله، وإذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه، فإن الله تعالى يقسـم الثناء كما يقسم الرزق».

وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق، فقال: كتمان الطاعة.

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: «من أحب أن يعرف بشـيء من الخـير ويذكر به، فقد أشرك في عبادته، لأن من عبد الله تعالى على المحبة لا يحـب أن يـرى خدمته سوى مخدومه».

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «كل من لم يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة».

وقال بعضهم: «ما أخلص أحد قطّ، إلا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يعرف».

وقال سهل بن عبد الله التستري: «من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل».

وقال أبو الخير الأقطع رضي الله عنه: «من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذّاب».

وقال بعضهم لمن استوصاه: «لا تحب أن تعرف، ولا تحب أن تعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف».

فعلى العبد إخفاء حاله جهدَه، وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده.

قال الحسن رضي الله عنه: «أدركت أقواما ما من أحد منهم يستطيع أن يسر شيئا من عمله إلا أسرّه، وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم، ولقد أدركت أقواما يأتي أحدهم الزور فيقوم فيصلي وما يشعر به الزور، ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سرًا فيكون علانية أبدا، ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره، ولقد أدركت أقواما يجتهدون في الدعاء وما يسمعهم أحد».

وقال محمد بن واسع رضي الله عنه: «أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خدّه من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خدّه ولا يشعر به

الذي إلى جنبه»، وفي رواية عنه: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم، فإن وقع منه إعلان وإظهار في وقت ما فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح باطلاع الناس على حاله، ولينكر ذلك على نفسه، وليكرهه، ولا يرضه منها، وليجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدة، فإن خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله، وغفل عن مجاهدة نفسه في حال ظهور ذلك منه، ولو في لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح في قلبه فيقع عند ذلك في الفتنة، فإن كان ضعيف الإرادة لم يسلم من الوقوع في الرياء الجلي والخفي، لأن سببه قد استتبّ له.

وإن كان قوي الإرادة وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون، فيفقد حينئذ الغيرة على الحال، وينحطّ بذلك من ذروة الكمال، ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكي هذه الطريقة كما تقدم عند قوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول)، فإن تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الإخبار بأعماله، والإظهار بمحاسن أحواله، بناء منه على نفي الغير وأداء لواجب حق الشكر.

كان بعض السلف يصبح فيقول: صليت البارحة كذا وكذا ركعة، وتلوت كذا وكذا سورة، فيقال له: أما تخشى الرياء؟ فيقول: ويحكم، وهل رأيتم من يرائي يفعل غيره. وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وأنتم تقولون: لا تحدّث.

فإن قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعاهم إلى الله تعالى، فأظهر أحواله وأعماله للإقتداء به، والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كله، وداخل في هذا المنزع الثاني، وعلانية هذا أفضل من سره، لأنه سلم من الآفات التي تعرّض لها غيره، وحصلت منه الفوائد التي تضمنها إظهاره وجهره، وقد جاء في الخبر: «**السِّرُّ أَفْضَلُ مِنَ العَلَانِيَةِ، وَالعَلَانِيَةُ أَفْضَلُ لِمَنْ أَرَادَ الِاقْتِدَاءَ**».

وهذا أرجح الوجوه عند العلماء في قوله ﷺ للرجل الذي سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله، «**لَكَ أَجْرَانِ، أَجْرُ السِّرِّ، وَأَجْرُ العَلَانِيَةِ**»، وقد فضّل ما ذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الإطالة، وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض. ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله، فلا جرم كان له الدرجات العلا عند الله تعالى، لأنه من أئمة المتقين لله، وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكره عقيب دعائهم بذلك فقال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥- ٧٦].

قال في "لطائف المنن": اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاغتناء بشهوده، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]،

فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال تحقيقا لفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكّن اليقين وأيدوا في الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء، وردّوا إلى وجود البقاء فهناك إن شاء الحق أظهرهم وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله تعالى له، بل مطلبه -إن كان له مطلب- الخفاء لا الجلاء، كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاّهم في ذلك بتأييده، وواردات مزيده، لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «**لاَ تَطْلُبِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيْتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيْتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا**»، ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه».

١٦٤. غِبْ عن نَظَرَ الخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ الله إِلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ شُهُوْدِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ.

هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية العبد لله تعالى الذي أشار إليه في المسألة التي

قبل هذه، وهو أن لا يكون له شعور بما من الخلق إليه، من نظر وإقبال، ولا تشوّف إليه، ولا طلب له، وإنما يكون شعوره وتشوّفه وطلبه مقصورا على ما من الله إليه من نظره إليه وإقباله عليه، فيغيب أدنى الحالين بأعلاهما، وذلك بأن يعلم أن ما من الخلق إليه أمر وهميّ باطل ينقاد إليه كلّ ذي عقل قاصر يوجب له هذا الانقياد أنواعا من الكبائر والرذائل من الانحطاط في أهواء الناس، وتحسين موقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم، وتربية الجاه والحشمة لديهم، تكبّرا وتعظما عليهم، ومعاشرتهم بالنفاق والدهان وتخالف الإسرار والإعلان، وهذا عذاب أليم استعجله في دنياه، إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه، ويسلبه أثواب الغنى والعزّة ويلبسه لباس الطمع والذلة، فتردى بذلك همّته، وتقلّ قيمته، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: ٣٣] قال الشاعر:

من راقب الناس مات غـمّا وفـاز باللّـذة الجسـور

ورأى سهل بن عبد الله رضي الله عنه رجلا من الفقراء بمكة، فقال له شيئا، فقال: يا أستاذ، لا أقدر على هذا من أجل الناس، فالتفت سهل إلى أصحابه فقال: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا هو وخالقه، فإن أحدا لا يقدر أن يضرّه ولا ينفعه، أو يسقط نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه، اهـ.

ثم من له بحصول ما أراده منهم، وأغراضهم مختلفة، وطباعهم متباينة، فربما

استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره، وربما أرضى شخصا بما لا يرضي الآخر، فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضرّه عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب في نفسه.

وفي الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على هذا المعنى: ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا، وابنه يسوقه، فقال الناس حين رأوه: شيخ لم يشفق على صبيّ، فأركبه خلفه فقالوا: اثنان على حمار، هلاّ زادا ثالثا، فنزل لقمان وبقي الولد، فقالوا: شيخ ماش وصبي راكب، فنزل الولد يمشي مع والده، وساقا الحمار جميعا فقالوا: حمار فارغ وهذان يسوقانه.

وكان غرض لقمان بهذا أن يري ابنه شأن الناس مع من يراعي نظرهم، فإنه لا يسلم منهم على أي حالة يكون، فرضاء الناس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول، وسخفاء الأحلام، وأما من كان له عقل وافر، وحلم فاخر، فلا يميل إلا إلى ما هو حق، ووجوده صدق، وهو ما من الله إليه من: نظر، وإقبال، وجزيل عطاء، وعظيم نوال، فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذمّ ذام، أو عتب عاتب، ويقول بلسان حاله:

إن الذي تكرهون مني ‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍ هو الذي يشتهيه قلبي

ويقول أيضا ما قاله محمد بن أسلم رضي الله عنه: «ما لي ولهذا الخلق، كنت في

صلب أبي وحدي، ثم صرت في بطن أمي وحدي، ثم دخلت الدنيا وحدي، ثم تقبض روحي وحدي، فأدخل قبري وحدي، ويأتيني منكر ونكير فيسألاني وحدي، فإن صرت إلى خير صرت وحدي، وإن صرت إلى شرّ صرت وحدي، ثم أوقف بين يدي الله وحدي، ثم يوضع عملي وذنوبي في ميزاني وحدي، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدي، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي، فما لي وللناس!!».

وقد سئل الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه عن علامة الصادق فقال: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحبّ الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصادقين».

١٦٥. مَنْ عَرَفَ الحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

فلا يستوحش من شيء، ويستأنس به كل شيء، كما تقدم من نعت العارفين.

وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فلا يكون منه على الأشياء اعتماد، ولا له إليها استناد.

وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا.

من مراداته وشهواته.

وهذه الأمور التي ذكرها المؤلف رحمه الله، هي من علامات بلوغ هذه المقامات العلية، وبها تصح وتكمل، فمن لم يجدها في نفسه، فلا ينبغي له أن يدّعى تلك المقامات، وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها ويكمِّلها.

١٦٦. إِنَّمَا حَجَبَ الحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ.

شدّة القرب حجاب، كما أن شدّة البعد حجاب، لأن شدّة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك، والمضمحلّ الذاهب لا مناسبة بينه وبين الثابت الموجود، فكيف يراه؟ قال في "لطائف المنن": «فعظيم القرب هو الذي غيّب عنك شهود القرب».

قال الشيخ أبو الحسن: «حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشمّ رائحة المسك، فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزاد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه، وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموّه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم

١٦٧. إِنَّمَا احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ.

هذه عبارة تداولها الناس، وضربوا لمعناها مثلا بالشمس، وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة، وقوّة نورها هي التي حجبت الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها، فقد صار ظهورها الذي أوجبه وجود نورها حجابا لها،

وليس الحجاب على الحقيقة منها، فإن الظاهر لذاته لا يحجب من ذاته، وإنما الحجاب عليه من غيره.

والحجاب هاهنا: ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور، فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدّة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظم نوره، وأنشدوا في هذا المعنى:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف القمرا

ولكن بطنت بما أظهرت محتجبا   وكيف يعرف من بالعزّة استترا

وأنشدوا أيضا:

بالنور يظهر ما يرى من صورة   وبه وجود الكائنات بلا امترا

لكنه يخفى لفرط ظهوره   حسّا ويدركه البصير من الورى

فإذا نظرت بعين قلبك لم تجد   شيئا سواه على الذوات مصوّرا

وإذا طلبت حقيقة من غيره   فبذيل جهلك لا تزال معثرا

١٦٨. لاَ يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّبًا إِلَى العَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهَارِ العُبُودِيَّةِ وَقِيَامًا بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه، إلا ليظهر افتقارهم إليه، ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه، ليكون ذلك إظهارا لعبوديتهم، وقياما بحقوق ربوبيته، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوه، مما لهم فيه منفعة وحظ، هذا هو فهم العارفين عن الله، ويدل على هذا المعنى ما يذكره المؤلف

الآن. قال أبو نصر السرّاج: سألت بعض المشايخ عن الدعاء: ما وجهه لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: تدعو الله على وجهين:

أحدهما: تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء، لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة.

والوجه الثاني: أن تدعو ائتمارا لما أمر الله تعالى من الدعاء، انتهى.

وقد قيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

ومقتضى هذا أن لا ينقطع سؤاله ولا رغبته، وإن أعطاه كل ما طلبه، وأناله سؤاله وأربه، وأن لا يفرق بين العدم والوجود والمنع والإعطاء فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر، فيكون عبدا لله في الأحوال كلها، كما أن ربه واسع الفضل في الأحوال كلها، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: «لا يكن همّك بدعائك الظفر بقضاء حوائجك فتكون محجوبا، وليكن همّك مناجاة مولاك».

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «شرّ الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء، وشدّة التضرع والبكاء، فإذا زالت شكايته ورفعت عنه آفته، ضيّع الوفاء ونسي البلاء وقابل الرفد بنقض العهد، وأبدل العقد برفض الودّ، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم وخرطهم في سلك أهل

الردّ، وقد قيل: بلاء يلجئك إلى الانتصاب بين يدي معبودك خير من عطاء ينسيك إياه ويقصيك عنه».

١٦٩. كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللاَّحِقُ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

هذا دليل على نفي السببية المذكورة، لأن ما طلبه العبد أمر سابق في الأزل تقديره، وطلبه أمر لاحق فيما لا يزال، وكيف يكون اللاحق سببا في وجود السابق، وهل السبب أبدا إلا متقدم على المسبب.

١٧٠. جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى العِلَلِ.

هذا دليل آخر على ما ذكره، وهو: أن حصول ما طلبه الداعي حكم من الله تعالى في الأزل، فلا يكون سببه الدعاء والسؤال، لأن أحكام الله تعالى تجل عن أن تنضاف إلى علة أو سبب من قبل أنّ له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة، فصنعه علة لكل شيء، ولا علّة لصنعه، كما قال العارفون المحققون.

١٧١. عِنَايَتُهُ فِيكَ لاَ لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ؛ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاَصُ أَعْمَالٍ وَلاَ وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلاَّ مَحْضَ الإِفْضَالِ وَعَظِيمَ النَّوالِ.

عناية الله تعالى بك في الأزل، حين لم تكن، حين لا حين غير معللة بشيء كائن منك من إخلاص أعمال أو وجود أحوال تتوسّل بجميع ذلك إليه، وأين كنت إذ ذاك وأنت عدم محض، بل لم يكن هناك إلا محض كرمه وإفضاله وعظيم إحسانه ونواله لا غير.

قال الواسطي: «أقسام قسّمت، ونعوت وأحكام أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟».

١٧٢. عَلِمَ أَنَّ العِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ العِنَايَةِ فَقَالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلاَّهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا العَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الأَزَلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ظهور سرّ العناية التي مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئة في قوله عز من قائل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] ولا علّة له من العبد، والإحسان المنسوب إليه في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أمارة وعلامة على تلك العناية، وليس بعلة موجبة.

وإنما أسند الرحمة إليه وعلّقها به، لئلا يتكل العباد على السابقة ويتركوا العمل الذي هو مقتضى العبودية الواجبة لله تعالى عليهم.

١٧٣. إِلَى المَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ.

لأن وقوع ما لم يشأ الحق تعالى محال.

وَلاَ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ.

لاستحالة وجود النقص فيما يجب له من الكمال.

وهذه العبارات التي ذكرها المؤلف رحمه الله من أول الفصل إلى هنا بلغت

الغاية في الحسن، واستغنت بتردادها وتكرارها عن البيان والشرح، وفيها إشارة إلى أحكام الأزل، وفقد الأسباب والعلل، فيجب على العبد أن يبني عليها أعماله وأحواله، فيلتزم العبودية والافتقار، ويدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك، وهذا هو أدب التوحيد جعلنا الله من أهله بمنّه وفضله وكرمه.

قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رضي الله عنه: «إن الله لا يقرب فقيرا لأجل فقره، ولا يبعد غنيا لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر، حتى بها يصل وبها يقطع، ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها، ولو أخذتها كلها ما قطعك بها، قرّب من قرب من غير علّة، وقطع من قطع من غير علّة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]».

وقال أيضا رضي الله عنه: «ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته، أنّى يكون له الوفاق والخلاف وهو يقلّب الليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الأشياء وبالأشياء في بقائها وفنائها، لا يؤنسه وجد ولا يوحشه فقد، بل لا فقد ولا وجد، إنما هي رسوم تحت الرسوم».

١٧٤. رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَادًا عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ.

قد يكون من الأدب ترك السؤال والطلب لمن هو مستغرق في الأذكار، راض بما يجري عليه من تصاريف الأقدار، وهو أحد مذاهب القوم.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «واختلف الناس في أي شيء أفضل: الدعاء أم السكوت والرضا، فمنهم من قال الدعاء في نفسه عبادة، قال النبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»، فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركها، ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى، فإن لم يستجب للعبد، ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحقّ الربوبية، لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية، وقد قال أبو حازم الأعرج: «لأن أحرم الدعاء أشدّ عليّ من أن أحرم الإجابة».

وطائفة قالوا: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى، ولهذا قال الواسطي «اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت»، وقد قال الرسول ﷺ مخبرا عن الله تعالى: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**».

وقال قوم: «يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه ليأتي الأمرين جميعا».

قال الإمام أبو القاسم: «والأولى أن يقال إن الأوقات مختلفة ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت، وهو الأدب، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء، وهو الأدب، وإنما يعرف ذلك في الوقت، لأن علم الوقت إنما يحصل في الوقت، فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى».

ويصحّ أن يقال: ينبغي للعبد أن لا يكون ساهيا عن شهود ربّه تعالى في حال دعائه.

ثم يجب أن يراعي حاله، فإذا وجد من الدعاء زيادة بسط في وقته فالدعاء له أولى، وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض فالأولى له ترك الدعاء في هذا الوقت، وإن لم يجد في قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه سيّان، وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت العلم فالدعاء أولى لكونه عبادة، وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت المعرفة والحال والسكوت فالسكوت أولى.

ويصحّ أن يقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحق سبحانه وتعالى فيه حق فالدعاء أولى، وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم وأولى، وفي الخبر المروي: «**إِنَّ العَبْدَ لِيَدْعُوَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ يُحِبُّهُ، فَيَقُولُ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ أَخِّرْ حَاجَةَ عَبْدِي فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعُ صَوْتَهُ، قَالَ: وَإِنَّ العَبْدَ لِيَدْعُو اللهَ، وَهُوَ يُبْغِضُهُ، فَيَقُولُ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اقْضِ لِعَبْدِي حَاجَتَهُ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنِ أَسْمَعَ صَوْتَهُ**»، انتهى كلام الإمام أبو القاسم القشيري، وهو حسن بديع، وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله، فلذلك أوردته هنا بكماله.

١٧٥. إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ الإِهْمَالُ.

أورد هذا كالدليل على ما ذكره من أنّ ترك الطلب قد يكون من الأدب، وذلك لأن في الطلب إشعارا بتجويز الإغفال عليه فيقع بذلك التذكير له، وتلويحا باحتمال وجود الإهمال منه فيكون ذلك تنبيها له، وجميع ذلك محال على الحق تعالى عن ذلك

علوًا كبيرًا، فلأجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا.

وقد سئل الواسطي رضي الله عنه أن يدعو فقال: «أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيتنا أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور».

وروي عن عبد الله بن منازل أنه قال: «ما دعوت الله منذ خمسين سنة، وما أريد أن يدعو لي أحد، لأنه ماض عليّ ما سبق».

١٧٦. وُرُودُ الفَاقَاتِ أَعْيَادُ المُرِيدِينَ.

الأعياد عبارة عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، وهم مختلفون في ذلك، فمنهم من مسرته وفرحه بوجود حظّه، ونيل شهواته وغرضه، وهذا هو حال عامة المسلمين، ومنهم من مسرته وفرحه بفقدان حظوظه وإعواز أمانيه وأغراضه، وهذا هو حال الخاصة من المريدين، لأن مدار أمرهم إنما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضرورات الفاقات وأنواع الحاجات والضرورات، فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى، والشدّة على الرخاء، والذلّ على العزّ، والمرض على الصحة، إذا يحصل لهم بذلك رقّةٌ وحلاوة لا يعرف قدرها إلا هم، لأنها من وجودهم لقرب ربّهم ورؤيتهم له في حال فقدان حظّهم، وكلما ازدادوا فاقةً وبلاء زادهم ربّهم قربةً وولاءً.

كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول:

مـؤتزر بشـملتي كـما تـرى   وصـبيتي باكيـة كـما تـرى

وامـرأتي عريانـة كـما تـرى   يا من يرى الذي بنا ولا يُرى

أما ترى مـا حـل بي أمـا تـرى   أمـا تـرى الـذي بنـا أمـا تـرى

فسمعه بعضه فجمع له كسرا ودفعها إليه، فقال له: إليك عني، لو كان معي شيء لما أمكنني أن أقول هذا القول.

قال في "التنوير": «وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر، ألم تر أن البلايا تخمد النفوس وتذهلها وتدهشها عن طلب حظوظها، ويقع مع البلايا وجدان الذلة، ومع الذلة تكون النصرة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران: ١٢٣]».

قال أبو إسحاق إبراهيم الهروي رضي الله عنه: «من أراد أن يبلغ الشرف كلّ الشرف فليختر سبعا على سبع، فإنّ الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير: وهي أن يختار الفقر على الغني، والجوع على الشبع، والدون على الرفع، والذلّ على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة.

وقد تقدّم عند قول المؤلف: (مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ)، الشفاء في هذا المعنى، فواجب إذن أن يكون ورود الفاقات أعياد المريدين، كما قال المؤلف، فإذا فقدوا ذلك بمؤاتاة الأسباب استشعروا بذلك وجود الحجاب

وبعدهم عن محل الاقتراب، فحزنوا لذلك وتأسفوا، وودّوا لو عاد إليهم الحال الأول.

ومن هذا المعنى ما حكي عن خير النساج رضي الله عنه، قال: «دخلت بعض المساجد فإذا فيه فقير، فلما رآني تعلق بي وقال: أيها الشيخ تعطّف عليّ، فإن محنتي عظيمة، فقلت: وما هي؟ قال: فقدت البلاء وفزت بالعافية، فنظرت، فإذا هو قد فتح عليه شيء من الدنيا».

وقال بعضهم: «إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره»، كما أن الغني يحترز من الفقر حذرا أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه، وقد تقدم من حكايات عطاء السلمي وفتح الموصلي والفضيل بن عياض والربيع بن خيثم رضي الله عنهم ما يوافق ما ذكرناه، وأنشدوا في ذكر أعياد المريدين والعارفين، وقيل إنها لأبي عليّ الروذباري رضي الله عنه:

قالوا غدًا العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق حبّه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما ... قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي ... والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

١٧٧. رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ المَزِيدِ فِي الفَاقَاتِ مَا لاَ تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ.

ورود الفاقات يحصل بها للمريد مزيد كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة،

وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة، لأن الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى كما تقدم، وما كان هذا سبيله لا يؤمن عليه فيه من دخول الآفات، فلا يفيده تحلية ولا تزكية، بخلاف ورود الفاقات، فإنها مباينة للهوى والشهوة على كل حال، وقد تقدم نحو من هذا المعنى عند قوله: (إذا فتح لك وجهة من التعرّف فلا تبال معها إن قلّ عملك...) الخ.

١٧٨. الفَاقَاتُ بُسطُ المَوَاهِبِ.

الفاقات تحضره مع الحق وتجلسه على بساط الصدق، وناهيك بما يكون في تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الربّانية والنفحات الرحمانية.

١٧٩. إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ المَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الفَقْرَ وَالفَاقَةَ لَدَيْكَ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

هذا مثل ما ذكره المؤلف الآن، وذكر الآية عقيبه إشارة بديعة، وتصحيح الفاقة والفقر هو: التحقيق بأوصاف العبودية المذكورة في المسألة التي تأتي بأثر هذه، ومما يتعلق بظاهر الآية التي استشهد بها المؤلف على طريقة القوم ما قال بعضهم: «صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يعطيه، لا ممن تقبل إليه على يده» فالحق تعالى هو المعطي على الحقيقة، لأنه جعلها لهم، فإن قبلها من الحق فهو الصادق في فقره لعلوّ همته، ومن قبلها من الوسائط فهو المتوسّم بالفقر مع رداءة همّته.

١٨٠. تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يَمُدُّكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يَمُدُّكَ بِعِزِّهِ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يَمُدُّكَ بِقُدْرَتِهِ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يَمُدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

هذا مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب، وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: (كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا).

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بعد كلام ذكره: «وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذلّ لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية، فما لك ولها، فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه، وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير غيرك؟ ومن بساط الضعف: يا قويّ من للضعيف غيرك؟ ومن بساط العجز: يا قادر من للعاجز غيرك؟ ومن بساط الذلّ: يا عزيز من للذليل غيرك؟ تجد الإجابة كأنها طوع يدك: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]»، انتهى كلام سيدي أبي الحسن، وهو معنى ما ذكره المؤلف هاهنا، وأكثر كلام المؤلف جار على منهاج كلام أبي الحسن رضي الله عنهما ونفع بهما.

١٨١. رُبَّمَا رُزِقَ الكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ.

الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة، والوصول إلى كمالها، ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عز وجل، واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا.

فالواجب على العبد أن لا يحرص إلاّ عليهما، ولا تكون له همّة إلا في الوصول إليهما.

وأمّا الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين، إذ قد يـرزق ذلـك من لم تكمل له الاستقامة.

قـال سـيدي أبـو الحسـن الشـاذلي رضي الله عنـه: «إنـما همـا كرامتـان، جامعتـان، محيطتان؛ كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتـداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مغتر كذاب ليس ذا حظ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصاحبها الرضا عن الله، ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور، وناقص أو هالك مثبور».

وقـال سـيدي أبـو العبـاس المرسي رضي الله عنـه: «لـيس الشـأن مـن تطـوى لـه الأرض فإذا هو بمكة وغيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عبد عند ربّه».

وذكر عند سهل بن عبد الله رضي الله عنه الكرامـات فقـال: «ومـا الآيـات، ومـا الكرامات، هي شيء تنقضي لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبـدل خلقـا مـذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود».

وقال بعض المشايخ: «لا تعجبوا ممن لم يضع في جيبه شيئا فيـدخل يـده في جيبـه فيخرج منه ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع في جيبه شيئا فيدخل يده في جيبه فـلا يجده فلا يتغير».

وقيل لأبي محمد المرتعش رضي الله عنه: إن فلانا يمشي على الماء، فقال: «عندي من مكّنه الله من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الماء وفي الهواء».

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: «لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي».

وقيل له: يقال إن فلانا يقال إنه يمر في ليلة إلى مكة، فقال: «الشيطان يمر في لحظة من المشرق إلى المغرب، وهو في لعنة الله».

وقيل له: يقال إن فلانا يمشي على الماء، فقال: «الحيتان في الماء والطير في الهواء أعجب من ذلك».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات». وقد تقدم مثل هذا عند قوله: (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه).

١٨٢. مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ: إِقَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ.

لا اعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أو حال، وإنما العبرة بما يقيمه فيه ربّه.

وعلامة إقامة الله عبده في الشيء: أن يديمه عليه، ويحصل له ثمرته ونتيجته.

وينبني على هذا آداب ومعاملات، وقد أشرنا إلى نحو من هذا عند قول المؤلف: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب...الخ».

١٨٣. مَنْ عَبر مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصْمَتَتْهُ الإِسَاءَةُ، وَمَنْ عَبر مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ الله إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ.

من شاهد إحسان نفسه وعمل بطاعة ربّه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله، فإن وقعت منه إساءة أو مخالفة انقبض عن ذلك وصمت، لما يعتريه من الخجل والحياء، وهذه طريقة أهل التكليف الذين ينظرون إلى ما منهم إلى الله تعالى من عمل صالح أو طالح.

ومن شاهد إحسان الله إليه، وغاب عن رؤية إحسانه هو، انبسط لسانه في الحالين من غير فرق، لأن مشاهدته لوحدانية ربّه وقيوميته في الحالين أوجبت جراءته على ذلك.

وقد قيل: «جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان» وهذه هي طريقة أهل التعريف الذين ينظرون إلى ما منَّ الله تعالى إليهم.

قلت: وما ذكرته هنا من لفظي: التعريف والتكليف وما نبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به إلى مسألة عظيمة مهمة، ينبني عليها آداب وأحكام جمّة، وهي مسألة اختلاف الناس في معاملاتهم لربّهم بحسب نيّاتهم في مراتب قربهم، ومن أحكامها مسألة التعبير التي اقتصر المؤلف عليها في هذا الفصل، ولم يذكر معها سواها مما ينبني على ذلك الأصل، وقد نبه عليها في "لطائف المنن" وأتى فيها بكلام مستوعب حسنٍ فرأينا أن ننقله هاهنا بكماله، ليتبين به مقصدنا في تفصيله وإجماله، قال فيه:

وقال شيخنا -يعني أبا العباس-: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته، فيقوم مقام المعتذر بين يدي الله تعالى، وتلازمه الأحزان، وتحالفه الأشجان، ويستولي عليه الكمد كلما بدت منه سيئة، أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء. وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان، فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فالأول حال العبّاد والزهّاد، والثاني حال أهل العناية والوداد، الأول شأن أهل التكليف، والثاني شأن أهل التعريف، والأول حال أهل اليقظة، والثاني حال أهل المعرفة. فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءته في إحسان الله إليه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]».

وقال رضي الله عنه: «قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثرة العمل مع رؤية التقصير من النفس».

وقال بعض أهل المعرفة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «قرأت ليلة من الليالي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس]، فقيل لي: شرّ الوسواس وسواس بينك وبين حبيبك، ينسيك ألطافه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عندك ذات اليمين، ويكثر عندك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظنّ بالله ورسوله إلى سوء الظنّ بالله ورسوله، فاحذر هذا الباب، فقد أخذ منه كثير من الزهّاد والعبّاد، وأهل الجد والاجتهاد، ولذلك قلّ أن تجد الزاهد والعابد إلا مكمودا حزينا، لأنه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية، وحمّله أعباءها، وألزمه ما أشفقت السماوات والأرض والجبال من حمله، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فعاين الزهاد ثقل ما حُمّلوا، ولم ينفذوا إلى شهود لطف الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه، فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن».

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرا عظيما، وعلموا ضعفهم عن حمله، والقيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله عز وجل: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله تعالى حمل عنهم ما حمّلهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فرجعوا إليه بصدق اللجاء فحمل عنهم الأثقال، فساروا إلى الله محمولين في محفّات المنن، تروح عليهم بنفحات

اللطف، والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف فتلازمهم المشقّات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه، فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم، فطابت لهم الأوقات، وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين أمدّهم الله تعالى بشهود ما من الله إلى الله، هؤلاء هم أهل التوحيد، والداخلون في ميدان التفريد.

وأما القسم الأول: وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم إلى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك، وإن خرجوا عن ظاهره، لأنهم أقبلوا على أنفسهم موبّخين لها، شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم، فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا لها بالتوبيخ إذا قصرت، فلذلك قال ذلك العارف الذي سبق قوله: «لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير».

فإن قلت: إذا كان توبيخ النفس وذمّها يستلزم دقيقة الشرك، فكيف نصنع والله تعالى قد ذمّ النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت، ووبخها هو إذا كانت كذلك؟ فالجواب: أن ذمّها؛ لأن الله تعالى أمرك بذمّها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف إليها فعلا، فلا تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني: وهو الذي يشهد ما من الله إليه، فهو وإن كان خيرا من القسم الأول، لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك، فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله تعالى القسم

الثالث، وهو أن يكون بشهود ما من الله إلى الله، فافهم. انتهى كلامه رحمه الله، ولأجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة، دعانا قرب المناسبة إلى ذكره على ما هو عليه في هذا الموضع، والله الموفق ولا ربّ غيره.

١٨٤. تَسْبِقُ أَنْوَارُ الحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ.

الحكماء: هم العارفون بالله تعالى، العالمون به، والأنوار المنسوبة إليهم، هي: أنوار معرفتهم، وهي قوّة يقينهم، فإن الأمور كلها بيد الله تعالى، لا شريك له فيها، فإن أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن من الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى باللجاء والافتقار إليه، في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده، بأن يجعل فيها أهلية واستعدادا لقبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة، فيجيبهم إلى ذلك، فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التي وصل إليها أنوار أسرار الحكمة، كما تلتقي الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع، وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يا بني ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما لا يعنيني.

قال: يا بني، إنه قد بقي شيء آخر، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وإنما قلنا: إن الحكماء هم العارفون بالله تعالى، العالمون به، لأنهم خائفون من الله تعالى، وفي بعض الآثار: «رأس الحكمة مخافة الله».

والخوف من ثمرات العلم بالله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط، فالحكماء هم

العالمون بالله تعالى،وإن كانوا ضعفاء في سائر العلوم الرسمية، كليلة ألسنتهم في البيان عنها.

١٨٥. كُلُّ كَلاَمٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ القَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ.

اللسان ترجمان القلب، فإذا صفا من الأكدار، وتزكى من الأغيار، وأشرقت فيه الأنوار، كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك، فيتكلم بالكلام النوراني الذي يلج آذان السامعين، فتفتح بسببه إذ ذاك أقفال قلوبهم، ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم.

وروى الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالى، عن سعيد بن عاصم: كان قاض يجلس قريبا من مجلس محمد بن واسع فقال له يوما وهو يوبخ جلساءه: مالي أرى القلوب لا تخشع، ومالي أرى العيون لا تدمع، ومالي أرى الجلود لا تقشعر، فقال محمد بن واسع: يا عبد الله، ما أرى القوم أوتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب.

قلت: وقد حاز المؤلف قصب السبق في هذا المعنى الذي ذكره، ومن مارس كلامه في هذا الكتاب، وفي غيره، وحصل له منه التأثير المحمود سلّم بما قلناه، وكفي بشهادة شيخه أبو العباس المرسي، على عظيم قدره ودعائه له، برهانا على ذلك.

قال في "لطائف المنن": وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ -يعني أبا العباس: أريد لو نظر إليّ الشيخ برعايته وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت

على الشيخ قال: لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده، ثم قال: أيّ شيء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا وكذا، والله ليكونن لك كذا وكذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، قال: فكان من فضل الله سبحانه ما لا أنكره.

قال: وأخبرني سيدي جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ: هم يصدرونه في الفقه وأنا أصدره في التصوّف، وقال: دخلت عليه فقال: إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدّك، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية وتتكلم إن شاء الله تعالى في العلمين، فكان ما أخبر به رضي الله عنه.

قال: وسمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب "التهذيب" لولدي جمال الدين فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول، فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب "التهذيب" استنسخته لكم، فأخذه، فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك الوليُّ لا يتفضل عليه أحد، تجد هذا في ميزانك إن شاء الله.

فلما أتيته بالجزء الثاني لقيني بعض أصحابه عند نزولي من عنده، قال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به في علم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقيني بعض أصحابه وقال: طلعت عند

الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا الكتاب استنسخته لي ابن عطاء الله، والله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

قال: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال لي الشيخ يوما إذا جاء ابن فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت الشيخ أعلمنا الشيخ بذلك فقال: تقدّم، فتقدمت بين يديه، فقال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذّبته القريش فقال له: هذا ملك الجبال قد أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلّم عليه ملك الجبال، ثم قال: يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال رسول الله ﷺ: «**لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله تعالى ولا يشرك به شيئا**». فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء أن يخرج الله من أصلابهم، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

قال: وخرجت يوما من عند الفقيه "المكين الأسمر" وخرج معي أبو الحسن الحريري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن فسلّمت عليه، وسلّم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟ فقال: وكيف لا أعرفك، كنت يوما جالسا عند الشيخ أبي العباس، وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي، إنه ليعجبني هذا الشاب، انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو إلى الله، فكان ما قال الشيخ رحمه الله تعالى.

قال: وكنت كثيرا ما يطرأ عليّ الوسواس في الطهارة، فبلغ ذلك الشيخ فقال:

بلغني أن بك وسواسا في الوضوء؟ قلت: نعم، فقال رضي الله عنه: «هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بهم»، ثم مكثت أياما ودخلت عليه، فقال: ما حال ذلك الوسواس؟ قلت: على حاله، فقال: إن كنت لا تترك الوسوسة لا تعد تأتينا، فشقّ ذلك عليّ، وقطع الله ذلك الوسواس عني.

قال: وكان رضي الله عنه يلقّن للوسواس: سبحان الله الملك القدّوس الخلاّق الفعال ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

قال: وعملت قصيدة أمدحه بها، فقال حين أنشدتها: أيّدك الله بروح القدس.

قال: ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته جوابا لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد "أخميم"، فلما قرأت عليه قال: صحبني هذا الفقيه وبه مرضان، وقد عافاه الله منهما، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين، يشير إلى مرض الوسواس.

قال: فلقد انقطع عني بركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدّة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمر، والمرض الآخر: كان بي ألم برأسي فشكوت ذلك إليه، فدعا لي فعافاني الله تعالى وشفاني.

قال: وبتّ ليلة من الليالي مهموما، فرأيت الشيخ في المنام، فشكوت إليه ما أنا فيه فقال: اسكت، والله لأعلمنّك علما عظيما.

قال: فلما انتبهت جئت إلى الشيخ رضي الله عنه فقصصت عليه الرؤيا فقال: يكون هذا إن شاء الله تعالى.

قال: وجاء يوما من السفر فخرجنا للقائه، فلما سلّمت عليه قال لي: يا أحمد كان الله لك ولطف بك وسلك بك سبيل أوليائه وبهاك بين خلقه.

قال: فوجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق، وأني مراد بهم لقوله: وبهاك بين خلقه.

قال: وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صحّ نقله عنه، حتى جرت مقاولة بيني وبين بعض أصحابه، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدّعون أمورا عظاما، وظاهر الشرع يأباها، فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدري ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ فقلت: لا، قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا.

ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاما فما سمعت منه شيئا ينكره ظاهر الشرع من الذي كان ينقله عنه من يقصد الأذى.

قال: وكان سبب اجتماعي معه أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل، دعني أذهب فأرى هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه.

قال: فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام، والثاني: إيمان، والثالث: إحسان، وإن شئت قلت: الأول: عبادة، والثاني: عبودية، والثالث: عبودة، وإن شئت قلت: الأول: شريعة، والثاني: حقيقة، والثالث: تحقّق، ونحو هذا، فما زال يقول: "وإن شئت قلت..." إلى أن بهر عقلي، وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد شيئا منّي يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي ووجدت معنى غريبا ما أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك إلى العود إليه مرّة أخرى، فأتيت، فاستؤذن لي فلما دخلت عليه قام وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا، واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبّك، فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان، فقال: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنّة عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

قال: فقمت من عنده وكأنما كانت تلك الهموم والأحزان ثوبا نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتّش على الهمّ فلا أجده، فقال:

لـيلي بوجهـك مشـــرق وظلامه في النـاس ساري
والناس في سدف الظلام ونحـن في ضـوء النهـار

إلزم، فوالله إن لزمت لتكوننّ مفتيا في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن. انتهى ما نقلته من "لطائف المنن" وإنما أوردت ذلك هنا على طوله ليعرف به قدر المؤلف، وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسّف المتعسّف، ولنعترّض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا، وموالاة منحه وعطاياه لدينا.

فقد قيل: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» مع ما في ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما أورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين معاصريه من الأئمة الأعلام. وأما شيخه أبو العباس، وشيخ شيخه أبو الحسن فحالهما أوضح من نار على علم، ولقد طرّزت بكلامهما الكتب والدفاتر، وزهيت بمآثرهما وعلومهما الألسنة والأقلام والصحف والمحابر، ولولا خشية الملالة، وكراهة الإطالة لذكرنا من ذلك ما يبهر عقول السامعين والمطالعين، ويرغم آناف الجاحدين والمعاندين.

كما قيل:

سيكفيك من ذاك المسمى إشارة ودعه مصونا بالجمال محجّباً

١٨٦. مَنْ أَذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ الخَلْقِ عِبَارَتُهُ، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ.

المأذون له في التعبير هو الذي يتكلم لله وبالله وفي الله، ولذلك كان كلامه صوابا.

قال الجنيد رضي الله عنه: «الصواب كل نطق عن إذن» أشار بهذا والله أعلم، إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] فإذا قرع أسماع السامعين كلامه فُهمت في مسامعهم عبارته، فلم يفتقروا إلى معاودة ولا تكرار، وجلّيت إليهم إشارته فلم يحتاجوا معها إلى إطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له في ذلك، قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصّار رضي الله عنه: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا»؟ قال: لأنهم تكلموا لعزّ الإسلام، ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعزّ النفس، وطلب الدنيا وقبول الخلق.

١٨٧. رُبَّمَا بَرَزَتِ الحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ الأَنْوَارِ إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِالإِظْهَار.

من لم يستكمل الأوصاف المذكورة لم يؤذن له في إظهار شيء من الحقائق الربانية، فإن أظهرها برزت مكسوفة الأنوار بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار، فمجّتها آذان السامعين، وأنكرتها قلوبهم.

وعلامة استكمال الأوصاف المذكورة أن يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من آفات المنطق.

قال في "لطائف المنن": «إن من أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة» قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: الوليّ يكون مشحونا بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطي العبارة كان كالإذن من الله له في الكلام. قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة

وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وتردّ على الآخر.

١٨٨. عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ، فَالأَوَّلُ حَالُ السَّالِكِينَ، وَالثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ المكنَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ.

إنما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الأمور الغيبية والعلوم الإشهادية لأحد معنيين: إما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه، وهم معذورون في ذلك لوجود الغلبة، وهذا حال السالكين من أهل الهداية، وإما لقصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الإرشاد والهداية، وهذا حال أهل التمكين والمحققين من أهل النهاية، فإن عبّر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن عبّر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان في ذلك إفشاء سرّ لم يؤذن له فيه، وأيضا فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق، لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقي ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم، فكيف يصدر منهم نطق أو تعبير على غير الوجه المذكور، والصمت من آداب الحضرة، قال الله عز وجل: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

١٨٩. العِبَارَاتُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَيْسَ لَكَ إِلاَّ مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ.

المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى ما يستمعون إليه من المواعظ والحكم، وهو قوت قلوبهم وغذاء أرواحهم، كما أن المستطعمين والسؤّال موسومون بالفقر

والحاجة إلى قوت أبدانهم، وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة، لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم، فكذلك أقوات الآخرين مختلفة، فلا يصلح لواحد منهم من العبارة التي تتضمن وجود القوت المعنوي ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم، فإذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظ منها بشيء فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك وهي صالحة لقوم آخرين، ومما ينتظم في هذا السلك أن تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم، ويتأثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا، وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كلّ واحد منهم ما لا يفهمه الآخر، ويحصل لهم بذلك التأثر مع أن المتكلم لم يرد شيئا من ذلك، وربما كان ذلك مضادا له، وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ويستعدون به لسني الحالات، قال في "لطائف المنن": «وربما فهم من اللفظ ضدّ ما قصد واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد ابن علي القشيري رحمه الله، قال: كان ببغداد فقيه يقال له: الجوزي، يقرأ اثني عشر علما، فخرج يوما قاصدا المدرسة فسمع منشدا يقول:

إذا العشرون من شعبان ولّت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائما على وجهه إلى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات، قال: وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني　　لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شيء شريف أنت شاربه　　فاشرب ولو حمّلتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية　　خذا الجنان ودعني أسكن النارا

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب. والشيخ مكين الدين الأسمر هذا هو الذي شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بأنه من السبعة الأبدال، قال: ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا ينادي: يا سعتر بري، ففهم كلّ واحد منهم مخاطبة عن الله خوطب بها في سرّه، فسمع الواحد: اسعَ ترَ بري، وسمع الآخر: الساعة ترى بريّ، وسمع الآخر: ما أوسع بريّ. فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين، كما قال الله سبحانه ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وقال سبحانه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

فأما الذي سمع: اسع تر بري، فمريد دلّ على الله تعالى بالنهوض إلى الله بالأعمال، فيستقبل الطريق بالجدّ، فقيل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برّنا بوجود المواصلة.

وأما الثاني: فكان واصلا إلى الله تعالى، طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة، فقيل له ترويحا على قلبه لمّا أحرقته نار الشغف: الساعة ترى بريّ.

وأما الآخر: فعارف كشف له عن وسع الكرم، فخوطب من حيث أشهد، فسمع: ما أوسع برّي.

قال: وقال الشيخ محيي الدين ابن العربي رحمه الله تعالى: «دعانا بعض الفقراء إلى وليمة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدّم الطعام وعمروا الأوعية، وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل، فقرّب فيه ربّ المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: مذ أكرمني الله يأكل هؤلاء السادة منّي لا أرضي لنفسي أن أكون بعد ذلك اليوم محلا للأذى، ثم انكسر نصفين، فقال الشيخ محيي الدين: فقلت للجميع: سمعتم ما قال الوعاء؟ فقالوا: نعم، قال: فقلت: ما سمعتم؟ فأعادوا القول الذي تقدّم، قال: فقلت: قال قولا غير ذلك، قالوا: وما هو؟ قلت: قال كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالإيمان، فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلا لنجاسة المعصية، وحبّ الدنيا». جعلنا الله وإياكم من أولي الفهم عنه والتلقّن منه.

قلت: وهذه المنازع كلّها مما يستملح ويستظرف، وتتأثر بها القلوب السليمة، وتنقاد لها النفوس الكريمة، وقد جرت عادة أئمة هذه الطريق باستعمالها وإيرادها في محالها، فلا حرج علينا إذن في ذكر بعض ذلك، إذا كانت له مناسبة تامة، ووجدت فيها فائدة خاصة أو عامة، وبالله التوفيق لا ربّ غيره.

١٩٠. رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ المَقَامِ مَنِ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلاَّ عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ.

كما أنّ الواصل إلى مقام من مقامات اليقين يعبر عنه، كذلك يعبّر عنه من

استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهرة، وأما ذو البصيرة فلا يخفى عليه ذلك، لأنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنة وما هو عليه من كمال أو نقص، وقد قيل: تكلموا تعرفوا.

١٩١. لاَ يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ.

الواردات الإلهية لا ينبغي للسالك أن يعبّر عنها اختيارا منه، بل يخفيها ويصونها ولا يطلع أحدا عليها، إلا شيخا مرشدا، لأن نفسه تجد في ذلك لذّة وانشراحا، فتقوى به صفاتها، فيقلّ بسبب ذلك عمل الواردات في قلبه من التأثير المحمود، ولأجل غلبة أحكام نفسه وإيثار حظّه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربّه، وقد تقدّم هذا المعنى في قوله: (اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ).

١٩٢. لاَ تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الأَخْذِ مِنَ الخَلاَئِقِ إِلاَّ أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلاَكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ العِلْمُ.

هذه قاعدة عظيمة يحتاج إليها السالكون المتجردون، ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصل إليهم من الرفق على أيدي الخلق، وقد ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى بعبارات بديعة محمودة موجزة، جمع فيها جملة المعاني التي يحتاج إليها من ذكرناه، فلنبسط كلامه في ذلك على حسب عادتنا معه، على الوجه الذي ذكرناه في مقدمة هذا

التنبيه، وهذا قصدنا في جميع ما تكلمنا عليه من مسائل كتابه.

ونقول على حسب ذلك: أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: رزق يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرّفات كالتجارات والصناعات وغيرهما، وهذا حال أهل الأسباب.

والثاني: رزق يصل إليهم على أيدي الخلق من غير عمل ولا سعي، وهذا حال أرباب التجريد.

وكلّ واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصّه.

فأحكام القسم الأول وآدابه لم يتعرّض لها المؤلف رحمه الله تعالى، وهي مذكورة في فن الفقه وغيره، فواجب على كلّ من دخل في شيء من الأسباب تحصيل علمه وطلبه من حيث هو.

وأحكام القسم الثاني وآدابه هي التي تعرضّ لها المصنف، وأجمل رحمه الله تعالى جميع ذلك في مراعاة شرطين، وجعلهما من شروط صحة الأخذ:

الشرط الأول: أن لا يرى العطاء إلا من مولاه عز وجل، وهذا هو الأصل، وإنما اشترطه على الأخذ، لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد، وتخليص التجريد، وبه يصحّ له مقام القناعة والتوكل، ويسقط من قلبه همّ الرزق، وتزول به عنه علاقات الخلق، وإن لم يكن على هذا الوصف كان عبدا للناس، مولّها قلبه إليهم،

فيكثر طمعه فيهم، ورغبته فيما في أيديهم، واستشرافه إليهم، فيقع بسبب ذلك في كبائر الذنوب، من معاصي القلب والجوارح، مثل: المداهنة، والنفاق، والرياء، والتصنّع، والتلبس، والغش، وعدم النصيحة، وقلّة الشفقة، وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله عز وجل.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «من استفتح باب المعاش من غير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين».

ولا يكفي في تلك الرؤية المذكورة أن تكون: علما وإيمانا فقط، بل لا بدّ أن تكون: حالا وذوقا.

دعا بعض الناس شقيقا البلخي رضي الله عنه وكان في طبقته من أصحابه نحو خمسين رجلا، فوضع الرجل طعاما واسعا وأنفق نفقة كثيرة، فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول: من لم يرني صنعت هذا الطعام وأني أقدّمه إليه فطعامي عليه حرام.

فقاموا كلّهم وخرجوا إلا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم، فقال صاحب المنزل لشقيق: رحمك الله ما أردت بهذا؟

قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي. أي كلهم لا يرونه فيما صنع، ولا ينظرون إليه بما قدّم، إلا ذلك الرجل وحده.

وإنما اشترطنا في رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالا وذوقا، لأن ذلك هو

اللائق بحال المتجرد، كما ذكرناه، لأن التجريد حال شريف لا يُدخل فيه بالاختيار والتعمد، لأن ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة.

وإنما يقيم الحق تعالى فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى، وجدّه في الهرب عن كل ما يقطعه عن الله تعالى، فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره، ويكاشفه بوحدانيته في إيراده وإصداره، ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال.

كما روي أن أبا حفص النيسابوري رضي الله عنه كان حدادا، وكان غلامه يوما ينفخ عليه الكير، فأدخل الشيخ يوما يده في النار وأخرج الحديدة من النار، فغشي على غلامه، وترك أبو حفص الحانوت وأقبل على أمره، وكان يقول رضي الله عنه: «تركت العمل فرجعت إليه، وتركني العمل فلم أرجع إليه».

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: «لا ينبغي للصوفي أن يتعرّض للقعود عن الكسب، إلا أن يكون رجلا مغلوبا قد أغنته الحال عن المكاسب، وأما من كانت الحاجات به قائمة، ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف فالعمل أولى به والكسب بسعي أحلّ له وأبلغ، لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف».

وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «ما دامت الأسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى».

وقال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة، فأريد مني تركها، فحاك في

صدري: من أين المعاش؟ فهتف بي هاتف لا أراه: «تنقطع إليّ وتتهمني في رزقي، عليّ أن أخدمك وليا من أوليائي أو منافقا من أعدائي».

وقد اشترط رسول الله ﷺ في صحة قبول العطاء عدم الاستشراف إلى الناس، ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلا بهذه الرؤية المذكورة.

روى زيد عن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا استشراف فليقبله فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه**»، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من وجّه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسألة ولا استشراف نفس فليأخذه وليوسع في رزقه، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه**»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول له: أعطه يا رسول الله من هو أفقر إليه مني، فقال ﷺ: خذه، فتموّله، أو تصدق به**».

وما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك، قال سالم: «فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا، ولا يردّ شيئا أعطيه».

فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح في التوحيد، فلا ينبغي أن يأخذ المريد عطاء على هذا الوجه، وروي أن أحمد بن حنبل رضي الله عنه خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام، فاشترى دقيقا ولم يكن في الموضع من يحمله، فوافى أيوب الحمال فحمله، ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أنّ أهل الدار قد

خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: ادفع إلى أيوب من الخبز، فدفع له رغيفين، فردّهما، فقال أحمد: ضعهما، ثم صبر قليلا، ثم قال: خذهما والحقه بهما، فأخذهما، فرجع صالح متعجبا، فقال له أحمد أعجبت من ردّه وأخذه؟ قال: نعم، قال: هذا رجل صالح، لما رأى الخبز استشرفت نفسه إليه، فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه، ثم أيس، فرددناه إليه بعد الإياس فقبله.

وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق، فلا يضرّه ذلك، لأنه خلق ضعيف ذو فاقة، ورزقه معلوم لا بد منه، فاستشرافه إلى الرزق في الحقيقة استشراف إلى الرازق، ولا ينافي ذلك حقيقة العبودية، ولكن إن كثر منها الاستشراف إلى الرزق وشغلت صاحبها عن دوام المحاضرة والمناجاة مع الحق، فليصرفها عن ذلك صرفا جميلا، ولينهج لها من التعلق والتوثّق بالله سبيلا.

قال الشيخ أبو عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «كنت في بداية واقفا بين العشاءين أصلي، وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتني النفس، فقالت لي: السلام عليكم، قلت لها: وعليك السلام، قالت: العشاء، فأدهتني بداهية، فتوقفت، ثم ألهمني الله تعالى أن قلت لها: أتدرين له موضعا؟ قالت: لا، قلت لها: أتدرين أيّ شيء هو ومتى هو؟ قالت: لا، قلت لها: أنا ربّ أو عبد؟ قالت: عبد، قلت لها: فالعبد يقدر على شيء؟ ما هذا الكفر والشرك اللذان أتيتني بهما، اهربي إلى خالقك فاطلبي منه العشاء، لأنه خالقك والقادر على كل شيء فيعطيك ويجيب لك ما طلبت، فتطعمي

وتأكلي فما لك وإياي، وما هذه الحيرة؟ قال: فذهبت إلى خالقها، فجاء عشاء متمكن كثير، فأكلت»، قال: وكذلك يحتج عليها، ومن هنا تثبت الأقدام.

وذكر أيضا مسألة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة إلى الرزق، وما تحتاج بنيته من الرفق، وجعلها من قواعد الفقر والإرادة، فرأينا ذكرها في هذا الموضع من الواجب المتيقن ليتحقق في العمل بها كل من يقف عليها من مريد مبتدئ.

قال رضي الله عنه: «اعلم أن الفقير لا يخلو؛ إما أن يكون جالسا أو ماشيا. أما قاعدة الجالس فإن جلسته موضع إليته، وهو مكانه، وزمانه طرف سجادته لا يتعداها، ولا يكون التفاته لوقت، ولا إلى سبب معلوم، لأنه لا يدري الأوقات ما هي، ولا يجدها، ولا يدري متى هي، ولا وقتها، ويعلم أن جميع الأشياء تطلبه، وتحتاج إليه، لأنها خلقت من أجله وهو خليفة فيها، وقد فرغ من جميعها، فالالتفات والأمل لماذا؟ بل يكون هدفا للأقدار تجري عليه ولا كسب له ولا سبب في التحصيل.

ثم قال: وأما الماشي من الفقير الذي يكون في سفر أو غيره فلا تجاوز همته خطوته، مثاله: أن يكون ماشيا فخطر له التغيّر والالتفات إليه من بلد أو شخص، أو مطعم أو مشرب، فيهلك، ويظفر به العدو، وتزلّ قدمه، فإن تمادى في التعلق بشيء من هذه القواطع والشواغل، ومشى إلى شيء منها وفقده ومات، ماتَ قاتلَ نفسه، وذلك أنه يكون في يوم صائف ووهج، وقد أصابه العطش الشديد، فيعرض

له خيال ماء، فيجيء العدو فيروّج عليه أن أسرع تلحق ذلك الماء فتشرب منه فيزول عطشك، فإن مشى راكنا إلى هذا الخاطر يجيء للموضع فيجده سربا، فهناك يظفر به ويقول له: الآن تموت، فيقتله من ساعته، فيموت قاتلَ نفسه، إذ كان جاهلا بربّه وآياته، ولم يعرف دواءه من دائه، ولا تعلم العلم، ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه، قال: فحكمه إذا جاءه هذا الخاطر بالترويح من العدو في سفره من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل أو أشخاص أو غير ذلك أن يعرض على العدوّ ويقول إن الله تعالى: يمكن أن يتوفّاني قبل لحوقه، فبالضرورة يطيعه في ذلك ويسلمه. ويقول له أيضا قال النبي ﷺ: «**من مشى إلى طمع فليمشي رويدا**» وقال: «**مَنْ تَأَنَّى أَصَابَ أَوْ كَادَ، وَمَنْ تَعَجَّلَ أَخْطَأَ أَوْ كَادَ، وَالعُجْلَةُ مِنَ الشَيْطَانِ**».

ومن هذا كثير فلا يشك شاك أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به، ثم يقول له أيضا: أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمني ويسقيني، إن شاء الله تعالى ينبع لي عينًا الساعة قبل وصولي لذلك الماء؟ فيقول له الشيطان بالضرورة: نعم، فإذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالحي ومنافعي من كل مخلوق.

فإذا حصل هذا العلم رجع يمشي متأنيا همّته مع خطرته ناظرا لما يرد عليه من ربّه، فإذا وصل إلى ما خطر له أوّلا أو رآه من بعد ولم يجد ما تعلّق به خاطره أولا من صاحب أو طعام بقي على أصله لا تغيّر عنده ولا تردد، فظفر بالعدو وقتله، كما فعل أيضا الشيطان بغيره الشيء أو ضدّه.

هذا ما أردنا ذكره من كلام هذا الإمام، وهو عندي من أنفس الكلام المقرّب غاية المرام، لما تضمنه من المعاني البديعة والأنفاس الرفيعة، ولما فيه من تجريد التوحيد، والآداب المرضيّة من العبيد، فهو جدير بأن يكتب ويرسّم، ويكمل به الغرض الذي تقدّم، والله أعلم.

وحكم الشرط الثاني: أن لا يأخذ إلا ما يوافق العلم، وهذا شرط لازم للمتجرد أيضا.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وينبغي لمن لا معلوم عنده من الأسباب أن يتورّع في أخذها، ويتخير المعطي لها كما يتخير أهل المكاسب في الاكتساب، لأن لله تعالى في كل شيء حكما، والقعود عن المكاسب لا يسقط أحكامها، والقاعد عن الطلب لا يسقط أحكام المطالب، ولأن ترك العمل عمل يحتاج إلى علم، ولم تكن سيرة القراء الصادقين أن يأخذوا من كل أحد، ولا في كل وقت، ولا يأخذوا كل ما يعطون مما يزيد على كفايتهم، إلا أن يكونوا ممن يخرجونه إلى غيرهم».

فموافقة العلم التي ذكرها المؤلف على قسمين: موافقة العلم الظاهر، وموافقة العلم الباطن، أما موافقة العلم الظاهر فبأن لا يأخذ إلا من يد بالغ عاقل تقي، وقد جاء في الحديث: «**لاَ تَأْكُل إلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ، ولَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**» فلا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا، ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب، ولا تأخذ من يد صبي، ولا عبد غير مأذون له، ولا معتوه.

وأما موافقة العلم الباطن فبأن لا يأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ إلا ما هو مفتقر إليه في الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجاته من غير إسراف ولا إقتار، ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك بأن كان في خلقه سخاء وبذل وإيثار وتخلّق بمحاسن الأخلاق، لا ليتوصل به إلى حظّ عاجل من جاه أو رئاسة، أو قبول عند الناس، ولا يأخذ ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختبار، أما الابتلاء فأن يأتيه قبل وقته أو زائدا على حاجته، فإن أخذه فليخرجه في السرّ ليأمن بذلك من آفة الإظهار.

وأما الاختبار فأن لا يأخذ شيئا قد نوى تركه لله تعالى من شهوة كان مبتلى بها قد ملكته وأسرته ومنعته القيام بحقوق ربّه، فليوف بعهد الله تعالى، وليدفع ذلك عن نفسه إن خاف انحلال عزمه وفساد نيته، فإن لم يخف على ذلك فليأخذه وليخرجه إلى غيره، وهذا أشد شيء على النفس، وهو من أعظم درجات الزهد. ولا يأخذ من منّان، ولا فخور، ولا مظهر لعطيته، ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته، فقد قيل: لا تأكل إلاّ طعام من يرى لك الفضل عليه في أكله، ولا تأكل إلاّ طعام من يرى أنه وديعة عنده، ولا تأكل إلا طعام زاهد، لأنه يسر بأكلك، ولا تأكل إلاّ طعاما يراك صاحبه أفضل من الطعام.

وقد روي أنه أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط، وكبش، فقبل السمن والأقط وردّ الكبش، وكان يقبل من بعض الناس ويردّ على بعض، وقال: «لقد هممت أن لا أقبل إلا من قرشيٍّ أو أنصاريٍّ أو ثقفيٍّ أو دوسيٍّ». قال أبو طالب

المكي: «وفعل هذا جماعة من التابعين»، جاءت إلى فتح الموصلي رضي الله عنه صرّة فيها خمسون دينارا، فقال: حدثّني عطاء أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ رِزْقًا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ علَى اللهِ عز وجل**» ثم فتح الصرّة وأخذ منها درهما وردّ سائرها.

وكان الحسن يروي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وحدّثنا عنه: أن رجلا أهدى إليه كيسا فيه ألوف، ورزمة فيها من رقيق خراسان، فردّ ذلك، فقال له بعض أصحابه في ذلك، فقال له: من جلس مثل مجلسي هذا وقبِل من الناس شيئا مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة وما له عند الله من خلاق.

وكان الحسن رضي الله عنه يقبل من أصحابه، وكان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين، ويعرض عليه المئين فلا يأخذ. وكان بعض العباد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا الشيء، قال: ضعه عندك واعرض على قلبك حالي كيف أنا عندك: بعد الأخذ أفضل، أو دون ذلك؟ واصدقني. فإن قال: أنت عندي الآن أفضل منك قبل ذلك، أو قال له: أنت عندي بعد الأخذ مثل ما كنت قبل ذلك، قبِل منه، وإن أخبره بنقصانه في قلبه لم يقبل منه.

وكان بعضهم يردّ على أكثر الناس صِلاتهم، فعوقب في ذلك، فقال: ما أردّ عليهم إلاّ إشفاقا عليهم ونصحا لهم، يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به، فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

ويروى عن الأعمش أنه قال: «جاء شاب من العرب إلى إبراهيم التيمي بألفي

درهم، فقال: يا أبا عمران، خذ هذه الدراهم، والله ما هي من ذي سلطان، ولا من كذا، ولا من كذا، فقال له إبراهيم: بارك الله لك، وجزاك خيرا. فلما ولّى، قلت: يا أبا عمران، ما منعك أن تأخذها؟ والله ما لامرأتك قميص، فقال: صدقت يا أبا سليمان، ولكن هذا الشاب من العرب لم يحنكه السنّ ولم تحنّكه الآداب، فكرهت أن يجلس في حيّه فيقول: أعطيت إبراهيم ألفي درهم، فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه».

وممن ذهب إلى هذا سفيان الثوري رضي الله عنه، كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه أن لا يذكره لإشفاقه عليه، لا من أجله، بل من ذهاب أجره، لأنه قيل في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. قال: المنّ: أن يذكره، والأذى: أن يظهره.

وقال الجنيد للرجل الخراساني الذي جاءه بالمال وسأله أن يأكله، فقال الجنيد: أنفقه على الفقراء، فقال الرجل: أنا أعلم بالفقراء منك، ولم أختر هذا، فقال له الجنيد: بل وأنا أؤمّل أن أعيش حتى آكل هذا، فقال: إنّي لم أقل لك أنفقه في الخلّ والبقل، وإنما قلت أنفقه في الطيبات وألوان الحلاوات، وكلما نفد أسرع كان أحب إليّ، فقال الجنيد: ومثلك لا يحلّ أن يردّ عليه، فقبله. فقال الرجل: ما ببغداد أحد أعظم منّة عليّ منك، فقال الجنيد: وما ببغداد أحد ينبغي أن يقبل منه شيء إلا من كان مثلك.

وكان السرّي السقطي يوصّل إلى أحمد بن حنبل رضي الله عنهما الشيء فيردّه،

فقال له سريّ: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال أحمد: أعد عليّ ما قلت، فأعاده، فقال له أحمد: «ما رددت عليك إلا وعندي قوت شهر، فأحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ».

وعلى الجملة، فلا ينبغي أن يأخذ المريد إلا من يدِ زاهدٍ عارف، فبذلك يسلم من الآفات ويُكفى من جميع المؤونات.

وقال أبو بكر الدقاق: «منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رفقا لأصحابنا إلاّ من بعضهم لبعض أو ممن يحبّهم، ومن لم تصحبه التقوى والورع في هذا الأمر أكل الحرام الصرف، وإن أراد أن يسأل أمثال هؤلاء فليفعل».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «كان بشر بن الحارث رضي الله عنه لا يقبل من الناس شيئا، وكان بعضهم يقول: أحب أن أعلم من أين يأكل؟ فقال له من يخبر أمره، أنا أدري من أين يأكل: كان له صديق عاقل. يعني نظيره في العقل والدين، لأن بعضهم كان لا يقبل إلا من النظراء ولا يقبل من الأتباع».

وهذا الصديق العاقل الذي كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر أمره ولا يلتقي معه هو السري بن مغلّس السقطي رضي الله عنه، قال بشر رضي الله عنه: «ما سألت أحد قطّ شيئا من الدنيا إلاّ سريا السقطي، لأنه قد صحّ عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرّم ببقائه عنده، فأكون قد أعنته على ما يحبّ».

وكان سري رضي الله عنه يوجّه إلى أحمد بن حنبل في حاجاته فيقبل منه، وكان

إذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء إنه ليعجبني أمره.

وإن بلغت به الحاجات كلّ مبلغ وأشرف على الضعف، وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يقدّر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب، ويسأل من دون هؤلاء ممن جهل حاله.

جاء في الأثر: «**من جاع، فلم يسأل، فمات، دخل النار**».

وقد سأل الناس عند الحاجة والفاقة نبيُّ الله تعالى موسى والخضر عليهما السلام لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧].

وكان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رضي الله عنهما يسأل من باب أو بابين، بين العشاءين، ويكون ذلك معلومه عند حاجته من يوم أو يومين، وكان له مقام في الزهد والتوكل، قال أبو طالب: «ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص».

ونقل عن أبي سعيد الخراز رضي الله عنه: أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول: ثمّ شيء لله.

ونقل عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاثة أيام ليلةً، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب.

وكان الثوري يسأل في البوادي من الحجاز إلى صنعاء اليمن، قال: كنت أذكر

لهم حديثا في الضيافة، قال: فيخرجون إلي طعاما، فأتناول حاجتي وأترك ما يبقى.

وليجتنب المريد الأكل بالدين وإرفاق النسوان، فإن قيل: كيف يردّ ما يعطاه في الوجوه التي حكمتم عليه بعدم الأخذ فيها، وهو إنما يأخذ من يد ربّه، كما تقدم، وهل الرادّ لذلك إلا راد على الله تعالى، فكيف يستقيم ذلك؟

فالجواب: أنّ القيام بحقّ الشريعة والطريقة لابدّ منه، والتوحيد لا ينافي ذلك، وقد قيل: «الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه».

وكلّ باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود، ووجه صحة الرد للعطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهر، إذ لا فرق في ذلك بين يد المعطي ويد الآخذ، فكما يشهد الآخذ يد الله تعالى في العطاء عند يد المعطي فيأخذ ما يعطاه عند موافقة العلم اتّباعا لإذن الله تعالى وأمره، يشهد يد الله تعالى في المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم، فلا يأخذه ولا يقبله اتّباعا لنهي الله تعالى عن ذلك وعدم إذنه فيه، كما فعله رسول الله ﷺ في الكبش الذي أهدي إليه مع السمن والأقط، وكما فعله فتح الموصلي والحسن البصري رضي الله عنهما مع روايتهما للحديث الذي ذكر فيه أن ردّ الهدية ردّ على الله تعالى، وقد تقدم ذكره بلفظه، فبهذا يندفع ذلك الخيال، والله تعالى الموفّق لصالح الأعمال.

وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة، لأن الحاجة ماسّة إليها، وليعلم من ذلك أنّ جميع تفاريعها ومسائلها داخل في كلام المؤلف رحمه الله تعالى، على حكم الإيجاز

والاختصار، وكلامه فيها من بديع الكلام ومستحسنه.

ولشيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه في معنى ما ذكره كلام بديع مختصر منتزع من كتاب الله عز وجل، نقله عنه في "لطائف المنن"، قال رضي الله عنه: «للناس أسباب، وسببنا نحن: الإيمان والتقوى، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقد جوّد المؤلف رحمه الله، صياغته وأحسن سياقته في مقصد الإرشاد والهداية، والله أعلم».

١٩٣. رُبَّمَا اسْتَحْيَا العَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلاَهُ، لاكْتِفَائِهِ بِمَشِيئَتِهِ، فَكَيْفَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ؟

قد تقدم أن من الأدب ترك الطلب والسؤال من الله تعالى اكتفاء بمشيئته، ورضا بسابق قسمته، وأن العارفين المحققين يستحيون من الله تعالى في ذلك، فكيف لا يستحيون من مولاهم عز وجل عند سؤالهم للمخلوقين؟ وهل أدبهم في ذلك واستحياؤهم من ربّهم إلا واجب عليهم، فلا يسألون منهم شيئا ولا يرفعون إليهم حاجة، لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله: (لا تتعد نيّة همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال).

قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: «ما من نفس ولا قلب إلا والله مطلّع عليه في ساعات الليل والنيل، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلّط عليه إبليس».

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: «من علامات المعرفة أن لا تسأل حوائجك قلّت أو كثرت إلا من الله سبحانه وتعالى، مثل موسى عليه السلام اشتقاق إلى الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] واحتاج مرة إلى رغيف فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[القصص: ٢٤]».

وذكر الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه أن بعض الفقراء كان يأتي كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف ما شاء الله تعالى ويخرج من جيبه رقعة ينظر فيها، فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك، ثم تباعد ومات، فجاء بعض من يرمقه ونظر في الرقعة فإذا فيها ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] قال: فكان الرجل أصابته الفاقة، فصبر ولم يظهر حاله لمخلوق حتى مات.

وقال أبو بكر الجوهري رحمه الله تعالى: «كنت بعسقلان على برج أحرس، فمرّ بي رجل عليه جبّة صوف متخرقة، فقمت إليه مسلما، وعانقته وأجلسته، وجاريت معه في فنون من العلم، وكانت قدماه حافيتين، فقلت له: لم لا تسأل أصحابك في نعل تقيك من الحفاء؟ فقال: يا أخي، لردّ أمسي بالحبال، وحبس عين الشمس بالعقال، ونقل ماء البحر بالغربال، أهون عليّ من موقف السؤال، وارتجائي من المخلوقين النوال. ثم أخرجني من باب المدينة، فانتهى بي إلى صخرة منقورة، فإذا عليها مكتوب: «كلْ من كدّ يمينك وعرق جبينك، فإن ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك».

قال في "التنوير": واعلم رحمك الله أن رفع الهمّة لسالكي طريق الآخرة عن الخلق وعدم التعرّض لهم أزين لهم من الحلي للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس، ومن خلعت عليه خلعة الملك فحفظها وصانها فحرّي بأن تدوم له ولا تسلب عنه. والمدنس لخلع المواهب حري أن لا تترك له، فلا تدنس أيها الأخ إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين. وكن أيها الأخ إبراهيميا، فقد قال أبوك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وما سوى الله آفل، إما وجودا وإما إمكانا، وقد قال سبحانه ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي: اتبعوا ملته. فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم، ومن ملته رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زجّ به في المنجنيق تعرضّ له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال له: أما إليك فلا، وأما إلى الله تعالى فبلى، قال: فاسأله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فانظر كيف رفع همته عن الخلق، ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من ربّه، بل رأى ربّه أقرب إليه من جبريل عليه السلام ومن سؤاله، فلذلك سلمه من نمرود ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصّه بوجود إقباله.

ومن ملة إبراهيم معاداة كلّ ما شغل عن الله وصرف الهمّة بالرد إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] والغنى - إن أردت الدلالة عليه - فهو: اليأس من الناس.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «يئست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لنفسي، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي. وهذا هو الكيمياء والأكسير الذي من حصل له يحصل له غنى لا فاقة بعده، وعز لا ذل معه، وإنفاق لا نفاد له، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله».

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «صحبني إنسان وكان ثقيلا عليّ، فبسطته يوما، فانبسط، فقلت له: يا ولدي، ما حاجتك ولم صحبتني؟ فقال: يا سيدي، قيل لي إنك تحسن الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ذلك، فقلت له: صدقت وصدّق من حدّثك، ولكني أخالك لا تقبل، فقال: بل أقبل. فقلت له: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء وأحباء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكوني بشوكة لم يردني الله بها، فقطعت نظري عنهم، ثم تعلقت بالأحباء فوجدتهم لا يستطيعون أن ينفعوني بشيء لم يردني الله به، فقطعت نظري عنهم وتعلقت بالله تعالى، فقيل لي: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منّا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك في الأزل».

وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء: «أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربّك أن يعطيك غير ما قسم لك».

قال: وليس يدلّ على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، وإنما يدلّ على نوره وفهمه غناه بربّه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رقّ الطمع، وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا

مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله، والاكتفاء به، والاعتماد عليه، ورفع الحوائج إليه، والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى». انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام صاحب "التنوير" وهو من الكلام النفيس الخطير.

وأنت رحمك الله إذا تأملته بعين بصيرتك، ناصحا لربّك في علانيتك وسريرتك، علمت منه أنّ ما تضمنه عظيم الموقع، وأنه مستحسن منّا إيراده في هذا الموضع، إذ هو منوط بالإيمان والتوحيد، محتاج إليه كل سالك ومريد، فمن رعاه حق رعايته، وصرف إلى العمل بمقتضاه عنان عنايته، فقد تحقق بمحاسن الإيمان، وكان من ولاية الله تعالى بمكان، ومن أهمله وضيّعه، وجهل قدره وموضعه، خيف عليه من الوقوع في الشرك الخفي والجليّ، واستحق بذلك أن يطرد عن باب مولاه العليّ، فيقوى طمعه في الخلق، ويضيق عليه متسعات أبواب الرزق، كما قال بعض العارفين المكاشفين: «قيل لي في نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم: لا تبدين فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك، مكافأة لسوء أدبك، وخروجك عن حدّك في عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إليّ، وتتضرع بها لدي، وتتوكل فيها عليّ، سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفنّ بعد السبك. وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي وحسمت أسبابك من أسبابي، طردا لك عن بابي، فمن وكلته إليّ ملك، ومن وكلته إليه هلك»، انتهى.

ومنهم من يأنف من قبول الرفق على أيدي الخلق وترتفع همته عن ذلك وإن لم يكن سؤال ولا طلب، يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى أنه قال: كان في جواري امرأة أرملة لها أيتام، وكانت ليلة ذات مطر، فسمعت صوتها تقول: يا رفيق ارفق. فخطر ببالي أنها أصابتها فاقة، فصبرت حتى احتبس المطر، فحملت معي عشرة دنانير، ودققت عليها الباب، فقالت: حماد بن سلمة؟ فقلت: نعم، كيف الحال؟ فقالت: بخير وعافية، احتبس المطر ودفئ الصبيان. فقلت: خذي هذه الدنانير وأصلحي بها بعض شأنك، قال: فصاحت بنية لها خماسية، أتريد يا حماد أن تكون بيننا وبين معبودنا واسطة؟ ثم قالت لأمها: لمَ رفعت صوتك بإظهار السرّ، علمت أن الله يؤدبنا بإظهار الرفق على يد مخلوق.

وذكر شيخ عبد الرحمن السلمي، عن ابن عباس بن دهقان قال: كنت عند بشر ابن الحارث رضي الله عنه وهو يتكلم في الرضا والتسليم فإذا هو برجل من المتصوفة، فقال له: يا أبا نصر، انقطعت عن أخذ البرّ من أيدي الخلق لإقامة الجاه، فإن كنت متحققا بالزهد منصرفا عن الدنيا فخذ من أيديهم لينمحي جاهك عندهم، واخرج بما يعطونك إلى الفقراء، وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب، فاشتد ذلك على أصحاب بشر، فقال بشر: اسمع أيها الرجل الجواب: الفقراء ثلاثة؛ فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فذلك من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه، وإن أقسم على الله أبرّ قسمه. وفقير لا يسأل، وإن أعطي قبل، فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى، فهو ممن توضع له

الموائد في حظيرة القدس. وفقير اعتقد الصبر وموافقة الوقت، فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة سؤاله صدقه، فقال الرجل: رضيت، رضي الله عنك.

١٩٤. إِذَا التبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَانْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لاَ يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلاَّ مَا كَانَ حَقًّا.

هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس، لأنها مجبولة على الجهل والشره، فشأنها أبدا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، كما تقدّم عند قوله: (حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي).

فإذا وجد المريد من نفسه ميلا وخفّة بعض الأعمال دون البعض اتهمها، وترك ما مالت إليه وخف عليها، وعمل بما استثقلته.

قال بعض العارفين: «منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة».

وسكون القلب إلى النفس هو: اتباعه للأخف عليها دون الأثقل، وهو معدود عندهم من نفاق القلب. ومن بقي عليه شيء من دواعي الهوى وإن قلّ، لا يؤمن عليه من مثل هذا، فخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها، وهواها لا يميل إلا إلى الباطل، فإذا التبس عليك أمران، واجبان أو مندوبان، ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر، فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به.

وإنما قلنا باعتبار غالب الأنفس، لأن النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا

بالشره، فقد يخفّ العمل عليها، ولا يدل ذلك على أنه باطل، فليكن نظر العبد حينئذ إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزيّة فليقدّمه على غيره.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه حكاية عجيبة في شره النفس وكونها لا تميل إلا إلى الباطل، قال: «حدّثني بعض إخواني عن بعض هذه الطائفة قال: قدم علينا بعض الفقراء، فاشترينا من جار لنا حملا مشويا، ودعوناه إليه في جماعة من أصحابنا، فلما مدّ يده أخذ لقمة وجعلها في فيه، ثم لفظها، ثم اعتزل، وقال: كلوا أنتم، فإنه قد عرض لي عارض منعني من الأكل، فقلنا: لا نأكل إن لم تأكل، فقال: أنتم أعلم، أما أنا فغير آكل، ثم انصرف. قال: فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا: لو دعونا الشوّاء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعلّ له سببا مكروها، فدعوناه، فلم نزل به نسأله حتى أقرّ أنه كان ميتة، وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصا على ثمنه، فشواه، ووافق أنكم اشتريتموه قال: فرميناه للكلاب. قال: ثم إني لقيت الرجل بعد وقت فسألته: لأي معنى تركت أكله وبأي عارض؟ فقال أخبرك: ما شرهت نفسي إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التي ريضتها بها، فلما قدمّتم إلى هذا شرهت نفسي إليه شرها ما عهدته قبل ذلك، فعلمت أن في الطعام علة، فكرهت أكله لأجل شدة شره النفس إليه».

قال الشيخ أبو طالب المكي: فانظر رحمك الله، كيف اتفقا في شره النفس على قصة واحدة، ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان، فعصم العالم بالورع والمحاسبة، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة، أعني: البائع للحمل، وعصم

الآخرون للتوفيق بحسن الأدب، وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشتري وحسن نيته، انتهى.

وثم ميزان آخر أصلح، وأكثر تحقيقا من الأول، وهو أن يقدّر نزول الموت به، فأيّ عمل سرّه أن يكون مشغولا به إذ ذاك فهو حق وما عداه باطل.

قال في "لطائف المنن": والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان في دائرة الوقت، أما الرتب فكما تقدم، يعني: أنه علامة صحة مرتبة الولاية، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر لا تدري هل يرضى الله فعله أو تركه، أو حالة أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى؟ فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال، فكلّ حالة وعمل تثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطلة، إذ الموت حق، والحق يهزم الباطل ويدفعه لقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ: ٤٨] ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وما كنت فيه قائما بحق، لم يهزمه الموت، إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق.

قال: وتجاذبت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النيّة فيه، وأنه لا يشتغل به إلا لله تعالى، فقلت له: الذي يقرأ العلم لله، هو الذي إذا قلت له تموت غدا، لا يضع الكتاب من يده، انتهى.

قلت: وهذا هو فصل الخطاب ونهاية الصواب، فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فهذا هو المطلوب من العبد، ولا يستتم له ذلك إلا أن يتحقق بما يقدره من حلول الموت وصول الفوات. وهذا هو معنى قصر الأمل الذي هو أصل حسن العمل، وهو أن لا يقدّر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا، وعند ذلك يخلص عمله من الآفات، ويتطهر من أنواع الرعونات، لأن توقع الموت في كل نفس ولحظة يهدم عليه جميع ذلك، كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلا عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققا به، لم يسلم مما ذكرناه.

فإذن بعيد من الإخلاص من يأخذ في علم غير متعين عليه الأخذ فيه، لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال، ويكون في الحالة الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها، ويتنجز له حصول التقرّب بها، لأن في ذلك قوة نفسه ووفارة حظّه، وآية ذلك: أنه قد يعرض له في حال أخذه فيه غرض دنيوي يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدّمه على ما كان آخذا فيه، ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك.

وإنما عبّرنا بلفظ الأخذ ليدخل فيه تعلّم المتعلّم، وتعليم المعلّم، فإن الأمر فيهما واحد، وكل عمل لا إخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردود على صاحبه، مضروب به وجهه.

وبهذا يتبين لك غرور أكثر الخلق في علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى.

ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل، ويودّون أن لو أنسئ لهم في الأجل، وهيهات هيهات، فنعوذ بالله من الغفلة في زمان المهلة، فإنها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابد، وما ذكرنا من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لا يصلح إلا لمن أيده الله بنور اليقين، وجبله على النصيحة في الدين، وكان له حظّ وافر من الخوف والحذر، وموافقة مولاه في كل ورد وصدر.

ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال، متعذر إدراكها إلا من الآحاد من الرجال، وسبيل من لم يصل إليها ممن ذكرناه إذا كان منصفا أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالا، وأصوب مقالا وفعالا، ويفوّض جميع أموره إليه، ويعتمد إشارته في كلّ ما يشير به عليه، وعلامة إنصافه وجود اتهامه لنفسه، وعدم اعتماده على عقله وحدسه، ومن لم يكن منصفا فالكلام معه هذيان فاسد، وضرب في حديد بارد، وسيأتي مزيد تنبيه على غرور الآخذين في العلم في موضع أليق من هذا.

١٩٥. مِنْ عَلاَمَاتِ اتِّبَاعِ الهَوَى المُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ القِيَامِ بِالوَاجِبَاتِ.

هذه من الصور التي يتبين بها خفّة الباطل وثقل الحق على النفس.

وما ذكره هو حال أكثر الناس، فترى الواحد منهم إذا عقد التوبة لا همّة له إلا

في نوافل الصيام والقيام، وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام، وما أشبه ذلك من النوافل، وهو مع ذلك غير متدارك لما فرّط فيه من الواجبات، ولا متحمل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم، ولم يحفلوا بمجاهدة أهوائهم التي استرقتهم وملكتهم، ولو أخذوا في ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل، ولم يجدوا فسحة لشيء من التطوعات والنفل.

قال بعض العلماء: «من كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع». وقال محمد بن أبي الورد رضي الله عنه: «هلاك الناس في حرفتين: اشتغال بنافلة وتضيع فريضة، وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول».

وقال الخوّاص رضي الله عنه: «انقطع الخلق عن الله بخصلتين، إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيّعوا الفرائض، والثانية: أنهم عملوا أعمالا بالظاهر، ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبى الله أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق».

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحالته التي أقيم فيها، وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نهي عنه بعلم يرشده في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك، ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض، لأن النفل لا يصلح إلا بعد حوز

السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حوز رأس المال، فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب»، اهـ.

١٩٦. قَيَّدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الأَوْقَاتِ كَيْ لاَ يَمْنَعُكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الاختيار.

أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالأوقات بنعمتين عظيمتين، إحداهما: تقييدها لك بأعيان الأوقات لتوقعها فيها، فتفوز بثوابها ولو لم يفعل هذا لسوّفت بها، ولم تعمل حتى تفوت فيفوتك ثوابها.

والنعمة الثانية: توسيع أوقاتها عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتي بالطاعات في حال سكون وتمهّل من غير حرج ولا ضيق، ولله الحمد على نعمته.

١٩٧. عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلاَسِلِ الإِيجَابِ، «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ».

لما علم الله تعالى قلّة نهوض العباد إلى معاملته الواجبة له عليهم، من إقامة العبودية لمشاهدة الربوبية في حال طواعية منهم، إذ في ذلك قرّة أعينهم وغاية نعيمهم، أوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم، لأجل ما خوّفهم به إن لم يفعلوا، فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره إليه، واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم مما لا علم لهم به، وفعل بهم ما يفعل بالصبي، ألا تراه كيف يؤدبّ ويضرب على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته، ويلزم أمورا شاقة عليه فيفعلها

وهو كاره لذلك، والغرض إنما هو حصوله على منافعه التي هو جاهل بها، فإذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا.

وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، كما فعل بأسارى الكفار حين يراد منهم الدخول في الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم، وهذا حديث يروى عن رسول الله ﷺ هكذا: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ أَقْوَامٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ**» قلت: وتعبير المؤلف رحمه الله، بالسلاسل والسوق بها، واستعماله ذلك في التكاليف الواجبة التي ألزم العباد القيام بها من بديع الاستعارات، كما قال الشاعر، وهو أبو خراش الهذلي:

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك، والإشارة به إلى مقصوده في غاية الحسن.

قال بعض العلماء: يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله تعالى فيه: إظهار عجب هذا الأمر لخلقه، لأنه بديع الشأن، وهو أن الجنة التي أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم، والعيش الدائم، والخلود فيها الذي من حكم من سمع به من ذوي العقول أن يسارع إليها ويبذل مجهوده في الوصول إليها ويتحمل المكاره والمشقات لينالها، هؤلاء يمتنعون عنها ويرغبون عنها ويزهدون فيها حتى يقادوا إليها بالسلاسل، كما يقاد إلى المكروه العظيم الذي تنفر منه الطباع وتألم منه

الأبدان وتكرهه النفوس، وقد قرأ جماعة من القراء ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] بضم التاء، وفي حديث رسول الله ﷺ: «لَقَدْ عَجِبَ الله مِنْ فُلاَنٍ وفُلاَنَةٍ» فِيْ قِصَّةِ الأَنْصَارِيِّ الَّذِيْ قَالَ لِإِمْرَتِهِ: «أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله ﷺ»، وهو حديث صحيح مشهور.

فالعجب منسوب إلى الله تعالى، قد ورد في الكتاب والسنة، فهو إذن من الصفات السمعية.

١٩٨. أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلاَّ دُخُولَ جَنَّتِهِ.

هذه عبارة حسنة موافقة لمعنى ما تقدّم، والمقصود من هذا كله الإعلام بأن الله تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيته، وأن التكاليف كلها إنما أوجبها عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم لا غير.

قلت: وما ذكره المؤلف رحمه الله، هو حال عامة الناس الذين من شأنهم التأني وعدم الانقياد للأوامر والنواهي، ولذلك احتاجوا إلى التخويف والتحذير والموالاة للحضّ والمبالغة في النكير.

وأما الخاصة منهم فلم يحتاجوا إلى شيء من ذلك، لن الله تعالى شرح صدورهم ونوّر بصائرهم، وكتب في قلوبهم الإيمان وحبّب إليهم الطاعة وبغّض إليهم العصيان، فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط، بل أضافوا إلى ذلك المبادرة إلى أعمال الطاعات، والمسارعة إلى

نوافل الخيرات، وبالجملة صارت أعمالهم كلها قربات، وذلك لتمام حريتهم وصحة عبوديتهم، «**نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه**».

قال في "التنوير": «إنما جعل الحق سبحانه الإيجاب على العباد علما منه بما هم عليه من وجود الضعف، وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فأوجب عليهم ما أوجبه لأنه لو خيّرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين إلا قليلا، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فأوجب عليهم وجود طاعته».

وفي التحقيق: ما أوجب عليهم إلا دخول جنته فساقهم إلى الجنة بسلاسل الإيجاب: «**عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل**».

قال: واعلم رحمك الله، أنا تلمحنا الواجبات، فرأينا الحق سبحانه جعل في كل ما أوجبه تطوّعا من جنسه في أيّ الأنواع كان ليكون ذلك التطوّع من ذلك الجنس جابرا لما عساه أن يقع من الخلل في قيام العبد بالواجبات، وكذلك جاء في الحديث: «**إنه ينظر في مفروض صلاة العبد فإن نقص منها شيء كمل من النوافل**» فافهم رحمك الله هذا، ولا تكن مقتصرا على ما فرض الله عليك، بل لتكن فيك ناهضة حبّ توجبّ إكبابك على معاملة الله تعالى فيما لم يوجبه عليك، ولو كان العباد لا يجدون في موازينهم إلا فعل الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة ما لا يحصره حاصر، ولا يحرزه حارز، فسبحان الله الفاتح للعباد باب المعاملة، والمهيأ لهم أسباب المواصلة.

قال: واعلم أن الحق سبحانه، علم أن عباده ضعفاء وأقوياء، فأوجب الواجبات وبيّن المحرمات، فالضعفاء اقتصروا على القيام بها أوجب والترك لما حرّم، وليس في قلوبهم من سلطان الحبّ ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير إيجاب، فمثلهم مثل العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه لم يهد إليه شيئا، فلذلك وقّت سبحانه الأوراد، ووظّف وظائف العبودية، وعرف ذلك بالطالع والغارب والزوال وصيرورة ظلّ كل شيء مثله في الصلاة، وبالحول في الأموال النامية العين والماشية، وبوقت حصول المنفعة في الزرع ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وبعشر ذي الحجة في الحج، وبشهر رمضان في الصيام، فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعي في الأسباب.

وأهل الله هم أهل الفهم عنه جعلوا الأوقات كلها وقتا واحدا، والعمر كله نهجا إلى الله تعالى قاصدا، فعلموا أن الوقت كله له، فلم يجعلوا شيئا منه لغيره.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «عليك بورد واحد، وهو: إسقاط الهوى ومحبة المولى، أبت المحبة أن تستعمل محبّا إلا فيما يوافق محبوبه». وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم فعلموا أنهم مطالبون برعايتها، فوجّهوا هممهم لذلك، وكما أن له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك دائمة، فربوبيته غير مؤقتة بالأوقات، فحقوق ربوبيته عليك ينبغي أن تكون أيضا كذلك، لذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «إن لكل وقت سهما يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية».

١٩٩. مَنِ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ، فَقَدِ اسْتَعْجَزَ القُدْرَةَ الإِلَهِيَّةَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

من استرقته الشهوة، واستولت عليه الغفلة فلا ينبغي له أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه، فإنّ في ذلك نسبة العجز إلى القدرة الإلهية، والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شيء، وهذا من الأشياء.

وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده، فلا يقنط ولا ييأس، وليقصد باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تروى عن الصالحين الذين تقدّمت لهم في بدايتهم الزلاّت، ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات، فتداركهم الله تعالى بلطفه، واستنقذهم بجوده وعطفه، فأصلح أعمالهم، وصفى أحوالهم، وأبدل سيئاتهم حسنات، ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات، كل ذلك في أقرب زمان، وأقصر مدّة وأوان.

والحكايات في هذا المعنى عن الشيوخ –مثل سيدي الفضيل بن عياض وعبد الله ابن المبارك وأبي عقال بن علوان وغيرهم رضي الله عنهم– معروفة ومشهورة.

ومن أغرب ما رأيته في هذا المعنى ما رواه عبد الصمد بن مغفل عن عمه وهب

ابن منبه رضي الله عنهما: أن رجلا قتل نفسا فجاء إلى سائح من سائحي بني إسرائيل، فسأله عن ذلك، قال: فرفع له السائح من الأرض عرجونا أبيض قديما حائلا، ثم قال له: إذا اخضرّ هذا العرجون قبلت توبتك، وأراد السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظيم ذنبه.

فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع في التوبة ويعزم، فتاب، وجعل يعبد الله زمانا، ويدعو حتى اخضرّ ذلك العرجون بإذن الله تعالى وقدرته.

وأغرب من هذا وأعجب ما خرّجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْبَدِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لِيَ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ المِائَةَ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ عز وجل مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أتى نِصفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى الله، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ**».

قال قتادة، قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره.

وقال عيسى بن دينار: «كان يقال: ما وفق الله عبدا لعمل إلا وهو يريد أن يقبله منه، ولا وفّق الله عبدًا لنزوع عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفره له».

وقد ذكر القاضي يونس بن عبد الله المعروف بابن الصفار رحمه الله في كتاب "التيسير لصالح العمل" أنه أخبره ثقة من أهل العلم قال: كان رجل من أهل الأدب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة، فدعوه ذات يوم فلم يجبهم، فقالوا له: ما يمنعك من إجابتنا؟ فقال: دخلت البارحة في الأربعين، وأنا أستحي من سنّي، ثم لزم الخير والعبادة.

قال: وروي عن عمر بن عبد العزيز ﷺ أنه قال: «وجبت حجة الله على ابن الأربعين».

وذكر فيه أيضا عن مغيث بن سمي قال: كان رجل من بني إسرائيل يعمل بالخطايا، فبينما هو يسير ذات يوم ذكر ما سلف من عمله فقال: اللهم غفرانك، فمات على ذلك الحال، فغفر له.

وذكر فيه أيضا عن رجل من العلماء أنه رأى في منامه شيخا وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه، قال: فقلت له: أيها الشيخ أخبرني بأحكم بيت قالته العرب، فأنشدني:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد

قال: فوالله لقد نفعني الله عز وجل بهذا البيت، ما ذكرته بعد ذلك عند شهوة

أو خطيئة إلا ارتدعت عنها، وأرجو أن لا يفارقني الانتفاع به ما بقيت إن شاء الله تعالى.

وفي الكتاب المذكور حكايات مستحسنات في هذا المعنى، فطالع ذلك فيه والله المستعان لا ربّ غيره.

٢٠٠. رُبَّمَا وَرَدَتِ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ.

الظلم: أضداد الأنوار، فما من نور إلا وفي مقابلته ظلمة، وكل ظلمة على قدر نورها، والشيء يعرف بضدّه، كما قيل: وبضدّها تتبين الأشياء.

فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة في ليالي الهجر والفقر، فإنما ذلك ليعرّفك قدر ما منّ عليك من أنوار التجليّ والحضور في نهاية القربة والوصلة، فجميع ذلك نعم سابغة عليك من غير علم منك بذلك.

٢٠١. مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدَانِهَا، عَرَفَهَا بِوُجُودِ فُقْدَانِهَا.

أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها، وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم.

قال سريّ السقطي رضي الله عنه: "من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم».

وقال الفضيل رضي الله عنه: "عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم».

وقال بعض البلغاء: "إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تميمة».

وقال آخر: «شكر النعمة عصمة من حول النقمة» وفي معنى هذا قيل: «إنما يعرف قدر الماء من بلي بالعطش في البادية، لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية» وقيل أيضا: «الولد العاقّ المصرّ على تأبيه، إنما يعرف قدر الآباء يوم وفاة أبيه» وقيل: «نعم الله مجهولة، وتعرف إذا فقدت».

ومن دعاء بعض الصالحين: «اللهم عرّفنا نعمتك بدوامها، ولا تعرّفها لنا بزوالها».

قلت: ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله ﷺ بالنظر إلى من هو أسفل منا، لئلا نزدري نعمة الله علينا، والسعيد من وعظ بغيره، قال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة ﵁: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**».

وروي أيضا عنه ﷺ أنه قال: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ**».

قال الشيخ أبو حامد رضي الله عنه: «كان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم، ويحضر حبس السلطان ويشاهد أرباب الجنايات ومحنهم في التعرض لإقامة العقوبات، ويحضر المقابر فيشاهد أصحاب العزاء وتأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم

فيه، وكان يعود إلى بيته ويشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من تلك البلايا». اهـ.

وكان الربيع بن خيثم رضي الله عنه حفر في داره قبرا، وكان يضع في عنقه غلاً، وينام في لحده، ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] ثم يقوم ويقول: يا ربيع، قد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا تردّ.

وهذا كله موافق لأمر رسول الله ﷺ في الحديثين المذكورين، ولا طريق للعبد الغافل إلى تعرّف النعم الموجودة لديه أبلغ منه، فإذا عرف نعم الله تعالى عليه اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه، فلا يكون له سبيل إليها، وقد تقدّم من كلام المؤلف رحمه الله: (من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها).

٢٠٢. لاَ تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ القِيامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ.

إذا ترادفت نعم الله تعالى عليك فلا ينبغي أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك، وأن لا قبل لك به فتتركه، فإن الله تعالى رفع قدرك وأعلى أمرك وجعل القليل منك كثير، وأشهدك من حسن تولّيه لك، ونسبة أفعالك إليه ما يؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك، فلم تبخس نفسك حقّها

عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الأمر، لا على وجه الأدب والإتيان من الشكر بما وجب كأن الأمر في ذلك إليها.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها، والنعمة التي ألهم الله بها الحمد أفضل من الأولى، لأن بالشكر يستوجب المزيد»، وفي أخبار داود عليه السلام: «إلهي، ابن آدم، ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أنّ ما بك من نعمة فمنّي».

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إليه: «إني بأرض قد كثرت فيها النعم حتى أشفقت عليّ من قبل ضعف الشكر»، فكتب إليه عمر: «إني كنت أراك أنك أعلم بالله ممّا أنت، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزّل، قال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٣ - ٧٤] الآيات، وأيّ نعمة أعظم من دخول الجنة؟».

٢٠٣. تَمَكُّنُ حَلاَوَةِ الهَوَى مِنَ القَلْبِ هُوَ الدَّاءُ العُضَالُ.

القلب محل الإيمان والمعرفة واليقين، وهذه هي الأدوية لأمراضه التي أوجبها وجود الهوى والشهوة، فإذا تمكّن الداء من القلب لم يبق للدواء محل، فلذلك أعضل أمره وتعذر برؤه.

٢٠٤. لاَ يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ القَلْبِ إِلاَّ خَوْفٌ مُزْعِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ.

الشهوة المتمكنة من القلب لا يخرجها إلا وارد قوي قاهر غلاّب يرد عليه، وذلك: إمّا خوف مزعج، أو شوق مقلق، وما عدا هذين الأمرين لا استقلال له بذلك.

٢٠٥. كَمَا لاَ يُحِبُّ العَمَلَ المُشْتَرَكَ كَذَلِكَ لاَ يُحِبُّ القَلْبَ المُشْتَرَكَ، العَمَلُ المُشْتَرَكُ لاَ يَقْبَلُهُ، وَالقَلْبُ المُشْتَرَكُ لاَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ.

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنّع، والقلب المشترك هو الذي فيه محبة غير الله، والسكون إليه والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه إلى نفسه، فالعمل المشترك لا يحبّه ولا يقبله ولا يثيب عليه لفقد الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يحبه ولا يقبل عليه ولا يرضى عنه لعدم وجود الصدق فيه، فمن صحح أعماله بالإخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله تعالى، مثابا مرضيا عنه، وإلا فلا.

وقال رضي الله عنه:

٢٠٦. أَنْوَارٌ أَذِنَ لَهَا فِي الوُصُولِ، وَأَنْوَارٌ أَذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ.

الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين:

أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط.

وأنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه.

فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربّه، ودنياه وآخرته، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربّه، وطورا يسعى في العمل لآخرته، وطورا يعمل في أمور دنياه.

والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلاّ وجود الله عز وجل، فلذلك لا يحبّ سواه ولا يعبد إلاّ إيّاه.

قال بعض العارفين: «إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا، وكان مرّة مع الله تعالى ومرّة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه».

وفي لفظ آخر: «إذا كان الإيمان في ظاهر القلب – يعني أعلى الفؤاد– كان المؤمن يحب الله حبًا متوسطا، فإذا دخل الإيمان في باطن القلب وكان في سويدائه أحبه الحب البالغ».

قال الشيخ أبو طالب المكي: «ومحبة العبد ذلك: أن ينظر، فإن كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلّب محبته على هواه حتى تصير محبّة الله هي محبّة العبد من كل شيء فهو محبّ لله تعالى حقا، كما أنه مؤمن به حقا، وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك».

وقال بعض العلماء: «ظاهر القلب محل الإسلام وباطنه مكان الإيمان، فمن هاهنا يتفاوت المحبّون في المحبّة، لفضل الإيمان على الإسلام وفضل الباطن على الظاهر».

٢٠٧. رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ فَوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ الآَثَارِ فَارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ، فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَارِ يَمْلؤهُ بِالمَعَارِفِ وَالأَسْرَارِ.

الأنوار الإلهية قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعا لاستقرارها، لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدّسة مطهّرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلّي المعارف والأسرار له، ففرّغه من الأغيار وامح عنه صور الآثار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد تقدّم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته).

٢٠٨. فَلاَ تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبَالِ.

تقدّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: (لا تطالب ربّك بتأخير مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك)، والعبارتان متفقتان معنى وإن اختلفا لفظا.

٢٠٩. حُقُوقٌ فِي الأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، وَحُقُوقُ الأَوْقَاتِ لاَ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلاَّ وَلله عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ الله فِيهِ؟.

الحقوق الكائنة في الأوقات هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما، فمن فاته شيء منها في وقته المعين أمكنه قضاؤه في وقت آخر، إذ قد جعل له في ذلك مجال رحب فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق.

والحقوق المضافة إلى الأوقات هي المعاملات الباطنة التي تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه، ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك.

فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه، إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به أو وارد يرد عليه حقٌّ جديد وأمر أكيد، ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك، فإن فاته لم يجد مجالا لقضائه، ولا يمكنه ذلك.

فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنه قضاؤها إن فاتت.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «أوقات العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. ولله تعالى عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية:

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البليّة فسبيله الرضا بالقضاء والصبر.

والرضا: رضا النفس عن الله، والصبر: مشتق من الإصبار، وهو: نصب الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضًا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر. والصبر ثبات القلب بين يدي الربّ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ**»، ثُمَّ سَكَتَ رَسُوْلُ الله ﷺ، فَقَالُوا: مَاذَا لَهُ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]. أي: لهم الأمن في الآخرة، وهم المهتدون في الدنيا.

٢١٠. مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لاَ عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لاَ قِيمَةَ لَهُ.

عمر العبد ميدان لأعماله الصالحة المقرّبة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب في الدار الآخرة.

وهذه هي السعادة التي لها يكدح العبد ويسعى من أجلها، وليس له منها إلا ما

سعى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] فكل جزء يفوته من العمر خاليا من عمل صالح، يفوته من السعادة بقدره ولا عوض له منه.

قال الجنيد رضي الله عنه: «الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعزّ من الوقت»، وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من ذلك يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك، لأنه في غاية الشرف والنفاسة، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير.

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «بقية عمر المرء ما لها ثمن يدرك فيها ما فات ويحيي ما أمات».

وقد نظم بعض الشعراء في المعنى، رحمه الله وأرضاه، فقال:

بقية العمر عندي ما لها ثمن ... وإن غدا غير محسوب من الزمن
فيستدرك المرء فيها كلّ فائتة ... من الزمان ويمحو السوء بالحسن

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس رضي الله عنه وهو يريد "الجمعة": «قف حتى أكلمك، فقال له: لولا أني أبادر لوقفت لك، قال له: وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحي».

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: «أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق

منكم على دنانيركم ودراهمكم» يقول: كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه، فكذلك لا يحبّون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه.

وقال السري السقطي رضي الله عنه: «خرجت من بغداد أريد الرباط، إلى عبادان لأصوم بها رجب وشعبان. فاتفق لي في طريقي علي الجرجاني، وكان من الزهّاد الكبار، فدنا وقت إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص، فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام لن تفلح ولن تدخل في سنن المحبين، فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير، فسفّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ والسفّ سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة».

وفي الخبر: «**ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة**»، ويقال: «إن العبد تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء، لما كان أودع خزائنه من ساعاته في الدنيا من الحسنات فيسرّه ذلك ويغتبط به، فإذا مرّت به في الدنيا ساعاته التي لم يذكر الله فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها، فيسوؤه ذلك ويتحسّر عليه كيف فاته، حيث لم يدّخر فيها شيئا فيرى جزاءه مدخورا، ثم يلقى في نفسه الرضا والسكون».

وجاء في الخبر: «**إن أهل الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوق أضاءت**

منه منازلهم كما يضيء الشمس والقمر لأهل الدنيا، فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليّين، يرونهم كما يرون الكوكب الدريّ في أفق السماء، وقد فضّلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم المقيم كما فضّل القمر على سائر النجوم، فينظرون إليهم يطيرون على نجب تسرح بهم في الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادونهم هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنّا نصلي كما تصلّون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فضلّتم به علينا؟ فإذا النداء من قبل الله تعالى: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين ترْوون، ويعرون حين تكتسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فضّلوا عليكم اليوم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: «رؤي بعضهم مجتهدا، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بالجهد وأنا أطمع أن ألحق الأبرار والكبار من السلف، قال الله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي معناه أنشدوا:

السباق السباق قولا وفعلا حذّر النفس حسرة المسبوق

٢١١. مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلاَّ كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لاَ يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا.

المحبّة للشيء تقتضي الانقياد له وشدّة العلاقة به، وأن لا يبغي به بدلا كما قيل: «حبّك للشيء يعمي ويصم».

وذلك معنى استعباده للمحب له، فمن أحب غير الله عز وجل فقد استعبده ذلك الغير كائنا ما كان، والله لا يحب أن تكون لغيره عبدا، ولا يرضى بذلك «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَالخَمِيصَةِ وَالقَطِيفَةِ وَالزَّوْجَةْ**».

وقال محمد بن السماك: «كتب إليّ أخ: إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبدا ما وجدت من العبودية بدًّا فافعل».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «إنك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديتك بقية».

وسئل عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مصّ نواة فقال: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم».

ومن الحكايات في هذا المعنى ما ذكر عن أبي عبد الله الرازي رضي الله عنه نزيل نيسابور قال: «كساني ابن الأنباري صوفا، ورأيت على رأس الشبلي قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف، فتمنيت في نفسي أن يكونا جميعا لي، فلما قام الشبلي من مجلسه إلتفت إليّ فتبعته، وكان من عاداته إذا أراد أن أتبعه أن يلتفت إليّ، فلما دخل داره دخلت، فقال: انزع الصوف، فنزعته، فلفّه وطرح عليه القلنسوة، ودعا بنار فأحرقهما».

ومثل هذا، مما كان ينكره عليه من لم يعرف مقصوده في ذلك، شيء كثير ورد عنه.

٢١٢. لاَ تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَذِهِ وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ.

الحق تعالى غنيّ عن أعمال العاملين، لأنه منزّه عن الأعواض والأغراض، فلا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك ونهاك لما يعود عليك من المصالح والمنافع في الدارين لا غير، وذلك على سبيل التفضّل منه من غير إيجاب عليه، وقد تقدّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: (عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل).

قال في "لطائف المنن": «اعلم رحمك الله أنّ الله لم يأمر العباد بشيء وجوبا أو يقتضيه منهم ندبا إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء، تحريما أو كراهة إلا والمصلحة لهم في ترك ما أمرهم بتركه وجوبا أو ندبا، ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده، بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضّل، فليت شعري إذا قالوا: يجب على الله رعاية مصالح عباده، فمن هو الموجب عليه؟

ثم إذا نظرنا فرأينا كلّ ما هو واجب أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله، وكلّ منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه، فإذًا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه، لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله، فلذلك أمر بها، والمعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها» اهـ.

٢١٣. لاَ يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ.

عزّة الله تعالى صفة من صفات ذاته، وصفاته في غاية الكمال والتمام، فهي منزّهة عن الزيادة والنقصان وسببية العلل.

٢١٤. وُصُولُكَ إِلَى اللهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ، وَإِلاَّ فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيءٌ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيءٍ.

الوصول إلى الله تعالى الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة: هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى، وهذا هو غاية السالكين، ومنتهى سير السائرين، وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه.

وقال الجنيد رضي الله عنه: «متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، هيهات! هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان».

قال الشيخ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي، صاحب كتاب "عوارف المعارف"رحمه الله تعالى: «واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ وكلّ من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان، فهو رتبة في الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلّي، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول، ومنهم من يقف في مقام الهيبة والأنس بما

يكاشفه قلبه من مطالعة الجمال والجلال، وهذا تجلّ بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول، ومنهم من يرتقي إلى مقام الفناء مشتملا باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، ومعمًّى في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجليّ الذات لخواصّ المقربين، وهذه رتبة في الوصول، وفوق هذا رتبة حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه، وهذا من أعلى مراتب الوصول».

فإذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه في أوّل المنزل فأين الوصول؟ هيهات! منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف بالعمر القصير الدنيوي؟.

٢١٥. قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ، وَإِلاَّ فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ؟

القرب الحقيقي قرب الله منك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾[الواقعة: ٨٥] وقال عزّ من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[ق: ١٦] وحظّك من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط، فتستفيد بهذه المشاهدة شدّة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدّب بآداب الحضرة، وأمّا أنت فلا يليق بك إلا وصف العبد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا: (إلهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك).

٢١٦. الحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الوَعْيِ يَكُونُ البَيَانُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩].

حقائق العلوم اللدنيّة يقذفها الحقّ تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى، وتحررهم من رقّ الأشياء، وتعرّضهم باللجاء والافتقار لما يفتح عليهم المولى، يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقا لوعده لهم من غير تعلّم ولا دراسة.

وعند ورودها عليهم وتجلّيها لهم تكون مجملة، لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها.

فإذا وعوها، وتصرّفت فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل تبيّن لهم معناها، وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة، حتى أن بعضهم ربّما يجري على لسانه وبنانه كلام كثير من غير أن يلقي له بالا، فإذا فرغ من ذكره أو رسمه يتصفحه ويتأمله فيجده صحيحا مستقيما، وقد أخبرني بنحو ذلك من له قدم صدق في هذا الطريق عن نفسه.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «وأصحاب الحقائق يجري بحكم التصرّف عليهم شيء لا علم لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه، فربما يجري على لسانهم شيء لا يدرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم، إذ تحقيق ذلك بجريان الحال في ثاني الوقت». انتهى كلام الإمام أبي القاسم، وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، والله أعلم.

وكأنهما أشارا بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة، وقد عبّروا عن ذلك بعبارات، فقد سئل عبد الله بن طاهر الأبهري رضي الله عنه عن الحقيقة، فقال: الحقيقة كلّها علم، فسئل عن العلم فقال: العلم كلّه حقيقة.

وقال الشبلي رضي الله عنه: «الألسنة ثلاثة: لسان علم، ولسان حقيقة، ولسان حق. فلسان العلم: ما تأدى إلينا بالوسائط، ولسان الحقيقة: ما أوصله الله إلى الأسرار بلا واسطة، ولسان الحق: ليس إليه طريق».

وقال رويم رضي الله عنه: «أصح الحقائق ما قارن العلم».

وقال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: «كنت في تيه بني إسرائيل، فوقع في قلبي أن علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة، فإذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بي وقال: يا أبا بكر، كل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر».

وإشارة المؤلف رحمه الله، بالآية التي ذكرها إلى هذا المعنى بيّنة.

٢١٧. مَتَى وَرَدَتِ الوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمَتِ العَوَائِدَ عَلَيْكَ ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

الواردات الإلهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته، وتهدم عليه مستمر عاداته، ولها سلطنة عظيمة على ذلك، فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت عنه ذلك بمرّة، وأنبتت عوضا عن ذلك أحوالا عليّة، وأوصافا

مرضية، وأنشد سيدي أبو العباس رضي الله عنه في هذا المعنى:

لـو عاينـت عينـاك حـين تزلزلـت   أرض النفـوس ودكّـت الأجبـال

لرأيـت شـمس الحـق يسـطع نورهـا   حـين التزلـزل والرجـال رجـال

الأرض: أرض النفوس، والجبال: جبال العقل، والشمس: شمس المعرفة.

والإشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بيّنة.

٢١٨. الوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ؛ لأجْلِ ذَلِكَ لاَ يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إلاَّ دَمَغَهُ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء:١٨].

الوارد موسوم بسمة القهر والغلبة، لوروده من حضرة القهّار الغالب على أمره، لأجل ذلك لا يصادمه شيء من رعونات البشرية إلاّ دمغه وأزاله، وهو أيضا حق ورد على باطل، والباطل لا ثبات له مع الحق.

والإشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بيّنة.

٢١٩. كَيْفَ يَحْتَجِبُ الحَقُّ بِشَيْءٍ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ وَمَوجُودٌ حَاضِرٌ؟

قد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام على هذا المعنى في أول الكتاب، وأتى فيه بالعجب العجاب، وقد نبهنا عليه هناك.

٢٢٠. لاَ تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ الحُضُورِ، فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ العَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً.

العمل الذي لا يجد صاحبه حضورا فيه ينبغي لـه أن لا ييأس مـن قبولـه، فإن

ذلك إلى الله تعالى، فقد يقبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك، ولو لم يكن إلاّ قصد التقرّب به وسقوطه عن نظره، وقد تقدّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: (لا عمل أرجى للقلوب).

٢٢١. لاَ تُزَكِّيَنَّ وَارِدًا لاَ تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الإِمْطَارَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ الإِثْمَارِ.

الوارد مراد لثمرته، لا لوجدان حظّ نفسك منه، كما أن السحابة مرادة لوجدان الإثمار الذي اقتضاه وجود إمطارها، لا لمجرد وجود إمطارها.

وثمرة الوارد إنما هي تأثر القلب به، وتبدّل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما تقدّم.

فإن لم تعلم وجود هذا فيك فلا تزك الوارد، ولا تفرح به، فإن في ذلك نوعا من الاغترار، وانخداعا بلبسة الإظهار، فكن على حذر منه.

٢٢٢. لاَ تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا، وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا فَلَكَ فِي اللهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

أنوار الواردات المنبسطة على العبد هي: تكيّف ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه بما لاح له من عظمة الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه في حال كونه، ولا تأس على فقده إذا فقدته، فإن لك في الله غنى عنه وعن غيره، وليس لك غنى عن الله تعالى في شيء من الأشياء كما قال الشاعر:

لكل شيء إذا فارقته عوض   وليس لله إن فارقت من عوض

قال أبو عبد الله بن عطاء الله رضي الله عنه: «إياك أن تلاحظ مخلوقا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا». ويدخل في هذا المعنى الذي ذكره ابن عطاء الله رضي الله عنه جميع الأغيار، والأنوار، والمقامات، والأحوال، والدنيا، والآخرة، والنعم الباطنة والظاهرة، فلا تلاحظ شيئا من ذلك ولا تركنن إليه، ولا تعتمد عليه، بقي أو ذهب، فإن ذلك قادح في إخلاص التوحيد.

قال في "التنوير": «واعلم أن الباري سبحانه إنما يدخلك في الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك، وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك فيها، فتوجّه إليها باسمه المبدئ، فأبداها وأبقاها، حتى إذا أوصلت إليك ما كان لك فيها، فلما أدّت الأمانة توجّه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفّاها، فلا تطالبنّ بقاء رسول بعد أن بلّغ رسالته، ولا أمين بعد أن بلّغ أمانته، وإنما يفتضح المدّعون بزوال الأحوال وبعزلهم عن مراتب الأنزال، هناك يبدو العوار وتنهتك الأستار، فكم من مدّعى الغنى بالله وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه، وكم من مدعى العزّ بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق، معتمدا على ما ثبت عندهم من معرفته. فكن عبدا لله لا عبد العلل، وكما كان الله لك ربا ولا علة، فكن عبدا له ولا علة، لتكون له كما كان لك».

وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «عبد هو في الحال بالحال وعبد هو في الحال بالمحوّل، فالذي هو في الحال بالحال عبد الحال، والذي هو في الحال بالمحوّل عبد المحوّل. وأمارة من هو في الحال بالحال أن يأسى عليها إذا فقدها،

ويفرح بها إذا وجدها. والذي هو في الحال بالمحوّل لا يفرح بها إذا وجدت، ولا يحزن عليها إذا فقدت، وفي الإشارات عن الله سبحانه: «**لا تركن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك، وإن أويت إلى العمل رددناه عليك، وإن وقفت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك، فأيّ حيلة لك؟ وأي قوة معك؟! فارضنا لك ربّا حتى نرضاك لنا عبدا**».

٢٢٣. تَطَلُّعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وِجْدَانِكَ لَهُ، وَاسْتِيحَاشُكَ لِفُقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ.

وجدان العبد لربّه ووصوله إليه هو غاية مطالبه ومنتهى آماله ومآربه، وبه يفوز بالنعيم، ويحظى بالملك العظيم، وعند ذلك ينسى كلّ محبوب، ويلهى به عن كل مفروح به ومرغوب، وهذه هي صفة أهل التفريد الذين استتروا في ذكر الله المجيد، كما روي عن أبي عبد الله البسري رضي الله عنه قال: سألت رجلا بـ"اللكام": ما الذي أجلسك في هذا الموضع؟ فقال لي: وما سؤالك عن شيء إن طلبته لم تدركه، وإن لحقته لم تقع عليه؟ قلت: تخبرني ما هو، قال: علمي بأن مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان، ثم قال: أوّاه! قد كنت أظن أن نفسي ظفرت، ومن الخلق هربت، فإذا أنا كذّاب في مقالتي، لو كنت محبّا لله صادقا ما اطّلع علي أحد، فقلت: أما علمت أن المحبين خلفاء الله في أرضه، مستأنسين بخلقه يبعثونهم على طاعته، فصاح صيحة وقال لي: يا مخدوع، لو شممت رائحة الحبّ وعاين قلبك ما وراء ذلك من

القرب ما احتجت أن ترى فوق ما رأيت، ثم قال: يا سماء ويا أرض، اشهدا أني ما خطر على قلبي ذكر الجنة والنار قط، إن كنت صادقا فأمتني. فوالله ما سمعت له كلاما بعدها، وخفت أن يسبق إليّ الظنّ من الناس من قتله فتركته ومضيت، فبينما أنا على ذلك، وإذا أنا بجماعة، فقالوا: ما فعل الفتى؟ فكنيت عن ذلك. فقالوا: ارجع فإن الله قد قبضه، فصليت معهم عليه، فقلت لهم: من هذا الرجل؟ ومن أنتم؟ قالوا: ويحك، هذا الرجل به كان يمطر المطر، قلبه على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أما رأيته يخبر عن نفسه أنّ ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه، فهل كان أحد كذا إلا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؟ فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن السبعة المخصوصون من الأبدال، قلت: علموني شيئا، قالوا: لا تحب أن تعرف، ولا تحب أن يعرف أنك ممن يحبّ أن لا يعرف.

وفي مثل هذا الحال أنشدوا:

كانت لقلبي أهواء مفرّقه ... فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولاي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا ديني ودنياي

وقد سئل أبو سليمان الداراني رضي الله عنه عن أقرب ما يتقرّب به العبد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: «أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع الله على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره».

فهذه هي العلامة الصادقة والدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم، فإن كان له شعور بشيء من الأغيار المحبوبة فتطّلع إلى بقائها أو استوحش لفقدانها، فذلك دليل على عدم تحققه بذلك فليعرف منزلته وحدّه، وليعمل في تصحيح هذا المقام جهده.

وقال رضي الله عنه:

٢٢٤. النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ لِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ، وَالعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ لِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ العَذَابِ وُجُودُ الحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ.

مظاهر النعيم المتنوعة هي ما ورد من أنواع الثواب في الدار الآخرة من: الحور، والقصور، والولدان، والغلمان، والمآكل والمشارب والملابس، إلى غير ذلك من أنواع المسرات والملذات.

ومظاهر العذاب المتنوعة، هي: ما ورد من أنواع العقاب فيها من: الجحيم، والحميم، والزقّوم، والحيات والعقارب والسلاسل والأغلال والأنكال، وغير ذلك من أنواع الآلام والعقوبات.

وليس وجود النعيم والعذاب بسبب وجود هذه الأشياء ومباشرتها للمنعّم والمعذّب، وإنما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده للمنعّم أو وجود حجابه وإعراضه عن المعذّب، فهذان الأمران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق.

٢٢٥. مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ فَلأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ العَيَانِ.

وجود الهموم والأحزان الدنيوية والأخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها، وهو الذي منع العبد من وجود العيان، فلو قد فني عن رؤية نفسه وذهب عن مراعاة حظّه، لظفر بوجود العيان، ولم يكن له همّ ولا حزن ألبتة، بل يكون متصل الحبور، دائم الفرح والسرور، كما قال تعالى ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن وهمّ، وهي ما قلناه من وجود العيان، والعيان – والله أعلم– درجة فوق درجة اليقين، كما قال الشاعر:

كبر العيان عليّ حتى أنه ... صار اليقين من العيان توهما

قال الشبلي رضي الله عنه: «من عرف الله لا يكون له غمّ أبدا».

وقيل: أوحى الله سبحانه إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: يا داود إن محبتي في خلقي أن يكونوا روحانيين، وللروحانيين علم، هو أن لا يغتمّوا وأنا مصباح قلوبهم، يا داود لا يمزج الهم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين. وسيأتي في كلام المؤلف رحمه الله: (أوحى الله إلى داود عليه السلام: بي فافرح، وبذكري فتنعم).

فباستنارة القلب بنور المعرفة، واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهم، ويحل محلّه الروحانية.

على أن في وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام، إذا لم يقدر على دفعها

عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغي أن تستحضر من قبل إنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب، وزوال الأشر والبطر، والفرح بالدنيا.

ثم هي كفارات إن كانت في الأمور الدنيوية، ودرجات إن كانت في الأمور الأخروية.

والهمّ متعلق بما يكون في المستقبل والحزن متعلق بما كان في الماضي

٢٢٦. مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ.

وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد، لما له في ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية، أما مصالح الدين في عدم الزيادة على الكفاية فظاهر، إذ لو وجدها ربّما أوجب له ذلك طغيانا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧] فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية، وهو سبب الطغيان أصل كل معصية لله عز وجل.

وقصة ثعلبة بن حاطب، حين طلب الدعاء من النبي ﷺ أن يرزقه مالا، وما آل إليه أمره أمر مشهور.

وقال سعد بن أبي وقاص ﵁: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي، وَخَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ**».

وفي حديث أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلاَ غَرَبَتْ**

إِلَّا بِجَنْبِهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يُسْمِعَانِ الخَلائِقِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى».

وأمّا مصالح الدنيا في ذلك فسيأتي التنبيه عليها في قول المؤلف رحمه الله تعالى: (ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه).

وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها، فمن أجل توصله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى، ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧] أي: لا تنس نصيبك في الآخرة أن تتوصّل إليه بما آتاك الله من الدنيا.

وأما مصالح الدنيا في ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه، إذ بذلك يحصل طيب العيش وراحة القلب والبدن، وصيانة الوجه عن ذلّ المسألة عند وجود الحاجة والفاقة.

فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، ويقنع بما أباح له من هذه المنّة الجسمية، فيستعجل بذلك راحة نفسه، والاستغناء عن بني جنسه، ويحصل له بذلك حلاوة الزهد في الأمور العاجلة، وتجافي القلب عن زهراتها فإن طلب الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك، إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك.

قال بعض العارفين: «كل من لا يعرف قدر ما زوي عنه من الدنيا ابتلى بأحد وجهين: إمّا بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة في غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه».

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، إِنَّمَا الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**».

وغنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين، وعزّ أهل التقوى من المؤمنين المحسنين، ولقد صدق الشاعر في قوله:

غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلّة فإن زدت شيئا عاد ذاك الغنى فقرًا

يحكى عن بنان الحمّال رضي الله عنه أنه قال: «كنت مطروحا طاويا على باب بني شيبة سبعة أيام لم أذق شيئا، فنوديت في سرّي إنّ من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيني قلبه».

وقال عبد الرحمن بن زيد رضي الله عنه: «ذكر لي أن في خراب الأبلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة، فلم أزل أطلبها حتى وجدتها في خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف، وهي محلوقة الرأس، فلما نظرت إليّ قالت من غير أن أكلمها: مرحبا بك يا عبد الواحد، فقلت لها: رحّب الله بك. وعجبت من معرفتها بي ولم ترني قبل ذلك، فقالت: ما الذي جاء بك هاهنا؟ قلت: جئت لتعظيني، قالت: واعجبا لواعظ يوعظ، ثم قالت: يا عبد الواحد، اعلم أنّ العبد إذا كان في كفاية،

ثم مال إلى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والها، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وحيًا في سرّه، فقال: عبدي أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلا لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني، فورّثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذلّ بعد العزّ، والفقر بعد الغنى، عبدي ارجع إلى ما كنت عليه أُرجع عليك ما كنت تعرفه من نفسك».

قال: ثم تركتني وولّت عنّي، فانصرفت وبقلبي حسرة منها.

وفي بعض الكتب: «إنّ أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي».

وذكر أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم النجيبي القرطبي المالكي رحمه الله في كتاب "النصائح" له: عن ابن عبد ربّه الشامي ثم الدمشقي، أنه كان من أكثر أهل دمشق مالا، فخرج مسافرا، فأمسى إلى جانب نهر ومرعى، فنزل به، قال: فسمعت صوتا يكثر حمد الله تعالى في ناحية المرج فاتبعته، فوافيت رجلا ملفوفا في حصير، فسلّمت عليه، فقلت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: رجل من المسلمين، فقلت: فما حالك هذه؟ قال: حال نعمة يجب عليّ حمد الله عليها، فقلت: وكيف، وإنما أنت في حصير؟ قال: وما لي لا أحمد الله تعالى وقد خلقني فأحسن خلقي، وجعل منشئي ومولدي في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني وستر عليّ ما أكره ذكره ونشره،

فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟ فقلت له: إن رأيت رحمك الله أن تقوم معي إلى المنزل فإنا نزول على النهر هناك، قال: ولم؟ قلت: لتصيب من الطعام ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير، قال: ما لي حاجة، فراودته على أن يتبعني، فأبى، فانصرفت وقد تقاصرت في نفسي، ومقتها إذ لم أخلف بدمشق رجلا يكاثرني في غنى وأنا ألتمس الزيادة، فقلت: اللهم إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه. فبتّ لا يعلم إخواني ما أجمعت عليه، فلما كان من السحر رحلوا كنحو رحلتهم فيما مضى، وقدّموا إليّ دابتي فصرفتها إلى دمشق، وقلت: ما أنا بصادق في التوبة إن مضيت إلى متجري، فسألني القوم، فأخبرتهم، وعاتبوني على المضي، فأبيت، فلما قدم دمشق وضع يده يتصدّق بماله فما زال يفرّقه في سبيل الخيرات حتى احتضر، فما وجدوا عنده إلا قدر ثمن الكفن.

زاد غير أبي إبراهيم: وكان يقول -يعني ابن عبد ربّه المذكور- والله لو أنّ نهركم - يعني نهر دمشق- سال ذهبا ما خرجت إليه، ولا أخذت شيئا منه، ولو قيل لي: من مسّ هذا العمود مات لقمت إليه وعانقته شوقا إلى الله ورسوله.

٢٢٧. لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

درء المفاسد عند العقلاء أهم من جلب المصالح، فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلّع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه، لأنه دفع عن نفسه وجود الحزن بتركه لما يفيد حصول

مصلحة الفرح الذي يزول عن قرب، واعتاض من ذلك الراحة الدائمة، كما قيل:

مـن سرّه أن لا يـرى مـا يسـوؤه   فـلا يتخـذ شـيئا يخـاف لـه فقـدا
فـإن صـلاح المـرء يرجـع كلـه   فسادا إذا الإنسـان جـاز بـه الحدّا

وقيل لبعضهم: لم لا تغتم؟ فقال: لأني لا أقتني ما يغمني فقده، فالمفروح به هو المحزون عليه إن قليلا فقليل، وإن كثيرا فكثير، كما قيل:

على قدر ما أولعت بالشيء حزنه   ويصعب نـزع السـهم مهما تمكّنا

يحكى أن رجلا حمل إلى بعض الملوك قدحا من فيروزج مرصّعا بالجواهر، لم ير له نظير، ففرح الملك به فرحا شديدا، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة وفقرا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله، وكنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر. فاتفق أن انكسر القدح يوما، فعظمت مصيبة الملك فيه، وقال: صدق الحكيم، ليته لم يحمل إلينا.

وأمثال هذه المصيبة وأعظم منها نازلة بكل من له علاقة بشيء من أسباب الدنيا، فإنها إن لم تؤخذ منه بغصب أو سرقة أو جائحة نازلة فلا بدّ له أن يؤخذ هو عنها بالموت الهازم للّذات، المنغصّ للشهوات، فإن كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألف مصيبة في وقت واحد، لأنه كان يحبها كلّها وقد سلبت منه في كرة واحدة، ولذلك كان الزهد في الدنيا من قضايا العقل.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «للعقل ألف اسم، ولكل اسم منها ألف اسم، وأوّل كل اسم منها (ترك الدنيا)».

قال الحسن رضي الله عنه: «كيف يسمى عاقلا من يمسي ويصبح في الدنيا، ومباهاة أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب: أولئك هم الخاسرون، وأولئك هم الغافلون، وأولئك هم الجاهلون، وأنشدوا:

أيها المرء إنّ دنياك بحر   طافح موجه فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها بيّن   وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: «أفّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت، وأفّ من حسراتها إذا أدبرت، والعاقل من لا يركن إلى شيء؛ إذا أقبل كان شغلا، وإذا أدبر كان حسرة، وقد قيل معناه:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسرّه   فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة   وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقيل لابن القاسم الجنيد رضي الله عنه: «متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور مميّزا، ولها متصفّحا، وعمّا يوجبه عليه العقل باحثا، يلتمس بذلك طلب الذي هو أولى ليعمل به ويؤثره على ما سواه.

فإذا كان كذلك فمن صفته ركوب الفضل في كلّ أحواله بعد إحكام العمل بما فرض الله عليه، وليس من صفة العقلاء إغفال النظر عمّا هو أحق وأولى، ولا من

صفتهم الرضا بالنقص والتقصير، فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله، وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى وينقضي، وذلك صفة لكلّ ما احتوت عليه الدنيا، كذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل، يصدّه التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التي يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقائها، وذلك أن الدين يدوم نفعه، ويبقى على العامل له حظّه، وما سوى ذلك زائل متروك ومفارق موروث يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه، ومحاسبة الله عليه، وكذلك صفة العاقل لتصفحه الأمور بعقله والأخذ منها بأوفرها.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] بذلك وصفهم الله تعالى، وذوو الألباب: هم ذوو العقول، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها.

وأحسن الأمور: هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا في العاجل والآجل، وإلى ذلك ندب الله عز وجل من عقل في كتابه" انتهى كلام الجنيد رضي الله عنه، وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق، وفيه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره هاهنا لائقا، والله تعالى الموفّق للعمل بمنّه وكرمه.

٢٢٨. إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لاَ تُعْزَلَ فَلاَ تَتَوَلَّ وِلاَيَةً لاَ تَدُومُ لَكَ.

هذه من أمثلة ما تقدّم، لأن الولاية مآلها إلى الحزن، بسبب وقوع العزل عنها، ومقتضى نظر العقل: ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع في العزل المحزون به.

٢٢٩. إِنْ رَغَّبَتْكَ البِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ.

بدايات الأمور وظواهرها ترغب الجاهل فيها، وتدعوه إليها، لأنها رائقة الحسن، مليحة الظاهر، فيغّتر الجاهل بذلك فتقوده إلى ما فيه ضرره وهلاكه.

ونهايات الأمور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها بما أشهدته من سماجتها وقبح باطنها، فيعتبر العاقل بذلك، فيهرب منها ويسلم من شرّها، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله: (الأكوان ظاهرها غرّة، وباطنها عبرة).

قال وهب بن منبه رضي الله عنه: «صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئا، فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى، والفكر لا يفترّ، ثم التفت له في اليوم السابع، فقال: يا هذا، قد علمت ما تريد، حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، والزهد فيها رأس كلّ خير، والتوفيق نجاح كلّ برّ، فاحذر رأس كلّ خطيئة، وارغب في رأس كل خير، وتضرع إلى ربّك أن يهب لك نجاح كلّ برّ. قال: وكيف أعرف ذلك؟ قال: كان جدّي رجلا من الحكماء قد شبّه الدنيا بسبعة أشياء: شبهها بالماء المالح يغرّ ولا يروي، ويضرّ ولا ينفع. وبظلّ الغمام يغرّ ويخذل. وبالبرق

الخلّب يغرّ ولا ينفع. وبسحاب الصيف يغرّ ولا ينفع. وبزهر الربيع يغرّ بنضرته ثم يصفر فتراه هشيما. وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئا إلا الحسرة. وبالعسل المشوب بالسمّ الزعاف يغرّ ويقتل. فتدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة، ثم زدت فيها حرفا واحدا: فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها.

فرأيت جدّي في المنام فقال لي: يا بنيّ أنت مني وأنا منك، فقلت له: فبأيّ شيء يكون الزهد في الدنيا؟ قال: باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالعبر، والعبر بالفكر.

ثم وقف الراهب وقال: خذها ولا أراك خلفي إلا متجرّدا بفعل دون قول، فكان ذلك آخر العهد به».

وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: «لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السابقة عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضين، وما قام داع في أمّة إلا وقد حذّر من متابعة الدنيا وجمعها والحبّ لها، ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] وقال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٩] أي: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة الدنيا وطلب لها.

والحكايات والآثار في أحوال الدنيا، وغرورها وشرورها أكثر من أن تحصى، ولا شيء أبين في ذلك من قول الله تعالى في صفتها: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ

وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

٢٣٠. إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلأَغْيَارِ، وَمَعْدِنًا لِلأَكْدَارِ تَزْهِيدًا لَكَ فِيهَا.

ورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه، لأن ذلك لا محالة يدعوه إلى الزهادة في الدنيا والتجافي عنها، ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال، وما يستضرّ به في الحال والمآل، لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته، وقضاء غرضه من شهوته ونهمته، من غير مكدّر ولا منغّص، ولو تصوّر له حصوله على هذه الأشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغي له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها إن كان عاقلا، لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال، والافتقار والانقضاء والارتحال، وقد قالوا: «شرّ لا يدوم خير من خير لا يدوم». وقال الشاعر:

أشدّ الغمّ عندي في سرور تيقّن عنه صاحبه ارتحالا
أرى الدنيا على من كان فيها تدور فلا تديم عليه حالا

ثم هي مانعة له من سعادة الآخرة، والقرب من الله عز وجل، الذي هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين، فكيف وهو معرّض فيها لأنواع المصائب والفجائع، ووقوع الأغيار والأكدار، فما من أحد فيها إلا وهو في كل حال ووقت

غرض لأسهم ثلاثة: سهم بليّة، وسهم رزيّة، وسهم منيّة، فإذا نزل به ذلك عادة النعمة نقمة، وانقلبت الحبرة عبرة، وصارت الفرحة ترحة، وهكذا شأن الدنيا أبدا، فلا يفي مرجوّها بمخوّفها، ولا يقوم خيرها بشرّها، ولقد صدق الشاعر في قوله:

إن الليـــالي لم تحســـن إلى أحـــد   إلا أســـاءت إليـــه بعـــد إحســـان

وصدق أيضا من قال:

مــا قــام خــيرك يــا زمــان بشــرّه   أولى بنــا مــا قــل منــك ومــا كفــى
زمــن إذا أعطــى اســترد عطــاءه   وإذا اســتقام بــدًا لــه فتحرفــا

وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان ﵄: «إنما مثل الدنيا كمثل الحيّة ليّن ملمسها، قاتل سمّها، فأعرض عنها وعمّا يعجبك منها، لقلّة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه».

وقال بعض البلغاء: «دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها كشراب السمام، وفتنتها كالأمواج الطوام».

وقال أبو العتاهية:

هـــي الـــدار دار الأذى والقـــذى   ودار الفنـــــــاء ودار الغـــــــير
ولـــــو نلتهـــــا بحـــــذافيرها   لمـــتّ ولم تقـــض منهـــا الـــوطر
أيـــا مـــن يؤمـــل طـــول البقـــاء   وطـــول الخلـــود عليـــه ضرر
إذا مـــا كـــبرت وفـــات الشـــباب   فـــلا خـــير في العـــيش بعـــد الكـــبر

وأنشد أبو منصور الثعالبي رحمه الله في ذمّ الدنيا:

تـنحّ عـن الـدنيا فـلا تخطبنّهـا ... ولا تخطـبن قتّالـة مـن تنـاكح
فلـيس يفـي مرجوّهـا بمخوفهـا ... ومكروههـا إن تأمّلـت راجـح
لقد قـال فيهـا الواصـفون وأكثـروا ... وعندي لها وصف لعمري صـالح
سـلاف قصـارها زعـاف ومركـبٌ ... شـهيّ إذا اسـتلذذته فهـو جـامح
وشخص جميل يؤنس الناس حسنه ... ولكـن لـه أسرار سـوء قبـائح

فإذا علم العبد هذا كله علم اليقين، وتمكّن من قلبه غاية التمكين، لم يتصوّر منه مع ذلك وجود رغبة ألبتة، لأنه إذ ذاك يجمع بين خيبتين وخسارتين، ويأتيه الموت وهو صفر اليدين من منافع الدارين، وذلك هو خسران المبين.

قال أبو الهاشم الزاهد رضي الله عنه: «إنّ الله وسم الدنيا بالوحشية، ليكون أنس المريدين به دونها، وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون»، وقيل: أوحى الله تعالى إلى الدنيا: تضيّقي وتشددي على أوليائي، وترفّهي وتوسعي على أعدائي، تضيقي على أوليائي حتى لا يتعرفوا بك عني، وتوسعي على أعدائي حتى يشتغلوا بك عنّي، فلا يتفرغوا لذكري».

٢٣١. عَلِمَ أَنَّكَ لاَ تَقْبَلُ النُّصْحَ المُجَرَّدَ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا.

النصح المجرّد لا يقبله إلا من لم يستحكم فيه حبّ العاجلة والأنس بلذاتها

الفانية، وكان كريم الطبع سهل القياد، وأمّا من رسخت فيه تلك الخبائث، وتمكّنت من باطنه، وكان لئيم السجية صعب المقادة، فلا بد في قصد هدايته وإرشاده من زيادة على النصح والوعظ، وهو: وجود ما يقهره ويجبره، وليس ذلك إلا ما ذكرناه، فاعرف قدر النعمة عليك بذلك، واعمل بمقتضاها، وسلّم لربك في حكمته وقدرته وحسن ظنّك به، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله: (من لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان).

٢٣٢. العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِنَاعُهُ.

العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفية التعبّد له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام، وفي حكمة داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «العلم في الصدر كالمصباح في البيت».

وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: «العلم النافع هو الذي تمكن في الصدور وتصور، وذلك أن النور إذا أشرق في الصدور تصوّرت الأمور حسنها وسيئها، ووقع بذلك ظل في الصدور فهو صورة الأمور فيأتي حسنها ويجتنب سيئها، فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور، وهي علامات الهدى. والعلم الذي قد تعلمه، فذلك علم اللسان، إنما هو شيء قد

استودع الحفظ، والشهوة غالبة عليه قد أطاحت به وأذهبت بظلمتها ضوءه».

وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «والعلم النافع هو: علم الوقت، وصفاء القلب، والزهد في الدنيا، وما يقرب من الجنة، وما يبعد عن النار، والخوف من الله والرجاء فيه، وآفات النفوس وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء دون علم اللسان والمنقول والمعقول».

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفه الله تعالى في القلوب».

وإنما منفعة العلم أن يقرّب العبد من ربّه، ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته، ومنتهى طلبه وإرادته. قال الجنيد رضي الله عنه: «العلم أن تعرف ربّك، ولا تعدو قدرك».

وهذه عبارة مختصرة وجيزة، جمع فيها رحمه الله مقصود علوم الصوفية، وهي: معرفة الله تعالى، وحسن الأدب بين يديه. وهذه هي العلوم التي ينبغي للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل، ولا يقنع منها بكثير ولا قليل.

وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «من لم يتغلغل في هذه العلوم – يعني علوم الصوفية– مات مصرا على الكبار وهو لا يعلم، وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها، وربما أضرّ بصاحبها مداومته عليها، وقد استعاذ رسول الله ﷺ في الخبر المشهور عنه: «**من علم لا ينفع**».

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى عبارة أخرى في بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه، فقال:

٢٣٣. خَيْرُ العِلْمِ مَا كَانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ.

خير العلوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى، لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فكل علم لا خشية معه لا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة.

قال الربيع بن أنس رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]: من لم يخش الله فليس بعالم، ألا ترى أن داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال: ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة الإيمان بك، فما علم من لم يخشك، ولا حكمة لمن لم يؤمن بك.

قال في "لطائف المنن": «فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله: الخشية لله تعالى، وشاهد الخشية: موافقة الأمر. أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه، من أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه؟ ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها، جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه وسببا في تكثير العقوبة لديه».

وكان سهل بن عبد الله رضي الله عنه يقول: «لا تقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى، قيل: يا أبا محمد، من العلماء؟ قال: الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم».

وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ في وصيته: «وشاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى».

وقال الواسطي رضي الله عنه: «أرحم الناس العلماء، لخشيتهم من الله تعالى، وإشفاقهم مما علّمهم الله عز وجل».

وقال في "التنوير" في قوله ﷺ «**طالب العلم تكفل الله له برزقه**»: اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فبيّن أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص: ٨٠] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ**»، وقوله «**العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**». وقوله هنا: (طالب العلم تكفل الله برزقه): إنما المراد بالعلم في هذه المواطن: العلم النافع القاهر للهوى، القامع للشهوة، وذلك متعين بالضرورة، لأن كلام الله وكلام رسوله ﷺ أجل من أن يحمل على غير هذا - وقد بينّا ذلك في غير هذا الكتاب -، والعلم النافع هو

الذي يستعان به على طاعة الله عز وجل، ويلزمك المخافة من الله تعالى، والوقوف على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله. ويشمل العلم النافع: العلم بالله، والعلم بما أمر الله به، إذا كان تعلّمه لله تعالى. اهـ.

وقد تقدّم المعيار الصادق على صحة دعوى التعلّم والتعليم لله عند قوله: (إذا التبس عليك أمران).

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه: «كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ومخالفة النفس ومباينة الشهوات، فذلك العلم الذي لا ينفع، وهو الذي استعاذ منه النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ**»، ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]».

وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: اسكت، العالم من يخشى الله تعالى.

وقال بعض السلف: «من ازداد علما فليزدد خشوعا».

وقال رجل للجنيد رضي الله عنه: أيّ العلم أنفع؟ قال: «ما دلّك على الله تعالى، وأبعدك عن نفسك».

قال: والعلم النافع، ما يدلّ صاحبه على التواضع، ودوام المجاهدة، ورعاية

السرّ، ومراقبة الظاهر، والخوف من الله، والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها، والتقلل منها، ومجانبة أربابها، وترك ما فيها على من فيها من أهلها، والنصيحة للخلق، وحسن الخلق معهم، ومجالسة الفقراء، وتعظيم أولياء الله تعالى، والإقبال على ما يعنيه، فإن العالم إذا أحبّ الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك، وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وقال النبي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، أَلاَ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى**».

وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: «العالم طبيب الدين وحبّ الدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فمتى يبرأ غيره».

فإذا وفق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره، والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها:

فأول ما يلزمه: أن يعرف نعم الله عليه في ذلك ويقوم بواجب الشكر، ويزيد تواضعا واجتهادا، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله تعالى، لا بمجاهدة منه، فإنّ مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله.

فإذا كان العامل بهذا المحل من الدين كان إماما يقتدى به في أحكام الظاهر وأحوال الباطن، يهتدي بنوره كلّ من صحبه، ويستضيء بعلمه كلّ من اتبعه ويكون حجة لله على عباده، وبركة في بلاده.

ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلوّ فيها، وطلب اتباع الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذي هو غير النافع، وهو المغترّ به، ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم يرجو به نجاته، ونحن نعوذ بالله من الخذلان، انتهى.

ثم عبر المؤلف رحمه الله تعالى بعبارة أخرى من معنى ما تقدّم فقال:

٢٣٤. العِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الخَشْيَةُ فَلَكَ، وَإِلاَّ فَعَلَيْكَ.

العلم الذي تلازمه الخشية لك، لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك، وليس ذلك إلا ما ذكرناه.

والعلم الذي لا خشية فيه عليك، لأنك تستضر به فيهما.

وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا، من حيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرّة.

وقد بيّن علماؤنا رضي الله عنهم حال الفريقين، وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات، وأطالوا في ذلك النفس، لما شاهدوا من انتشار الفساد في الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أيّ شيء هو.

فمن أراد الشفاء في ذلك واستيفاء الكلام عليه، وما في ذلك من الأخبار والآثار فعليه بالنظر في كتاب "العلم" من كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي رضي الله عنه، ولباب ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله هاهنا.

وقد قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: «كان العلماء ربيع الناس: إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يودّ أن يكون غنيا، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس».

قال هذا في زمانه الصالح، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

واعلم أنه قد ورد في الكتاب والسنّة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة، ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحّت فيه نيته، وصحّة نيّته في ذلك أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله تعالى واستعماله فيما ينفع عنده، وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، فهذه هي النية الصحيحة التي تحمد عاقبتها آجلا، وتجتنى ثمرتها في طاعة الله عاجلا.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كلّ يوم لا أزداد فيه علما يقربني من الله عز وجل، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم**».

وقال الحسن رضي الله عنه: «كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له ليضعفها في الآخرة، وليأتينّ على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل، فإذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق».

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: «إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به».

فإن اختل هذا المقصد، وفسدت نية طالبه: بأن يستشعر به التوصل إلى منال دنيوي من مال أو جاه، فقد بطل أجره وحبط عمله، وخسر خسرانا مبينا.

قال الله عزّ وجل ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجُنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» يعني: ريحها.

وكان الحسن رضي الله عنه يقول: «والله ما طلب هذا العلم أحد إلا كان حظّه منه ما أراد به».

وقال الحسن: «عقوبة العالم موت القلب، فقيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة».

فإذا انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدّى به إلى تولّي الأعمال السلطانية كائنة ما كانت، أو يتوصّل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة، فقد تعرّض لغضب الله تعالى وسخطه وباء بإثمه وآثام المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خيرا له من العلم وأحمد عاقبة.

وقال أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله تعالى: «وروينا عن الأوزاعي رضي الله عنه قال: شكت النواويس إلى الله عزّ وجل، ما تجد من نتن جيف الكفار، فأوحى الله تعالى إليها: «بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه».

قال: وروينا عن الفضيل بن عياض وأسد بن الفرات، قال: بلغني أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان، قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: لأن من علم ليس كمن لم يعلم.

قلت: والغالب على طلبة العلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم، لأن حبّ الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدّم والترؤس قد ملكهم فأصمّهم وأعماهم. ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتلسونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَبِي تَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ تَجْتَرِئُونَ، فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ**»، رواه أبو هريرة ﷺ.

وروى أبو الدرداء ﷺ عن رسول الله ﷺأنه قال: «**أَنْزَلَ اللهُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ - أَوْ أَوْحَى اللهُ إِلَى بَعْضِ الأنْبِيَاءِ عليهم السلام -: قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ، وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، ويَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الكِبَاشِ، وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذِّئَابِ، وَأَلسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ: إِيَّايَ يُخَادِعُونَ وَبِي يَسْتَهْزِئُونَ؟ لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانَ**».

وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا يبقي من الإسلام إلا اسمه، قلوبهم خربت من الهدى، ومساجدهم عامرة من أبدانهم، شرّ من تظل السماء يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود**».

واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلّة، والتخلّق بأخلاق الإيمان، وتوافق الإسرار والإعلان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، والموالاة في الله، والمعاداة فيه، والحرص على التفطّن للأسباب الباعثة له على الاستقامة، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى فيراعيها حفظا وطلبا، ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضا وهربا، إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناجي السنيّة، فبهذا كلّه يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية.

فإذا خلا طالب العلم عنها، أو عن بعضها، فإن كان ما يطلبه علمًا حقيقيا كان حجة عليه، وإن كان رسميا كان وبالا واصلا إليه، والعياذ بالله من ذلك.

قال في "لطائف المنن": «ربّما غرّ الغافل من طلبة العلم من قال: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله. وليس في قول هذا القائل ما يستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر منّ به عليه، وفتنة سلّمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره، وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعي

أعيا علاجه الأطباء وضاق عليه خلقه، فأخذ خنجرًا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه، فصادف ذلك المعي فقطعه، فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاء فعله، وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للتعب عن الملقين أنفسهم للتهلكة»

ليس المخاطر محمودا وإن سلما

وقال في موضع آخر: «... لا يغرنّك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**».

ومثل من تعلّم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسّل إليه.

ومثل من قطع الأوقات في طلب فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلّم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدّة يتطهّر ويجدد الطهارة فلم يصل صلاة واحدة.

إذ مقصود العلم العمل، كما أنّ المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

ولقد سأل رجل الحسن البصري عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن، وقال: ويحك، وهل رأيت فقيها؟ إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه.

قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: الفقيه من انفتق الحجاب عن عين قلبه»، والرجل الذي سأل الحسن البصري هو فرقد السنجيّ، والله أعلم، وقد

روي عنه في صفة الفقهاء كلام أتم مما ذكره صاحب كتاب "لطائف المنن".

قال فرقد السنجيّ: «سألت الحسن عن مسألة فأجابني عنها، فقلت له: إن الفقهاء يخالفونك، فقال لي: ثكلتك أمّك فريقد، وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه المداوم على عبادة ربّه، الورع، الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم، المجتهد في العبادة، المقيم على سنّة المصطفى ﷺ، الذي لا ينبذ من فوقه، ولا يسخر ممن هو دونه، ولا يأخذ على علم علّمه الله له حطاما».

قلت: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح، إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التي ذكرناها، ولا يبذله لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله.

قال رجل لسفيان الثوري رضي الله عنه: «إنك إن نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع به الله بعض عباده وتؤجر على ذلك. فقال سفيان الثوري: والله لو أعلم بالذي يطلب هذا العلم لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله، فأحدّثه بما عندي ممن أرجو أن ينفعه الله به».

وقد سئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب، فقال له السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنَ النَارِ**». فقال له: أترك اللجام واذهب، فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمني به.

وفي قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضرّ به أولى، كما قيل:

ومن منح الجهال علمًا أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكي عن بعض الأمم السابقة أنهم كانوا يختبرون المتعلّم مدةً في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقا رديئا منعوه من العلم أشدّ المنع، وقالوا: إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الرديء فيصير العلم آلة شر في حقّه.

وقد قالت الحكماء: «زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد ريًّا ازداد مرارةً».

وهذا كلّه صحيح مجرّب، فينبغي إذن للعالم أن لا يهمله، بل يراعيه ويمتثله، ولا اعتبار بما يتوهّمه في تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم لأن يعملوا ببعض ما يتعلمونه من العلم الصحيح إن كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك، فإنّ المفاسد التي تقع بسبب ذلك لهم في خاصة أنفسهم، والمفاسد التي تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر، ودرء المفاسد أهمّ عند العقلاء من جلب المصالح.

أمّا المفاسد التي تختصّ بهم فهي تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بما يطلبونه من العلم، لأنهم يستشعرون بذلك التوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام، فإذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم إليه، وعكفوا بالجدّ والاجتهاد عليه، ولولا هذا الاستشعار لم يتصوّر منهم ذلك، فإذا حصلوا على شيء

من ذلك وظهرت لهم مخايل وصولهم إلى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به، وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه، وهذا الفرح والاغتباط في غاية الذمّ منهم، لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا، وهي بمنزلة السمّ القاتل الذي يوجب موت قلوبهم وقسوتها وبعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم، كما قيل:

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة   كالأرض إن سبخت لم ينفع

وعند ذلك تنتعش نفوسهم، وتتقوّى صفاتهم، وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا، والركون إلى من هي عنده من أبنائها المترفين، وليس لهم ما يتوسّلون به إليهم سوى علمهم، فيحتالون على تحصيل إقبالهم عليهم، وصرف وجوههم إليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل، ولا يسلمون في ذلك من الرياء والتصنّع والنفاق والدهان، ويجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع ما يحلّ بهم في ذلك من الذل والهوان، فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم، وتمكنوا من جميع حظوظهم، فخرجوا من الحرية إلى استعباد الأغيار، واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضارّ.

وقد قال فضيل بن عياض: «لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحّوا على دينهم، وأعزّوا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا، وعزّ الإسلام وأهله، ولكنهم أذلوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ سلمت لهم دنياهم، فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا،

ليصيبوا بذلك ما في أيدي الناس، فذلّوا وهانوا على الناس». انتهى.

ولله درّ الشاعر رحمه الله حيث يقول:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذلّ أحجما
إذا قيل هذا مورد قلت: قد أرى ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظّما
وما كلّ برق لاح لي يستفزني ... وما كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت إلاّ لأخدما
أأغرسه عزًّا وأجنيه ذلّة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظّما
ولكن أهانوه فهانوا، ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه لعطاء الخراساني: «كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم».

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبّا ولها طلبا، وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم

زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فسادٌ في الباطن والظاهر».

فانظر رحمك الله إلى ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان «وليس الخبر كالعيان».

ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها في سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق لما استحكم في قلوبهم من علامات سوء الخلق، فقد قيل: التعمق في الباطل قطع لآمال الرجوع عنه، فكلما كان بعد المسافة من الحق أتم كان اليأس من الرجعة أوجب، وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسيء أعمالهم، واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة في الدار الآخرة ونيل الثواب فيها، وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة والمناقب المنيفة التي اختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق ما يخرجون به من هذا الغرور،لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك، ولم يهتدوا لما هنالك، فهذا هو الفساد الذي يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه.

وأما الفساد الذي يتعدى إلى غيرهم فأظهر من كل ظاهر، وناهيك بمن ملكته نفسه أشد ملك، واستعبدته أشد استعباد هل يبقى عليه شيء من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه.

ومن دقيق ما يسري عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك: وقوع الاغترار

للجهلة والأغمار بمشاهدة حالهم، فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمون أنهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوه واستفادوه، فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم في طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك، فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك، أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم وموالاتهم، واتخاذهم أربابا يسمعون منهم ويطيعونهم في أوامرهم ونواهيهم، ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين، وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة فإن نفوس العامة قابلة لذلك ومهيأة له، بمنزلة الصبي الذي ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم، وعند ذلك يبطل في حقهم ما هو مقصود من بعثة الرسل، من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وحب الفقر والمسكنة، وإيثار التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان والإسلام، وشدة الحذر من ارتكاب المناهي والآثام، ثم يؤول بهم ذلك إلى الشرك الخفي والجلي، ثم يحيق بهم المكر السيئ والعياذ بالله، ويكون وبال جميع ذلك راجعا إلى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه، ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله تعالى حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا   ولم تغل في البيع أثمانها
لقد رتع القوم في جيفة   يبين لذي العقل أنتانها

وروي عن حذيفة بن اليمان ﷺ: «أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه، ثم أخذ كفا من تراب، فجعل يذره على الحصاة

حتى واراها، ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاة، ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدم بالقدم والنعل بالنعل».

قلت: ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها، وانكساف أنوار الإيمان فيها، وإفلاسهم من حقائق ذلك، وعدم اختصاصهم بشيء منه، فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم، منقادين لأغراضهم وآرائهم، ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم، والأعمال بالنيات، فإذا كانت النيات صالحة كانت الأعمال صالحة، وترتب عليها آثار الصلاح، وانعطف من ذلك على القلوب مزيد إشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله ونيل درجة الحب منه، وإذا كانت النيات فاسدة كانت الأعمال أيضا فاسدة، وترتب عليها آثار فاسدة، وانعطف من ذلك على القلوب زيادة ظلمة ورداءة همة تقضي البعد عن الله تعالى وحصول المقت منه.

وطلب العلم عمل من الأعمال، معرض للصحة والاعتلال، وليت شعري: هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم في طلب العلم والأثر، وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر، وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر، وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها، هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى، ولا شك أن باعث الدين غير متصور منهم، بل هو محال في حقهم، لما قدمناه من خراب البواطن وظلمة القلوب، وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم

يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، بل لم يعرفوا ذلك ألبتة، وإن ادعوا أنهم على أحوال لا يجب عليهم فيها حكم يحتاجون إلى تعرفه والقيام به فهم مخدوعون، ومن أين لهم ذلك، والعلم به لا يحصل ضرورة، فلا بد لهم من استفادته، ولا عناية لهم بهذا أيضا، وإنما كان يتصور منهم باعث الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليه، ووصلوا إلى ما يمكنهم الوصول إليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب ما من أسباب الدنيا، ثم يصرفون ما فضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضا عن البطالة التي يتبرم بها صاحبها، ويدعوه فراغه من أشغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت بلهو ولعب، أو ارتكاب معصية وذنب، لا البطالة التي يكون فيها استراحة لنفسه، واستجمام لعقله وحسه، ففي هذه الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء.

وأما الحال التي وصفناها فلا يتصور عليها باعث إلا الدنيا المجردة المجاوزة للحد في الذم والمقت، بمنزلة من هو حريص على الاتساع في الدنيا والحصول على غاية ملاذها، فإنه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه: فتراه يرتكب الأخطار، ويخوض لجج البحار، ويجوب البراري والقفار، ويهون عليه - في جنب ما يأمله - كل مشقة تصيبه وبلية تنزل به.

ولو لم يفعل هذا لم يحصل إلا على سد الرمق، والاقتصار على التبلغ والعلق. فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم، لو لم يتصوروا في خواطرهم الحصول على كليات أغراضهم: من اتساع مالهم وجاههم في دنياهم، ووصولهم مع ذلك إلى

رفيع الدرجات في عقباهم، لم يبلغوا ذلك المبلغ في الاجتهاد، ولااقتصروا على بعضه.

وهذه كلها أمور بينة لا إشكال فيها عند من له أدنى تمييز وفهم، وليس المانع لأكثر من ينتسب إلى العلم من العمل بمقتضى ما ذكرناه: خفاؤه عليهم، كيف وهم يعتقدون صحته ويسلمون حاصله وحقيقته في الأحايين عندما ينجلي عن قلوبهم بعض ظلماتها وتتزحزح عن عظيم غمراتها، إما بتذكير مذكر من الخلق أو وعظ واعظ في قلوبهم من قبل الحق، ثم يرجعون في سائر أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم. وإنما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة، واستئثاره بالخذلان والنصرة، فإذا أراد الله تعالى أن يضل عبدا من عباده لم ينصره عقل ولم ينفعه علم، قال الله عز وجل ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وفي مثل هذا الموطن تبطل أحكام الأسباب ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال والعزة والكمال لرب الأرباب، فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار وليسلموا أحكام الواحد القهار، لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق:

مصائب قوم عند قوم فوائد

وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم:

الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاهم به وفضلني عليهم تفضيلا، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به هذا، وفضلني عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا، عافاه الله من ذلك البلاء كائنا ما كان**».

فعلى المعلم الناصح لنفسه، السالم في عقله وحدسه، العامل على تصحيح أعماله وهممه، المشفق على دينه الذي هو منوط بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد، ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها، ولا يقدم على التعليم في هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطأ في نظر. ولا سبيل له إلى هذا، ولا يسعه خلاف ذلك إن كان منصفا.

قال بعضهم: رأيت سفيان الثوري حزينا، فسألته عن ذلك، فقال: وهو برم-: ما صرنا إلا متجرا لأبناء الدنيا. قلت: وكيف ذلك؟ قال: يلزمنا أحدهم، حتى إذا عرف بنا وحمل عنا وجعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جابيا يقول حدثنا سفيان الثوري.

وعليه أيضا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التي تقدح في إخلاص الأعمال، وإخلاص الأعمال شرط في وجوب القبول، وعند ذلك يذهب عمله باطلا، ولا ينال بسعيه طائلا، وقد تقدم من كلام علي بن أبي طالب ﷺ: «كونوا

لقبول العمل أشد اهتماما منكم للعمل»، عند قوله: (ما قل عمل برز من قلب زاهد).

وتقدم أيضا الكلام على اتهام النفس في دعائها إلى ما ظاهره خير عند قوله (إذا التبس عليك أمران).

وليتعلم الجزم في ذلك من بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه كان يقول: «أنا أشتهي أن أحدث، ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت».

وكان سبب تركه طلب الحديث: أنه سمع أبا داود الطيالسي يحدث عن شعبة أنه كان يقول: الإكثار من الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون، فلما سمعه منه قال: انتهينا.. انتهينا. ثم ترك الرحلة في طلب الحديث وأقبل على العبادة.

وروي أيضا مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام.

فإذا كان الإكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند إمامي المحدثين في زمانيهما مع ما فيه من الفوائد الأخروية، فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها؟!

ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله بإسناده إلى عبد الله بن مسلمة القعنبي رحمه الله قال: دخلت على مالك بن أنس ﷺ فوجدته باكيا، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم سكت عني يبكي، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما الذي أبكاك؟ فقال لي: يا ابن قعنب، أبكي على ما فرط مني، ليتني جلدت بكل كلمة

تكلمت بها في هذا الأمر بسوط، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي وهذه المسائل، ولقد كان لي سعة فيما سبقت إليه.

قال هذا فيما كان آخذا فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة، فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذي صار بحكم العادة واقتضاء العصبية وتمالؤ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال دينا قويما وصراطا مستقيما؟!

وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو عليه مما هو مأمور به ومسؤول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه، فله شغل شاغل عما يفرق همه ويقسي قلبه وينسيه ذكر ربه عز وجل.

قال وهب بن ومنبه: «ذكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال: إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية، ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئا».

وكان سفيان الثوري يقول لأهل العلم الظاهر: «طلب هذا ليس من زاد الآخرة». وكان يقول: «ليس طلب الحديث من عدة الموت، لكنه علة يتشاغل به الرجل». وكان يقول: «لولا أن للشيطان فيه حظا ما ازدحمتم عليه» يعني العلم.

فهذه نبذة قصدت إلى بثها في الموضع اللائق بها من هذا التنبيه، ليتنبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره، ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين، وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين، وبالله الذي لا إله سواه نستعين.

٢٣٥. مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لاَ يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ.

العبد لا ينبغي أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا لإعراضه عنه، ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال ولا إعراض ولا مدح ولا ذم، فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئا، وقد تقدم مثل هذا المعنى في قوله رحمه الله: (غب عن نظر الخلق إليك ينظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك).

فمتى آلمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، فإن كان قانعا بعلمه راضيا بقسمته كان له في ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين، بل لا يجد وقعا في قلبه لما عسى أن يكون منهم من إقبال أو إعراض. وإن لم يكن راضيا ولا قانعا فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته بأذى الناس له، بل لا مصيبة له في أذى الناس ألبتة عند من عرف سر ذلك على ما يذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى.

قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس في؟ فقالوا: يقولون إنك مراء. فقال: الآن طاب العمل. فقال بشر رضي الله عنه: اكتفى والله بعلم الله، فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره».

وقال بشر الحافي: «سكون النفس إلى قبول المدح لها أشد عليها من المعاصي».

٢٣٦. إِنَّمَا أَجْرَى الأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْلاَ تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لاَ يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه، لاسيما ممن اعتاد منه الملاطفة والإكرام والمبرة والاحترام، لأن ذلك يفيده عدم السكون إليهم وترك الاعتماد عليهم وفقد الأنس بهم، فيتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجل. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «آذاني إنسان مرة، فضقت ذرعا بذلك، فنمت فرأيت كأنني يقال لي: من علامات الصديقية كثرة أعدائها، ثم لا يبالي بهم».

وقال بعض العارفين: «الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم».

وقال سيدي أبو محمد عبد السلام شيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في دعائه: «اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك».

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري رضي الله عنه: «الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبد خيرا جعل أنسه به وبذكره وتوكله عليه، وصان سره عن النظر إليهم، وظاهره عن الاعتماد عليهم».

وقد قالوا: «الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا لله عز وجل».

قال في "لطائف المنن": «... اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «**من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له**»، كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، وليتعلق بالملك الحق.

قال: وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلا وإعراضهم عنك نهارا، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا».

قال: وتسليط الخلق على أولياء الله على مبدأ طرقهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار معرفتك».

قال: ومما يدل على أن ذلك سنة الله في أحبابه وأصفيائه قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا...﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾ [يوسف: ١١٠] الآية، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا...﴾ [القصص: ٥] الآيتين، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...﴾ [الحج: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى» انتهى.

وكذلك من استحلى حالا أو ساكن مقاما فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره، ولئلا تتقيد بسواه، قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «ومن المقاطع المشكلة السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به من فنون تقريبك، وكأنه في خلال ما يناجيك يعاتبك، فإنه بكل لطيفة يصفيك ويطربك وتحتها خدع خافية، ومن أدركته السعادة كاشفة بشهود جلاله وجماله، لا بإثباته في لطيف أحواله، وما يخصه من إفضاله وإقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفية».

ومن هذا المعنى ما ذكر عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لما دخل على شيخه أبي محمد عبد السلام في أول ما لقيه وسأله عن حاله فقال له: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. فقال له الشيخ أبو الحسن: أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلم أفهمه؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله سبحانه».

وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «اللطف حجاب عن اللطيف» يعني: السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به، وكذلك قال سري السقطي رضي الله عنه: «لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في أيديها أسيرا».

وقال بعضهم: «لا يكون الصوفي صوفيا حتى لا تقله أرض ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق، ويكون مرجعه في جميع أموره إلى الحق».

وقيل: «الفقير: من لا دنيا له ولا آخرة؛ فإن عرض على مالك قال: ليس من رجالي. وإن سلم إلى رضوان قال: لا أهتدي إليه وليس من رجالي. وإن قلت: من هو وما الذي يدعى به؟ قال: ليس ممن يدعى بشيء.

وقال محمد بن الحسن رضي الله عنه: بينا أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السموم والرياح، فلما نظر إلي ولى هاربا، فتبعته وقلت له: عظني بكلمة. فقال: احذره، لأنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبد سواه».

وكتب الجنيد رضي الله عنه إلى بعض إخوانه: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله، وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع ممن سكن إليه ورجع إلى ما أشار إليه كشف الله ما به من المحن والبلوى، وإن دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع

فقدان الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزا وموته كمدا ومعاده أسفا، ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره.

٢٣٧. إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَغْفُلُ عَنْكَ فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ.

الشيطان عدو مسلط على الإنسان، ومقتضى ذلك أن لا يوجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال. قيل لبعضهم: أينام إبليس؟ فقال: لو نام لوجدنا راحة.

فإذا علمت أنه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده، وهو الله عز وجل، وذلك: بتحقيق عبوديتك له وتوكلك عليه، وافتقارك في كل أحوالك إليه، واستعاذتك به من شر عدوك وعدوه، فبذلك تخرج من سلطنته وتنجو من غائلته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

فمن تحقق بهذه الصفات العلية، ومن الإيمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه واللجاء والافتقار إليه، والاستعاذة والاستجارة به، كيف يكون لعدو الله عليه سلطان، والله حبيبه وولي حفظه ونصره. ولولا ما أمرهم الله تعالى بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه، ومن هو حتى يستعاذ بالله منه.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]: قوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة

الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، أي: وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه.

وقال أبو حازم رضي الله عنه: ومَنْ الشيطان حتى يهاب؟ والله لقد أطيع فما نفع، ولقد عصي فما ضر.

وقال بعضهم: الشيطان منديل هذه الدار، يعني: يمسح به أقذار النِسب، وهي نسبة الشرور وأنواع المعاصي والفساد إليه، أدبا مع الله عز وجل. وهذا سر إيجاده كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، وأما أن له حولا وقوة يضر بها أو ينفع فلا.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: ما خلق الله عز وجل خلقا أهون عليه من إبليس، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبدا.

وقيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان: فقال: «وما الشيطان! نحن قوم صرفنا هممنا إليه فكفانا مَنْ دونه»، وسئل بعضهم بم تدفع إبليس؟ فقال: «لا أدفع من لا أعرف».

فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة إليك.

قال أهل العلم: إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا به، مستبطنا قلبه،

واضعا رأسه – أو قال: خرطومه – فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس، أي: تأخر واستتر.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «الشيطان قديم وأنت حديث، والشيطان كسير وأنت سليم الناحية، والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه، وله من نفسك عليك عون».

وقيل: صدر ابن آدم مسكن له، ومجراه من ابن آدم مجرى الدم، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى.

وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: «إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة، إلا من عصمه الله»، وفيه يقول القائل:

أشكو عدوا كيده براني ولا أراه حيثما يراني

وعندما أنساه لا ينساني يا سيدي إن لم تغث سباني

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال إبليس لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، قال له ربه: وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**».

٢٣٨. جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ.

عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك، إذ من مقتضاها -كما قلناه- أن لا يغفل عنك، وأن يبذل جهده في محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله وبرجله، ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لأنك في غاية الضعف والعجز، فيضطرك الحال لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه في دفعه عنك.

فعداوة الشيطان هي التي ردك الحمد تعالى بها إليه، وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود.

وكذلك حركة النفس عليك بالحمل على متابعة الهوى والشهوة، بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمة عظيمة أيضا، وإن كانت أعدى الأعداء لك، إذ بواسطتها يتوصلون إليك وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك، من قبل أنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك، وليس ذلك إلا مولاك، فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه والعكوف بالهم عليه.

وكان المؤلف رحمه الله تعالى قصد في هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورين في قول الشاعر:

إني بليت بأربع يرمينني ... بالنبل عن قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

وبين في كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها، وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوات وإن عظمت من أعظم الوسائل إلى أسنى المطالب لمن أريد بذلك ووفق له، وأتى بجميع ذلك في ألفاظ بديعة مختصرة وجيزة محررة، فاعرف قدر هذا الفصل واعترف لواضعه بكمال النبل والفضل.

وقال رضي الله عنه:

٢٣٩. مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعًا فَهُوَ المُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلاَّ عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعًا فَأَنْتَ المُتَكَبِّرُ حَقًّا.

إثبات التواضع يقتضي وجود الرفعة لا محالة، إذ لو كانت معدومة لكان ضدها - وهو الضعة- ثابتا موجودا، ولا ينتفي عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة، ووجود الضعة لا يحتاج إلى إثبات من العبد لأنه ثابت في نفسه، فالتواضع الذي أثبته العبد لنفسه لا ينفي عنه وجود التكبر بالضرورة.

وأيضا فإن لفظة "التواضع" تؤذن بذلك، فإن التواضع تفاعل من "الضعة"، وأكثر باب التفاعل موضوع لإظهار الضعة، وليست كذلك كالتناوم والتناكر والتفارح والتماوت، وغير ذلك.

فصيغة التواضع لا تقتضي حقيقة الضعة وعدم الرفعة، ولا يلزم من وجودها ذلك.

والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف بذلك حقيقة لا إظهارا فقط، بأن ينتفي عنه وجود الرفعة بالكلية، وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ولا يكون له وجود ألبتة.

٢٤٠. لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ.

هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يثبت التواضع لنفسه حقيقة، لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك. وهذا هو التواضع الحقيقي، وهو شهوده لذلك ووجده به وظهور آثاره على ظاهره، بل شهوده لذلك ووجده به مما يقدح في حقيقة تواضعه، كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «من وجد ذوق ذله في ذله فهو متعزز، وفيه بقية».

فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا، لأنه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه، فإن أثبت لنفسه ورأى أن نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة، ولذلك قال الشبلي رضي الله عنه يوما في بعض كلامه: « ... ذلي عطل ذل اليهود»، وقال: «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «لا يتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه».

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا، وتواضع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه».

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه».

وقال أبو يونس بن عبيد رضي الله عنه وقد انصرف من عرفات: «لم أشك في رحمة الله لولا أني كنت فيهم».

وقيل لمحمد بن مقاتل: «ادع الله لنا، فبكى وقال: يا ليتني لم أكن أنا سبب هلاككم».

ومن علامات التحقق بهذا الخلق أن لا يغضب إذا عيب أو تنقص، ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر.

ومن علامات تحققه به أيضا: أن يشتد حرصه على أن لا يكون له جاه وقدر عند الناس، ويلتزم الصدق في حاله بأن لا يرى لنفسه موضعا في قلوبهم، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه).

وحكي عن أبي الحسن بن الكرابيسي- أستاذ الجنيد رضي الله عنهما: أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه وهو يطرده، ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك، حتى أدخله داره في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد ريضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد، ثم يدعى فيعود، ويرمى له عظم فيجيب، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتك».

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: وحدثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل وهو يأكل، فمد يده وقال: إن كان ثم شيء لله تعالى؟ فقال: اجلس وكل. فقال: أعطني في كفي. فأعطاه في كفه، فقعد في مكانه يأكل، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه، فقال: إن حالي مع الله الذل فكرهت أن أفارق حالي. قال: وكان هذا ربما مد يده إلى الهراس فيجعل فيها هريسته.

ومن أغرب ما رأيت في التواضع ما ذكره صاحب كتاب "عوارف المعارف" قال: «رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب، وكنت معه في سفره إلى الشام، وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤوس الأسارى من الإفرنج وهم في قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، وأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله تعالى، والانكسار في نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله».

وأغرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب "بغية الطالب ومنية الراغب" أبو الحسن علي بن عتيق بن يوسف القرطبي رضي الله عنه عن أبيه: أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مفيد، وكان من الفقهاء العلماء، وهو يمشي في يوم شات كثير الطين، فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها. قال: فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقا ووقف ينتظره ليجوز، وحينئذ

يمشي هو، فلما قرب منه الكلب قال: فرأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه ونزل أسفل، وترك الكلب يمشي فوقه. قال: فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة، فقلت له: يا سيدي، إني رأيتك صنعت الآن شيئا استغربته، كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟ فقال لي: بعد أن عملت له طريقا تحتي تفكرت فقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه، بل والله أرفع مني وأولى بالكرامة، لأني عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب، والكلب لا ذنب له، فنزلت عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني لأني رفعت نفسي على من هو خير مني.

٢٤١. التَّوَاضُعُ الحَقِيقِيُّ: هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ.

شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفته هو الذي يوجب للعبد وجود التواضع الذي ذكرناه، لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمنيتها، فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له، فلا تنقلع من القلب شجرة حب الرياسة والكبر إلا به، لا بما يتكلفه العبد ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال.

قال الجنيد رضي الله عنه: «التواضع عند أهل التوحيد تكبر».

وقال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «ولعل مراده: أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها».

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: «من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى

عظمة الله، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى».

وفي كتاب "عوارف المعارف" : «واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها.

٢٤٢. لاَ يُخْرِجُكَ عَنِ الوَصْفِ إِلاَّ شُهُودُ الوَصْفِ.

هذه عبارة مليحة موافقة لمعنى ما تقدم الآن، فالوصف المذكور أولا وصف العبد، والوصف المذكور ثانيا وصف الرب تبارك وتعالى.

٢٤٣. المُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِرًا.

شكر النفس رؤية نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، وذلك ثناء عليها، وهو مضاد للثناء على الله تعالى وذكر حظها من اعتقاد أن لها حقا على ما يفعله من الطاعات، وهو مضاد للقيام بحقوق الله تعالى. فالمؤمن الحقيقي لا يلتفت إلى نفسه في نسبة شيء من المحاسن إليها، وفي طلب حظ عليه لها، بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية حقوقه على جميع ذلك.

٢٤٤. لَيْسَ المُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضًا، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضًا، فَإِنَّ المُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ المُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ لَهُ.

المحبة تقتضي من المحب بذل كلياته وجزئياته في مرضاة محبوبه من غير طلب حظ يناله منه، فهذا مما يلزم وجود المحبة، كما قيل:

إن المحب إذا أحب حبيبه   تلقاه يبذل فيه ما لا يبذل

بل يرى ما فعل من ذلك غاية الحظ، وموافقة رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت، كما قال أبو حفص عمر بن الفارض رحمه الله تعالى:

ما لي سوى روحي وباذل روحه   في حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفْتِني   يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

ولذلك قيل: المحبة: الإيثار، وهو أن لا يدع لمحبوبه ميسورا إلا بذله، ولا ممكنا إلا استعمله، ولا يبقي لنفسه ولا لحظه نفسا ولا سمة، ولا يستثنى من كل ما بذله له سمسمة، وأنشدوا:

لئن بقيت في العين مني قطرة   فإني إذن في العاشقين ذليل

وقال أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء».

وقال أبو يعقوب السوسي رضي الله عنه: «حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى وينسى حوائجه إليه».

وقيل لبعض المحبين - وكان قد بلغ المجهود في بذل ماله ونفسه حتى لم يبق منه بقية-: ما كان سبب حالك هذه في المحبة؟ فقال: كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت فيّ هذا البلاء، قيل: وما هي؟ قال:سمعت محبا خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت تعرض عني بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأي شيء تنفق علي؟ فقال: يا سيدي، أملكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتى أهلك. فقلت: هذا خَلْقٌ لخلق وعبد لعبد، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود؟ فكان هذا سببه.

فهذا الذي ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية.

وأما رجاء العوض وطلب الغرض، فهذا حال من مقامه الرجاء، وليس من مقام المحبة المخصوصة في شيء. قال الشاعر:

من لم يكن بك فانيا عن حظه ... وعن الهوى وعن الأنس بالأحباب
فلأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

وقال آخر:

وما أنا بالباغي على الحب رشوة ... ضعيف هوى يرجو عليه ثوابا

قال أبو محمد رويم: «من أحب العوض بغض العوض إليه محبوبه».

وقيل: أوحى الله عز وجل إلى عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «إني إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي».

وقال بعض المحبين: «كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر، يتخشخشن ويتثنين، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما، قال: ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال. وقيل لي: انظر إليهن. قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهن، فلم أزل أتضرع إلى الله تعالى حتى صرفهن عني».

وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه قال: «قال "ميسرة" الخادم: غزونا في بعض الغزوات، فإذا فتى إلى جانبي، وإذا هو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، وعلى الميسرة حتى ثناها، وحمل على القلب حتى ثناه، ثم أنشد يقول:

أحسن بمولاك سعيد ظنا ... هذا الذي كنت له أتمنى
تنح يا حور الجنان عنا ... ما لك قاتلنا ولا قتلنا
لكن إلى سيدكن اشتقنا ... قد علم السر وما أعلنا

قال: فحمل، فقاتل حتى قتل منهم عدداً كثيرا، ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو، فإذا هو قد حمل على الناس، وأنشأ يقول:

قد كنت أرجو، ورجائي لم يخب ... أن لا يضيع اليوم كدي والطلب
يا من ملا تلك القصور باللعب ... لولاك ما طابت ولا طاب الطرب

فحمل وقاتل، فقتل منهم عدداً كثيرا، ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو،

فحمل الثالثة على الناس، ثم أنشأ يقول:

يـا كعبـة الخلـد قفـي ثـم اسـمعي   مـا لـك قاتلنـا فكفـي وارجعـي
ثـم ارجعـي إلى الجنـان فـأسرعي   لا تطمعي، لا تطمعي، لا تطمعي

فقاتل حتى قتل، رحمه الله تعالى.

ولأجل ما ذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لـزم وقـوع الابتلاءات والمطالبات به حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام عـلى الـتمام، ولهـذا قال بعضهم: «أول ما يقول الله عـز وجـل للعبـد: اطلـب العافيـة والجنـة والأعـمال وغير ذلك، فإن قال: لا، ما أريد إلا أنت. قال له: من دخل معي في هذا إنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث وثبوت القدم، وذلك يوجب له العدم.

وقال بعض العلماء: «إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك».

وقال بعض المريدين لأستاذه: طولعـت بشيء مـن المحبـة، فقـال: «يـا بنـي هـل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه؟ فقال: لا، قال: لا تطمع نفسك في المحبة، فإنـه لا يعطيها أحداً حتى يبلوه.

وقال بعض علمائنا: «كل أهل المقامات يرجون أن يعفو عـنهم ويسـمح لهـم إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يطلبون بكل شعرة مطالبة، وفي كل حركة وسكون ونظرة وخطوة لله ومع الله».

وقال إبراهيم بن الأدهم رضي الله عنه –وكـان لـه مقامـات في المحبـة رفيعـة–:

«قلت ذات يوم: يا رب، إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطني ذلك، فقد أضر بي القلق، قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه، فقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه، أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقه. قال: فقلت: يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول، فاغفر لي وعلمني كيف أقول. فقال: قل: اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك» انتهى.

فللمحبين دقائق خطرات ولطائف ملاحظات، يظهر لهم بذلك الشوق في صفاء حبهم، والبعد في مواطن قربهم، فهم يفرون منها، ويخرجون عنها مخافة أن تسترق بشيء من ذلك قلوبهم بأدنى ميل أو مساكنة، فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذي أهل لهم وأهلوا له، ولذلك قال محمد بن سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «جناية المحب عند الله تعالى أشد من معصية العامي»، وهو أن يسكن إلى غير الله أو يستأنس بسواه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود – على نبينا وعليه الصلاة والسلام–: «يا داود، إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي مع حب غيري».

ويحكى أن الله تعالى قال لموسى –على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام–: «نعم العبد "برخ" هو لي إلا أن فيه عيبا، قال: يا رب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء».

ويروى أن عابداً عبد الله في غيضة دهراً طويلاً، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك الطائر! قال: ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لفلان العابد استأنست بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً».

٢٤٥. لَوْلاَ مَيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ، إِذْ لاَ مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ، وَلاَ قُطْعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ.

السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحوه آثارها ودواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه. ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فالبعد الحسي وهو المسافة التي تطويها رحلته، والبعد المعنوي وهي القطيعة التي تمحوها وصلته، محالان في حقه تعالى، لنفي المثلية في الأول وعدم العندية في الثاني.

هذه الألفاظ التي عبر عنها المؤلف رحمه الله تعالى من: السير، والميادين، والرحلة، والوصلة، وفي معناها: السير، والسلوك، والذهاب، والرجوع، هي عبارات استعملتها الصوفية في أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية، ومرجع جميع ذلك كله إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير.

وهذا الكلام الذي ذكره المؤلف ها هنا وما تقدم له ولنا غيرما مرة، من أن النفس هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيح المعنى.

قال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت. أي: ما حياة القلب إلا في إماتة النفس.

وقيل: النعمة العظمى الخروج عن النفس، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

وقال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «من لم يمت لم ير الحق».

وقال سيدي أبو العباس رضي الله عنه: « لا يدخل على الله إلا من بابين: من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، ومن باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة».

وعن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه قال: «من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر؛ فالموت الأبيض: الجوع، والموت الأسود: احتمال أذى الناس، والموت الأحمر: مخالفة النفس، والموت الأخضر: طرح الرقاع بعضها على بعض».

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «للنفس سر، ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال: أنا ربكم الأعلى، ولها سبعة حجب سماوية وسبعة حجب أرضية، فكلما يدفن العبد نفسه أرضا أرضا سما قلبه سماء سماء، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش، يعني: إذا خالفتها وفارقتها.

وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه في أن يعينه ويقويه على أمر نفسه. ويسهل عليه طريق سلوكه، ويستعمل هذا في كل حال ووقت، وليجعله عمدته فيما هو بسبيله.

وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: (ما توقف مطلب أنت طالبه بربك).

وقال بعض العارفين: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يكون الخروج من النفس بالله، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة في ظاهره وباطنه والتزام آدابهما.

ولكل عبد عمل مخصوص يقتضي لا محالة حكما مخصوصا يقوم بحقه، وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس، فحركات العبد وسكناته هي أعماله الظاهرة، ومقصوده وهمه وإرادته هي أعماله الباطنة. وكل واحد من القسمين ينبغي أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التي هي من شأن العامة والجمهور، حسبما تقدم عند قوله: (من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه).

فعمل الظاهر؛ إن كان واجبا فليبادر إلى فعله ولا يتوانى عنه، وليقم بجميع آدابه اللازمة له، ويلتحق بذلك ما كان مندوبا إليه إذا علم في أي مرتبة هو.

وإنما اشترطنا هذا الشرط لأن المندوبات التي تعترضه يحتاج فيها إلى تقديم الأولى فالأولى، والأهم فالأهم منها، فإن لم يعمل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعا للهوى لا لموجب العلم، وليأخذ في ذلك بالقصد من غير إفراط ولا تفريط

ولا غلو ولا تقصير، وفي حديث عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، وإن أفضل العمل أدومه وإن قل**».

وعن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا**».

وإن كان حراما؛ فليبادر إلى تركه واجتنابه وليقطع عن نفسه جميع أسبابه، ويلتحق بذلك ما يكون مكروها.

وإن كان مباحا؛ فهذا هو محل نظر المريد، فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه، وليقف على حدود الضرورة منه، وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس إليه، ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك. ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص، فرب شخص تميل نفسه إلى مالا تميل إليه نفس شخص آخر. فليشتغل المريد بقطع ذلك وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة، وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على ما لابد منه على وجه الطاعة والقربة، لا على سبيل الهوى والشهوة.

وفيما يشتد ميل نفوس أكثر الناس إليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاة نظر الخلق. والجريء على أهوائهم السيئة ومراسمهم المذمومة، ومجاهدة النفس في مثل هذا عسيرة جدا لاسيما على من ابتلي بحب الجاه والرياسة وقبول الخلق في ولاية حكم أو نشر علم أو غير ذلك، فإنها أشد الشهوات علاقة بالقلب وأضرها

بالمريد، فيجب عليه أن يعتني بذلك، ويبالغ في تطهير ظاهره وباطنه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال.

وقد نبهنا على هذا المعنى في أول الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى: (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لا يدفن لا يتم نتاجه).

ويتعين على المريد في رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه ويكف جوارحه عن التطلع والجولان في مظان وجدان شهواته وسيء عاداته، وأن لا يجامعها ولا يتفق معها، فإن ذلك منشأ كل شر، ومنبع كل فساد وضر، كما قيل:

إن السلامة من سلمى وجارتها ... أن لا تمر على حال بواديها

فليراقب ربه وليحفظ جوارحه وقلبه، فإن الإنسان قد يتحرك مثلا في طلب الخير والعمل من أعمال البر فيتفق أن يقع بصره على شيء له فيه هوى وشهوة، فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة، فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه ويختل عليه في لحظة ما كابد أمره في سنة مثلا، وكذلك سائر حواسه.

وقد شبه العلماء رضي الله عنهم النفس في مثل هذا بدابة استعارها رجل من ربها ومالكها ليتصرف بها في حاجاته، وكانت دابة جموحة صعبة المراس، فجاز بها المستعير في بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها، فإنه لا محالة يحتاج إلى صرف عنانها، فإن تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه، وقد يكون عليه في ذلك تعب ومؤونة، وسبب ذلك إنما هو خطوره

بها على دار مولاها الذي ألفته واعتادته، ولـو لم يمر بهـا عليـه لسلم، ولم يحتج إلى معاناة ومكابدة، فإن تغافل عنها حتى أدخلت يـديها في عتبـة البـاب واستمكنت منها، ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه، بل اقتحمت به الـدار كرهـا، وربـما جرحت رأسه وآلمته. وسبب ذلك: إنما هو تمكينها من العمـل بمقتضـى طبيعتهـا، وموافقة جبلتها، فكذلك حال النفس، قال:

فـالنفس إن أعطيتهـا هواهـا فـاغرة نحـو هواهـا فاهـا

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريـد، فـإن الـنفس إذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها. وبمداومته على ذلـك يحصل له من التزكية والتخلية والاستقامة والطمأنينـة مـا هـو المقصـود بالرياضـة والمجاهدة، فإن اعتراه شيء مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من أجـل ذلـك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة، وأنى له مـع ذلـك تـلافي مـا فاتـه! وقـد قـالوا: «وقفة المريد شر من فترته».

قـال الإمـام القشـيري رضي الله عنـه: « والفـرق بـين الوقفـة والفـترة: أن الفـترة رجوع عن الإرادة وخروج منهـا، والوقفـة خـروج عـن السـير باستحلاء حـالات الكسل، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء»، انتهى كلامه رحمه الله.

فبدايات الأمور هي التي يجب أن يراعيها المريـد، والله ولي التوفيـق والتسـديد، ولا غنى للمريد في هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج إليه من العلـوم الشـرعية عـلى ما ينبغي.

وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد وهو إخلاص التوحيد لله عز وجل باعتقاد العبودية له، وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى، وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه.

وهذا المعنى هو الذي ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه "التنوير في إسقاط التدبير" فليستعن المريد على ذلك به ولا يقصد برياضته ومجاهدته التوصل إلى شيء من الكرامات وخرق العوائد وأنواع الإجابات، فإن ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية.

قال أبو عثمان المغربي رضي الله عنه: «من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخاليا من جميع الإرادات إلا مراد ربه، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية».

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية».

قال صاحب كتاب "عوارف المعارف": «من دخل الخلوة معتلا في دخوله، دخل عليه الشيطان، وسول له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور والمحال، وظن أنه حصل على حسن الحال».

قال: وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها،وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس، كفعل الرهاب والبراهمة والفلاسفة والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا، فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك.

وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يعتني به الفلاسفة والدهريون، وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك، حتى يركن إليه كل الركون ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هي المقصودة من الخلوة، لقول بعضهم: «الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة».

وقد يفتح على الصادقين بشيء من خرق العادات وصدق الفراسة وتبين ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يقع عليهم ذلك، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة.

وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعي لهم إلى

صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته، واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول، ثم يتدرج من ذلك إلى الإلحاد والزندقة نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع، ويسمونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك»؟ انتهى كلامه رحمه الله تعالى، وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق.

فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التي ذكرناها، مشاهدا لتوفيق ربه عز وجل وتأييده له، يحصل له من الله مزيد كثير، وعند ذلك يتطهر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات، وتستنير سريرته بأنوار المكاشفات والملاطفات.

وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال: «قتل النفس في الحقيقة: التبري من حولها وقوتها، أو شهود شيء منها ورد دواعيها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار بشريتها عنها. فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها ولا عبرة»، انتهى.

فهذه هي السبيل إلى موت النفس المفضي إلى حضرة القدس، لكونه جاريا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدي كل سالك مريد.

ولا بد للمريد في هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد، قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلص من هواه، فليسلم نفسه إليه وليلتزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد، فقد قالوا: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه.

وقد قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب نفسه ورعونات أعماله لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقال سيدي أبو مدين: «من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه».

وقال المؤلف في "لطائف المنن": إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد، فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك في كمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب عنها، وعدم الركون إليها،

ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه.

قال: فإن قلت: فأين من هذا وصفه، لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب! فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين، وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق قريبا منك ولك مجيبا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك» انتهى.

وفي كلامه رحمه الله تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد الصادق إذا صدق في إرادته وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته، لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الأدب معه لما أشهده من عالي مرتبته ورفيع درجته.

قال سيدي أبو مدين: الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه».

وقال المؤلف رحمه الله في "لطائف المنن": «وليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذي أثرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذي نهض بك حاله، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في أنوار الحضرة وقال: ها أنت وربك» انتهى.

وآداب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة في كتب الأئمة الصوفية رضي الله عنهم، ومن أبلغ ذلك وأوجزه ما ذكره الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه قال: «فشرط المريد أن لا يتنفس نفسا إلا بإذن شيخه، ومن خالف شيخه في نفسه سرا أو جهرا فسوف يرى غبه من غير ما يحبه سريعا. ومخالفة الشيوخ فيما يسرونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهر وأكثر، لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق، فإن برز منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة، ليهديه شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه، ويلتزم في الغرامة ما يحكم به عليه، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على شيوخهم، فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبرانا لتقصيرهم» انتهى.

وقال الشيخ العارف محيي الدين أبو العباس البوني رحمه الله تعالى: إياك أن تحقر فعلا يخطر لك أن لا تلقيه إلى الشيخ طاعة كان أو معصية على أي نوع برز لك، ولو اختلف عليك ألف مرة في ساعة اختلف إليه ألف ساعة في الخاطر ليعلمك الدواء الذي تزعجه به، ويحمل عنك همه، قال: ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الإمام تاج العارفين أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي رحمه الله تعالى وكنت جالسا عنده، فدخل عليه فقير وفي يده "باقلاة" فقال له: يا سيدي، إني وجدة هذه الباقلاة فما أصنع بها؟ فقال له: اتركها حتى نفطر عليها. فقلت: يا سيدي، حتى الباقلاة يعلم بها! قال: يا ولدي، لو خالفني في لحظة من خطراته لم يفلح أبدا».

فإذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات وقوتلت بهذه المقاتلات رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعاداتها الرديئة وزال عنها النفور والاستكبار، ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار، وتزكت أعمالها وصفت أحوالها. وهذه هي خاصيتها التي خلقت لأجلها، ومزيتها التي شرفت من قبلها، وإنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى والأنس بالشهوات التي تزول وتفنى، حتى امتنع عليها ما خلقت لأجله من موجب سعادتها وغاية شرفها وإفادتها، فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة وإلى طبعها الأصلي، فألفت العبودية والتزمتها وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن يقال لها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]

قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «النفس المطمئنة هي التي تخلصت من السوء ولم يبق بينها وبين السوء نسبة، وكانت مبادئها في الاكتساب: الإيمان والرضا المكتسب، فلما صفت وتطهرت من جهة المخلوقات وزال عنها الحجاب الذي هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب فأجابت لعدم الحجاب، فخرجت للمواهب والرضا الوضعي الوهبي الذي قال الله فيه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، فدخلت في رضا الله المطلوب الموهوب، وفي عباده وجنته، لا في جنتها بوصف كسبها وأعمالها» انتهى.

وعلامة وصول المريد إلى هذا المقام الحميد أن تستوي عنده الأحوال ولا يتأثر باطنه بما يواجه به من قبيح الأفعال والأقوال لاستغراق قلبه في مطالعة حضرة الكمال.

قال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: « لا يكمل إيمان الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء؛ المنع، والعطاء، والعز، والذل». وقال محمد بن حنيف رضي الله عنه: «قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل، وكان به علة بالبطن، فكنت أخدمه وآخذ منه الطشت طول مرضه، فغفوت مرة، فقال لي: نمت، لعنك الله. فقيل لي: كيف وجدت نفسك عند قوله "لعنك الله". فقلت: كقوله "رحمك الله"».

وحكي عن إبراهيم بن الأدهم رضي الله عنه أنه قال: «ما سررت في الإسلام إلا مرات معدودات؛ كنت في مركب يوما، وكان به رجل يحكي الحكايات المضحكة،

فيضحك الناس منه، وكان يقول: رأيت وقتا في معركة الترك "علجا" فقلت: هكذا، وكان يأخذ بلحيتي ويمر يده على حلقي، هكذا، والناس يضحكون منه، ولم يكن في ذلك المركب عنده أحد أصغر مني ولا أحقر، فسررت بذلك، وكان يوم آخر كنت جالسا فجاء رجل وصفعني من غير سبب، وكان يوم آخر كنت جالسا فجاء إنسان وبال عليّ».

وكان في وقت حاتم الأصم رضي الله عنه رجل يسيء القول فيه وفي أصحابه، ويواجههم كل يوم بالقبيح، فوقع عليه جذع من السقف في بعض الأيام في حال مواجهته القوم بالسب والشتم فمات، فقال حاتم: "الحمد لله"، فقيل له: هذا خلاف ما تأمرنا به، فقال: ما حمدت الله شماتة بموته، بل حمدت الله إذ لم أسر بنكبته».

هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة.

وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهية البقاء في الدنيا شوقا إلى لقاء المولى، قال بعضهم: «حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى في كل نفس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها، فإذا وجد المريد هذه العلامات في نفسه فقد خرج من عالم حسه ووصل إلى حضرة قدسه، وكان كما قال الشاعر:

لك الدهر طوع والأنام عبيد ... فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدي أبو العباس العريف رضي الله عنه في هذا المعنى:

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ... ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سر عيبه ... ولولاك لم يطلب عليه ختامه
فإن غبت عنه حل فيه، وطنبت ... على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه ... شهي إلينا نثره ونظامه
إذا سمعته النفس طاب نعيمها ... وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا في معناه أيضا رضي الله عنهم أجمعين:

قولي لآمالي ألا فابعدي ... قد أنجز الأحباب لي موعدي
قد كنت قبل اليوم مستأنسا ... منك بخل مشفق مسعد
إذا نسيم الوصل من نحوهم ... هب فلي عندك ظل ندي
وحيث إن لاحت لي أعلامهم ... فليس لي فقر إلى مرشدي

وإن لم يجدها في نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته، ولا يغتر بما قد يتراءى له من سني حالته، فإنه لم يصل بعد ولم يحصل له من هوى نفسه فقد، وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرفاق عنها وردها إلى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة في التقشف، والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهممه وقصوره وإراداته وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم، فذلك كله غلو وبدعة، وقد غلط في ذلك طوائف من الناس عملوا عليه في رياضاتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة.

٢٤٦. جَعَلَكَ فِي العَالَمِ المُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ، لِيُعْلِمَكَ جَلاَلَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ.

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم وأتم تسوية وتعديل، وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات علويها وسفليها، لطيفها وكثيفها، فصار لذلك روحانيا جسمانيا أرضيا سماويا، ولذلك يقال له "العالم الأصغر"، وهذا هو الذي يظهر لي في معنى جعله في العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت.

وعالم الملك هو عالم الشهادة، وعالم الملكوت هو عالم الغيب، فلا جرم لما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات والروحانيات كانت الأكوان كلها له باعتبار إحاطتها به وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذي يحفظ الشيء ويصونه، وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التي تحويها الصدفة.

والمقصود من هذا أن يعرف الإنسان جلالة قدره وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به، وذلك بإخلاص العبودية لربه عز وجل، وقطع النظر عن كل ما سواه، وينظر في هذا المعنى إلى ما قاله الشاعر:

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة ... ونارا وأفلاكا وأحلاكا
وكنت من السر المصون سريرة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
ففيم التأني في الحضيض تثبيطا ... مقيما مع الأسرى أما حان إسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: «الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة».

وقد ورد في بعض الكتب المنزلة: «يا ابن آدم، أَنا بُدك اللَّازِم، فَالزَمْ بدك». وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: «يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عن ما أنت له».

وقال الواسطي رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، قال: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه لئلا يكونوا في تسخير شيء ويتفرغوا إلى عبادة ربهم.

٢٤٧. إِنَّمَا وَسِعَكَ الكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُسْمَانِيَّتِكَ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتِ رُوْحَانِيَّتِكَ.

إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة، ووسعه لك باعتبار ما ذكرناه، إنما هو باكتفائك به وقضاء أوطارك منه ووقوف أملك في نيل حاجاتك عليه، ولا خاصية لك في ذلك أيها الإنسان لأن مرتبتك أجل من ذلك.

وإنما لم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك لعدم المناسبة، فلا يسعك حينئذ ولا يناسبك إلا بالتعلق بالمكون، وهذه هي خاصيتك التي فيها سموك وعلوك ورفعة قدرك، فلم تهملها وتنحط منها إلى أسفل سافلين.

قال أبو عبد الله بن الجلاء رضي الله عنه: «من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكونها، ومن وقف بهمته على شيء سوى الحق فاته الحق، لأنه أعز من أن يرضى معه شريكا».

وسئل أحمد بن خضرويه عن أي الأعمال أفضل؟ فقال: رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله».

٢٤٨. الكَائِنُ فِي الكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الغُيُوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ وَمَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ.

فمن لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية، ولا خلص سيره إلى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته، وهذه هي صفات أصحاب النار كما قال الله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، وليس في جهنم أعظم من السجن والحصر والضيق والقهر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وما ذكرناه هو حال من بقي مع نفسه وعمل على نيل حظه كائنا ما كان.

وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: «عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل هم، ما كنت بك فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب، فاختر لنفسك».

٢٤٩. أَنْتَ مَعَ الأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمُكَوِّنَ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتِ الأَكْوَانُ مَعَكَ.

فرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك؛ فإن كونك مع الأكوان يقتضي تقييدك بها وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها، ثم هي خاذلتك ومسلمتك

أحوج ما تكون إليها، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون، وكون الأكوان معك يقتضي ملكك لها، واستغناؤك عنها، فأنت حينئذ حر عنها، وهي محتاجة إليك وخادمة لك، ومتبركة بك، حتى الجمادات والحيوانات.

وقال الشبلي رضي الله عنه: «ليس يخطر الكون ببال من عرف المكون». وهذه حالة نفيسة يقتضيها شهودك للمكون.

قال بعض المشايخ رضي الله عنهم: «أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إلي وأنا عن جميعها حر».

وعن المزين الكبير رضي الله عنه قال: «كنت مع إبراهيم الخواص في بعض أسفاره، فإذا عقرب تسعى على فخذه فقمت لأقتلها، فمنعني، وقال: دعها كل شيء مفتقر إلينا ولسنا مفتقرين إلى شيء».

وقال محمد بن المبارك الصوفي رحمه الله تعالى: «كنت مع إبراهيم بن الأدهم في طريق بيت المقدس، فنزلنا في وقت القائلة تحت شجرة رمان فصلينا ركعتين، فسمعت صوتا من أصل شجرة الرمان: يا أبا إسحاق، أكرمنا بأن تأكل منا شيئا، فطأطأ إبراهيم رأسه، فقال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا محمد، كن شفيعا إليه ليتناول منا شيئا. فقلت: يا أبا إسحاق لقد سمعت... فقام فأخذ منها رمانتين فأكل واحدة، وناولني الأخرى فأكلتها.

وفي غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة ورمانها حامض، وأنها تطعم كل

عام مرة، فعلت وارتفعت وحلا رمانها وصارت تطعم في كل عام مرتين».

وكانت السباع تجيء إلى سهل بن عبد الله رضي الله عنه فيدخلهم بيتا عنده ويضيفهم ويطعمهم اللحم.

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: «كنت في البادية مرة، فسرت في وسط النهار فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء فنزلت، فإذا أنا بسبع عظيم قد أقبل، فلما قرب مني إذا هو يعرج، فحمحم وبرك بين يدي، ووضع يده في حجري، فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح ومسحته، وشددت على يده خرقة، فمضى فإذا أنا به بعد ساعة جاء ومعه شبلان يبصبصان لي، وحمل إلي رغيفا.

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن الأدهم وهو في بستان يحفظه، وقد أخذه النوم، وإذا حية في فمها طاقة نرجس تروحه بها.

وحكي عن أبي إسحاق الصعلوكي رحمه الله تعالى قال: خرجت مرة إلى الحج فبينما أنا في البادية إذ تهت، فلما جن الليل علي وكانت ليلة قمراء، فسمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة، منها ما عرفته ومنها ما لم أعرفه، فقلت من أين أنت؟ فقال: من مدينة "سميساط" كنت في عز وثروة فطالبتني نفسي بالعزلة فخرجت، وقد أشرفت على الموت، فسألت الله تعالى أن يقيض لي وليا من أوليائه، فأرجو أنك هو، قال: فقلت له: ألك والدان؟ قال: نعم، وإخوة

وأخوات، قلت: «هل اشتقت إليهم وإلى ذكرهم، فقال: لا، إلا اليوم أردت أن أشم ريحهم فاحتوشتني السباع والبهائم وبكين معي، وحملن إلي هذه الرياحين، قال: فبينما أنا في تلك الحالة يرق قلبي له إذا بحية أقبلت في فمها طاقة نرجس، فقالت: دع شرك عنه، فإن الله تعالى يغار على أوليائه. قال: فغشي علي فما أفقت حتى خرجت نفسه، رحمة الله تعالى عليه ورضوانه، ثم وقع علي سنات من النوم، فانتبهت وأنا على الجادة، قال: فدخلت مدينة "سميساط" بعدما حججت فاستقبلتني امرأة فما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتني قالت: يا أبا إسحاق، كيف رأيت الشاب، فإني أنتظرك منذ ثلاث، فذكرت لها القصة إلى أن قلت: قال: أردت أن أشم ريحهم، فصاحت وقالت: آه، بلغ الشم الشم، وخرجت نفسها، فخرجت أتراب لها عليهن المرقعات والفوط، فتكفلن أمرها وتولين شأنها، رضي الله عنهن أجمعين.

فهكذا حال من يكون عظيم الهمة شريف الإرادة والنية، لا يساكن أحدا من المخلوقات، ولا يواطن نفسه على شيء من المصنوعات، فيتكفل الله تعالى بأمره، ويجعل الكون خادما له بأسره، رزقنا الله تعالى وإياكم ما رزقهم، ووفقنا كما وفقهم بجوده وكرمه.

٢٥٠. لاَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ البَشَرِيَّةِ، إِنَّمَا مَثَلُ الخُصُوصِيَّةِ كَإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ ظَهَرَتْ فِي الأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ، تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ، فَالنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ.

ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية، لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها وانقلابها، وإنما اللازم من ذلك عدم غلبة أحكام ذلك الوصف على العبد فقط لأجل الوارد الغالب، فإن قدر ذهاب هذا الوارد الغالب بقي وصف البشرية غالبا قاهرا، وكان العبد في يديه أسيرا.

ومثال ذلك من المحسوسات: إشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها، فتستنير بذلك وتشرق، فإذا غابت الشمس رجعت إلى حالها من الظلمة، لأن النور ليس بذاتي لها، وهو معنى قوله: "وليست منه"، ومعنى الخصوصية المذكورة هو: ما يخص الحق تعالى به أولياءه من ظهور أوصافه العلية، ونعوته القدسية عليهم، ليغطي بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم، لئلا تظهر آثار كدوراتها في صفاء أوقاتهم كما تقدم من قوله: (إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فإذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم، وبقوا في نهار الوصلة والقربة، من غير حول لهم ولا قوة)، وهو معنى قوله: (فالنهار ليس منك إليك)، وإن غابت عنهم تلك الأنوار المشرقة رجعوا إلى أصلهم، ولزموا الوقوف على حدهم، وكانوا في ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك.

والغرض من هذا: الرد على طوائف غلطت في هذا الأمر وتغالت، وزعمت أن القرب من الله تعالى والوصول إليه إنما يكون بعدم أوصاف البشرية وزوالها

بالكلية، واتصافه بصفات الربوبية بدلا منها، وفسرت بهذا ما عبر بـه المشـايخ مـن "الفناء" و"البقاء"، فوقعوا من ذلك في ضلال وتزندق، نعوذ بالله من ذلك، والمعنى الصحيح من ذلك إنما هو ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ورضي عنه هاهنا.

٢٥١. دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِهِ، فَأَرْبَابُ الجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا. نِهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةُ المَجْذُوبِينَ، وَبِدَايَةُ السَّالِكِينَ نِهَايَةُ المَجْذُوبِينَ؛ لَكِنْ لاَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، فَرُبَّمَا التَقَيَا فِي الطَّرِيقِ، هَذَا فِي تَرَقِّيهِ، وَهَذَا فِي تَدَلِّيهِ.

عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلى قسمين: سالكين ومجذوبين.

فشأن السالكين: الاستدلال بالأشياء عليه، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئا إلا ورأينا الله بعده.

وشأن المجذوبين: الاستدلال به على الأشياء، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئا إلا رأينا الله قبله.

ولا شك أن الدليل أبدا أظهر من المدلول، فأول ما ظهر للسالكين الآثار، وهي الأفعال، فاستدلوا بها على الأسماء، وبالأسماء على الصفات، وبالصفات على وجود

الذات، فكان حالهم الترقي والصعود من أسفل إلى أعلى.

وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، فكان حالهم التدلي والتنزل من أعلى إلى أسفل.

فما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهاء المجذوبين.

وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهاء السالكين. لكن لا بمعنى واحد، فإن مراد السالكين شهود الأشياء لله، ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله، فالسالكون عاملون على طريق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو، ولما كان شأن الفريقين النزول في تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما في طريق سفرهما: السالك مترق والمجذوب متدل.

٢٥٢. لاَ يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ القُلُوبِ وَالأسْرَارِ إِلاَّ فِي غَيْبِ المَلَكُوتِ، كَمَا لاَ تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلاَّ فِي شَهَادَةِ المُلْكِ.

أنوار القلوب والأسرار المشرقة عليها من سماء التوحيد والمعرفة، لا يعرف قدرها إلا في غيب الملكوت وهو عالم الآخرة، وهناك يحصل لهم تمام هذه الأنوار، فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظ الأوفر، كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الأجرام لا تظهر إلا في شهادة الملك، وهو عالم الدنيا، وذلك لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

٢٥٣. وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلاً بَشَائِرُ العَامِلِينَ بِوُجُودِ الجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً.

ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى في أعمالهم عاجلا من مزيد الإيمان واليقين، وتنسم روح الأنس ولذيذ القرب ولطيف الوصل بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة، لأنها مقبولة عند الله تعالى، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول).

٢٥٤. كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟

العمل الذي يصح طلب العوض والجزاء عليه هو: ما عملته لينتفع به غيرك، ولم يحصل لك بذلك منفعة ولم يندفع عنك بسببه مضرة.

والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهرا وباطنا بخلاف هذا كله، إذ هي مسلوبة عنك منسوبة إلى ربك خلقها واختراعها، عائد ثمرة ذلك ومنفعته عليك في ظاهرك وباطنك، وهو غني عنك وعنها، ولذلك عبر عنها بالتصدق والإهداء تنبيها على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك.

فطلب العوض والجزاء إذن على عمل هذا صفته في غاية القبح، ولذلك صدر المؤلف رضي الله عنه كلامه بـ "كيف" ليُعجِّبك من ذلك الوصف، قال الواسطي رضي الله عنه: «مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل».

وسئل أبو العباس ابن عطاء الله رضي الله عنه: عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالى،

فقال: «رؤية النفس وأفعالها، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها».

واستعمال المؤلف رحمه الله لفظ "الصدقة" في الأعمال الظاهرة ولفظ "الهدية" في الصدق وعليه مدار الأعمال الباطنة: إشعار بتباينهما في الشرف كتباين الهدية والصدقة.

٢٥٥. قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ، وَقَوْمٌ لاَ أَذْكَارَ وَلاَ أَنْوَارَ . ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا، وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا، وَالَّذِي اسْتَوَتْ أَذْكَارُهُ وَأَنْوَارُهُ فَبِذِكْرِهِ يُهْتَدَى، وَبِنُورِهِ يُقْتَدَى.

سبقية الأذكار للأنوار هو حال المريدين السالكين، وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فهم يأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمل، ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، وسبقية الأنوار للأذكار هو حال المريدين المجذوبين؛ لأنهم مقامون في السهولة والخفة، فهم لما وجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمل، قال في "لطائف المنن" حاكيا عن شيخه أبي العباس المرسي: «.. وقال رضي الله عنه: الناس على قسمين؛ قوم وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]. قال: ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه، فسار يطوي مهام نفسه وبيداء طبعه إلى أن

وصل إلى حضرة ربه، يصدق على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٧٤].

فالأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين، فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة، ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة، ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله تعالى، فسلكها مسرعا إلى الله تعالى عاجلا، وكثيرا ما تسمع عند مراجعة المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف طريقا بها توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا؛ فإن المجذوب طويت الطريق له ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها.

والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا».

انتهى ما ذكره في حال الجذب والسلوك، وهو حسن قل أن يوجد لغيره، فلذلك أوردته ها هنا بكماله.

٢٥٦. مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ إِلاَّ عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وفِكْرٍ.

أعمال الظاهر تكون تبعا لما يكون في الباطن، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر)، فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة

باطن الشهود والفكر. ثم بين هذا المعنى بقوله:

٢٥٧. أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَكَ، فنَطَقَتْ بِإِلَهِيَّتِهِ الظَّوَاهِرُ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ القُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ.

كاشف الله تعالى القلوب والأسرار في غيب الغيب بحقائق وحدانيته وإحاطة قيوميته، فلما أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت، فتحققت بذلك الأحدية، فلما أظهرها في عالم الشهادة ملتبسة بالأجسام والهياكل طلب منها الشهادة له بالإلهية، فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا لشهودها لما اشهدت، فالعبد من حيث سره وقلبه بوصف الجمع، ومن حيث ظاهره وجسمه بنعت الفرق، ولابد في هذا الطريق من وجود الجمع والفرق، وقد قالوا: كل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

قال الجنيد رضي الله عنه في معنى الجمع والتفرقة:

فتحققتك في سري فناجاك لساني ... فاجتمعنا لمعاني وافترقنا لمعاني

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني ... فلقد صيرك الوجد من الأحشاء داني

وذهب الجنيد رحمه الله إلى أن: قربه بالوجد جمع، وغيبه في البشرية تفرقة.

٢٥٨. أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلاَثٍ: جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ، وَلَوْلاَ فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ. وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ، إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ. وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ.

أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات، جمع له فيها كل المفاخر والمحامد.

أولها: كونه ذاكرا له، بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه، ومن أين له ذلك، وبأي وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه.

وثانيها: كونه مذكورا به، فيقال: هذا عبد الله، ووليه، وصفيه، ومختاره، وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه، وهي إثبات الخصوصية له، وقد تقدم معنى الخصوصية.

وثالثها: كونه مذكورا عنده، وهذه هي غاية الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام، قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قيل معناه: ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله، وفي حديث أبي بن كعب ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقرأ عليك القرآن**»، قال: قلت: يا رسول الله، سماني لك ربك؟ قال: «**نعم**»، فقرأ علي: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفي حديث أبي حية البدري ﷺ قال: لما نزلت سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البيِّنة:١] إلى آخرها، قال جبريل عليه السلام: إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيا، فقال النبي ﷺ لأُبي: «**إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة**» فقال أُبي: أَوَذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» قال: فبكى أُبي.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ**

ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب مني شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب مني ذراعا، تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ يشهدان به على النبي ﷺ أنه قال: «**ما جلس قوم مسلمون مجلسا يذكرون الله فيه، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»**.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «يا غفول يا جهول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا».

٢٥٩. رُبَّ عُمرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عُمرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ.

الإمدادات الإلهية التي يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة في إيمانهم وتقوية لإيقانهم لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره، فلا تنقص بذلك ولا تزيد به، ولا تقل ولا تكثر، وإنما ترد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم، ويختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فطرهم، ولا مدخل للزمان في هذا إلا بالعرض، وبهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم وطول أعمار غيرهم.

قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: قلت لأبي سليمان الداراني رضي الله عنه: قد غبطت بني إسرائيل. قال: بأي شيء؟ قلت: بثمان مائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالأوتار. قال: ما ظننت إلا وقد جئت بشيء، لا والله

ما يريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا، ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده، هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما نال ذاك في عمره».

٢٦٠. مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعَالَى مَا لاَ يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ العِبَارَةِ، وَلاَ تَلْحَقُهُ الإِشَارَةُ.

البركة في العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته، فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية، ويستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية، وفي أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهي الإشارة إليه، وكل ذلك في عمر قصير وزمن يسير، فيرتفع له في شهر مثلا مالا يرتفع لغيره في ألف شهر، بمنزلة ليلة القدر، العمل فيها لمن صادفها خير من العمل في ألف شهر.

قال بعض العلماء: «كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر».

كان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: «أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر، فهذا هو البركة في العمر، لا تطويله وزيادة مدته».

وقيل هذا المعنى في تأويل ما روي في الخبر: «البر يزيد في العمر».

٢٦١. الخُذْلاَنُ كُلُّ الخُذْلاَنِ في أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ ثُمَّ لاَ تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، وَتَقِلُّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لاَ تَرْحَلُ إِلَيْهِ.

من الخذلان: أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه إلى الله تعالى والرحيل إليه، بل الواجب عليك أن تبادر إلى ذلك وترمي بالعوائق والشواغل خلف ظهرك.

وقد قيل: «سيروا إلى الله عز وجل عرجًا ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١]». وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس) فإن زالت شواغلك وقلت عوائقك ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان، أعاذنا الله منه.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجر في قياد الشهوات، شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه».

٢٦٢. الفِكْرَةُ سَيْرُ القَلْبِ فِي مَيَادِينِ الأَغْيَارِ.

الفكرة التي ألزمها العبد وحض عليها هي: سير القلب في ميادين الأغيار فقط، وهي: مخلوقات الله ومصنوعاته.

وأما الفكرة في ذات الله تعالى فلا سبيل إليها، يعتبر المتفكرون في آياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته.

روي عن ابن عباس ﭬ أن رسول الله ﷺ أبصر قوما فقال: «**مالكم**»؟ فقالوا:

نتفكر في الخالق، قال: «**تفكروا في خلقه ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره**».

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: التفكر نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم، فإذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه عن مناهل التحقيق، ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا فيها، وفكر العابدين في جميل الثناء فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه، وفكر العارفين في الآلآء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه وتعالى.

وقال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد».

وفي بعض النسخ: «الفكرة: سير القلب في ميادين الاعتبار»، ومعناه ظاهر.

٢٦٣. الفِكْرَةُ سِرَاجُ القَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلاَ إِضَاءَةَ لَهُ.

القلب الخالي من الفكرة خال من النور، مظلم بوجود الجهل والغرور، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها في ميادين فكرة).

٢٦٤. الفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعَيَانٍ، فَالأُولَى لأَرْبَابِ الاعْتِبَارِ، وَالثَّانِيَةُ لأَرْبَابِ الشُّهُودِ وَالاسْتِبْصَارِ.

تقدم الآن أن الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار، وسيره على وجهين: صعود ونزول.

فالصعود لأرباب الاعتبار، وهي فكرة ناشئة عن التصديق والإيمان، وهذا للسالكين، وهو حال ترقيهم، وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر.

والنزول لأرباب الشهود والاستبصار، وفكرتهم فكرة ناشئة عن الشهود والعيان، وهذا للمجذوبين، وهو حال تدليهم، وهو وصف المستدلين بالمؤثر على الآثار، وقد تقدم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك.

وقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مما كَتَبَ به لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ:

هذا كتاب يتضمن ذكر حال السالك من أول ابتداء سيره إلى انتهائه وحصوله في مستقره، وذكر آداب السلوك والوصول.

وقد أتى رحمه الله تعالى في ذلك بعبارات صحيحة فصيحة، واستعارات حسنة مليحة، على طريقة وعظية، إذا سمعها السامع طرب لها قلبه، وهام فيها عقل ولبه، وما ذاك إلا لما علق بها من أنوار قلب المتكلم. وقد قال فيما تقدم: (كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز).

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ البِدَايَاتِ مَجَلاَّتُ النِّهَايَاتِ .

المجلات: محل التجلي والظهور، فالسالك في ابتداء سلوكه يتجلى له أمر نهايته.

وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِاللهِ بِدَايَتُهُ كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَايَتُهُ.

هذا بيان ما ذكره، ومعنى كون بدايته بالله: أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى، والاعتماد عليه والانقطاع إليه، فبذلك يصح له وينفذ في توجهه وسلوكه، كما تقدم عند قوله: (ما توقف مطلب أنت طالبه بربك).

ومعنى كون انتهائه إلى الله: أن يكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية، وتوحده بالديمومية، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، انكشافا يظهر له به عدمية ذاته

وتلاشيه، وتدكدكه واضمحلاله، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

فإذا صحت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل إلى هذه النهاية. وقد تقدم هذا المعنى في قوله: (من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات).

وَالْمُشْتَغَلُ بِهِ هُوَ الَّذِي أَحْبَبْتَهُ وَسَارَعْتَ إِلَيْهِ، وَالْمُشْتَغَلُ عَنْهُ هُوَ الْمُؤْثَرُ عَلَيْهِ .

المشتغل به أيها المريد السالك: إنما هو عملك على التقرب من ربك عز وجل، والتوسل إليه بالطاعة والعبودية له، وهو الذي أحببته وسارعت إلى إجابة دعوته، فيحق عليك ألا تستقل ذلك الشغل بل تكون به قرير العين.

والمشتغل عنه: إنما هو متابعة حظوظك العاجلة، ومراداتك الزائلة، وهو الذي يستحق الإيثار عليه، إذ هو فان مضمحل لا حقيقة له، فلتطب عنه نفسا، ولا تعمل فيه عقلا ولا حسا.

وهذا الكلام تهييج للسالك وإنعاش لقوته وإنهاض لهمته، قال الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلي رضي الله عنه: «سمعت عبد الله بن إسحاق الغافقي يقول: «ما انتفعت إلا بدعاء رجل بمكة، مررت إلى المسجد الحرام بالسحر، فإذا رجل يسف التراب، فقلت: مجهود أم مجنون؟! ثم قلت له: يا هذا أتسف التراب؟ قال: فقال لي: أوتراب هو، ثم ناولني. قال: فما شككت أنه سويق أو قند، أنا أشك أيهما. قال: فقلت: ولي لله، وجثوت على ركبتي وقلت: ادع الله لي، فقال لي: عرفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك».

وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبَ إِلَيْهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الأُمُورَ بِيَدِ اللهِ انْجَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ .

العبد مطلوب لربه عز وجل بإقامة وظائف العبودية له، وذلك بما اختصه به عز وجل من العقل والفهم، وما رزقه من المعرفة والعلم.

وثمرة ذلك الطلب عائدة على العبد، فلم لا يصدق العبد في طلبه واجتهاده إذا أيقن بذلك؟ والأمور كلها بيد الله تعالى، ومن ذلك: سعيه وكدحه، فلم لا يتوكل عليه في ذلك فيجتمع همه ويتيسر أمره، إذا علم بذلك فالقسم الأول قيام بمقتضى الشريعة، والقسم الثاني وفاء بحق الحقيقة.

وَأَنَّهُ لاَ بُدَّ لِبِنَاءِ هَذَا الوُجُودِ من أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ، وَأَنْ تُسْلَبَ كَرَائِمُهُ .

ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته، لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لابد أن تزال عنه ولو بعد حين، وكل ما هو آت قريب، لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك. ويكون طيب النفس بتركه. وتهديم الدعائم وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة.

فَالعَاقِلُ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى، قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ .

فرح العبد بالأشياء الفانية هو موجب للزيادة في همه وغمه إذا فقدها. قال سيدي سهل بن عبد الله: «من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا لا انقضاء له».

وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه). فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه بل يكرهه ويبغضه، وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التي لا تفنى، قد أشرق نور ذلك في قلبه، وظهرت تباشيره على وجهه، وإشراق النور وظهور التباشير نتائج تحققه في مقام الزهد.

فَصَدَفَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِيًا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِّيًا، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَنًا وَلاَ جَعَلَهَا سَكَنًا .

فلما كان العبد على هذا الوصف صدف عن هذه الدار الدنيوية، أي: مال عنها مغضيا جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك، معرضا عنها بوجه قلبه، قد ولاها دبره من غير التفات إليها. وهذا مبالغة في نبذها واطراحها، فلم يتوطنها بظاهره على سبيل التمتع بها والاستبشار ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها والإيثار، بل نزلها منزلة السجن والمضيق، ووطن نفسه فيها على تحمل ما يطيق وما لا يطيق.

وهذه علامات على تحققه بالزهد في الأمور الفانية التي هي بغيضة له، فلما وصل إلى ذلك حصل له من طهارة قلبه وصفاء لبه ما حمله على التعلق بمولاه الباقي الدائم، فجعل دنياه معبرا يعبره إليه كما سيقوله المؤلف الآن.

بَلْ أَنْهَضَ الهِمَّةَ فِيهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَسَارَ فِيهَا مُسْتَعِينًا بِهِ فِي القُدُومِ عَلَيْهِ .

هذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية، وبدأ بإنهاض الهمة إلى ربه والاستعانة به في القدوم عليه، وهو أساس أمره كما تقدم، قال الشاعر:

إذا لم يعنــك الله فــيما تريــده　　فلــيس لمخلــوق إليــه ســبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك　　ضــللت ولــو أن الســماك دليــل

قال أبو محمد الجريري رضي الله عنه: من توهم أن عملا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضل عن طريقه، لأن النبي ﷺ قال: «**لن ينجي أحدا منكم عمله**»، فما لا ينجي من المخوف كيف يوصل إلى المأمول؟ ومن صح اعتماده على فضل الله تعالى فذلك الذي يرجى له الوصول.

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لاَ يَقَرُّ قَرَارُهَا دَائِمًا تِسْيَارُهَا، إِلَى أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ القُدْسِ وَبِسَاطِ الأُنْسِ مَحَلَّ المُفَاتَحَةِ وَالمُوَاجَهَةِ وَالمُجَالَسَةِ وَالمُحَادَثَةِ وَالمُشَاهَدَةِ وَالمُطَالَعَةِ، فَصَارَتِ الحَضْرَةُ مُعَشَّشَ قُلُوبِهِمْ؛ إِلَيْهَا يَأْوُونَ، وَفِيهَا يَسْكُنُونَ.

هذه استعارات مليحة استعملها في سفر القلب إلى حضرة الرب. وقد تقدم معنى ذلك عند قوله: (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين).

وحضرة القدس وبساط الأنس هما موضع محط الرحال، وبلوغ الأوطار والآمال من قبل: أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته، وتبطل أحكام إنيته وتنكشف له إذ ذاك أوصاف معروفة كرأي العين، ويكون سره مع الله تعالى بلا أين، فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية، ونال هذه المنقبة السنية، قوبل بأنواع من الكرامات والألطاف، وفنون من تحف السادات والأشراف، وهي معاني هذه الألطاف الستة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، ولا تعرف إلا بالذوق، وكذلك التفرقة بين معانيها.

فحينئذ ألقى السائرون عصا سيرهم، وحمدوا عاقبة أمرهم، وصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم، ومستوطنهم في ذهابهم وإيابهم، إلى ظلها يأوون إذا صلي غيرهم بنيران هواه. وفي دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن متعة دنياه، وهاهنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو، وهذا هو انتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقي.

فَإِذَا نَزَلُوا إِلَى سَمَاءِ الحُقُوقِ وَأَرْضِ الحُظُوظِ فَبِالإِذْنِ وَالتَّمْكِينِ وَالرُّسُوخِ فِي اليَقِينِ، فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الحُقُوقِ بِسُوءِ الأَدَبِ وَالغَفْلَةِ، وَلاَ إِلَى الحُظُوظِ بِالشَّهْوَةِ وَالمُتْعَةِ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِاللهِ وَللهِ وَمِنَ اللهِ وَإِلَى اللهِ .

هذا هو سفر التدلي والنزول، وبه يتحققون بمقام البقاء والصحو، فإذا نزلوا من سدرة منتهاهم إلى سماء الحقوق، وهي حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم عنه، ليقوموا بذلك فعلا أو تركا، أو إلى أرض الحظوظ وهي: حظوظ نفوسهم التي تلابسهم ويحصل لهم الارتفاع بها، فإنما يكون نزولهم إلى ذلك بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين.

ومعنى ذلك: أن يدخلوا في الأشياء بمراد الله تعالى، لا بمراد أنفسهم، ويجدون الإذن من الله تعالى لهم بما يشرق في قلوبهم من النور الذي يجعله الله علما على ذلك.

وقد ذكره سيدي أبو الحسن في بعض كلامه، قال رضي الله عنه: «ومعنى الإذن للولي: نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه، فيمتد ذلك النور على الشيء

الذي يريده، فيدركه نور مع نور، أو ظلمة تحت ذلك النور ينبئك أن تأخذ إن شئت أو تترك أو تختار أو تدبر أو تعطي أو تمنع أو تقوم أو تجلس أو تسافر أو تقيم، هذا باب المباح المأذون فيه بالتخيير فإذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى، فإن قارنته نية صحيحة لفعل بر زال عنه حكم المباح وصار مندوبا.

وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب فلا يخلو أن يلوح عليه لائح الغضب بانقباض القلب، فاحذر ذلك وتجنبه فإنه المحظور أو يكاد. ولا تقطع بذلك إلا ببينة من كتاب الله تعالى أو سنة أو إجماع أو خلاف لمقلد قلدته كمالك والشافعي أو غيرهما من العلماء الراسخين، فاحكم إذن على أصل صحيح.

وإن تكن الظلمة شبه غيم لا يتصدع معه القلب ولا يتفزع به الذهن فتباعد عنه، فإنه يكاد يكون مكروها، ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من هاهنا خلق كثير، ولا تفت أحدا وإن استفتاك، وأعط الورع حقه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، فإن تأدبت هاهنا فعن قريب تأتيك البينة من ربك والشاهد يتلوها منه»، انتهى كلام سيدي أبي الحسن، وهو مناسب لما ذكره المؤلف إلا أن ما فيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف، بل بقي الأمر في ذلك مجملا كما تراه، وتقديره:

فإذا نزلوا إلى الحقوق واستعملوا فيها لم ينزلوا إليها بسوء أدب ولا غفلة، وهو أن لا يشهدوا قيامهم بها من أنفسهم أو يطلبوا ثوابا عليها من ربهم، وإن نزلوا إلى الحظوظ لم ينزلوا إليها بشهوة غالبة قاهرة لهم، ولا منفعة يقصدون إلى نيلها في

دنياهم، بل دخلوا في ذلك بالله مستعينين ولله عابدين ومن الله آخذين وإلى الله متوسلين، قد تولى الله تعالى إدخالهم في الأشياء وإخراجهم منها وأوجدهم ذلك، وعزل عنهم ملكية نفوسهم لهم وصاروا أحرارا كراما.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠] لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي، وَاسْتِسْلاَمِي وَانْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي.

المدخل والمخرج: الإدخال والإخراج، وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين، فالمدخل: هو سفر الترقي، لأنه دخول على الله عز وجل في حالة فنائه عن رؤية غيره. والمخرج هو سفر التدلي، لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حالة بقائه بربه، وتحققه في هذين المقامين، أعني مقام الفناء والبقاء، هو معنى "صدقية" مدخله ومخرجه.

وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه في النسبة والوقوف مع الحظ، ففي المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته، فينتفي عنه بذلك النسبة إلى نفسه، وفي المخرج يستسلم لربه وينقاد إليه فينتفي عنه بذلك مراعاة حظه.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] يَنْصُرُنِي وَيَنْصُرُ بِي وَلاَ يَنْصُرُ عَلَيَّ، يَنْصُرُنِي عَلَى شُهُودِ نَفْسِي وَيُغْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي.

طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره، وطلب منه النصرة به ليكمل حاله، فالنصرة له هي ملاك أرباب البدايات من السالكين، إذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس ومحو دواعي الهوى والحس.

والنصرة به هي مقتضى حال أرباب النهايات من المحققين، لأن بذلك يحصل لهم مرتبة الأمانة ومقام الإرشاد والهداية، وكل واحد من القسمين نصرة على شهود النفس وفناء عن دائرة الحس.

وإخراج النصرة عليه من السؤال والطلب، لأن ذلك من الخذلان وعدم التوفيق، وهو غلبة أحكام نفسه وبقاؤه مع دائرة حسه.

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ القَلْبِ تَنْظُرُ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مِنَّتِهِ، فَالشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ.

إذا أوصل الحق تعالى إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية أو دنيوية، فعليك في ذلك وظيفتان:

إحداهما: أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترين النعمة إلا منه وحده، وترى من سواه ممن أجراها على يديه مقهورا مجبورا على ذلك، مسلطا عليه الدواعي والبواعث، حتى لم يجد انفكاكا عنه، وهذا هو حق التوحيد.

والثانية: أن تشكر من وصلت إليك على يده، بأن تدعو له وتثني عليه امتثالا لأمر الله تعالى، وعملا بما جاءت به الشريعة، قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي حديث نعمان بن بشير ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله**».

وفي حديث أسامة بن زيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشكر الناس لله أشكرهم للناس**».

ولأن الله تعالى اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله، ومن أسمائه تعالى "الشكور"، فليتخلق العبد بذلك، وهذا هو حق الشرع.

وَأَنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَقْسَامٍ :

– غَافِلٍ مُنْهَمِكٍ فِي غَفْلَتِهِ قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ وَانْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ، فَنَظَرَ الإِحْسَانَ مِنَ المَخْلُوقِينَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، إِمَّا اعْتِقَادًا فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ، وَإِمَّا اسْتِنَادًا فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ .

هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة إلى مشاهدة التوحيد ورؤية الوسائط والعبيد.

فبدأ بذكر عامة الناس وهم الغافلون المنهمكون في غفلتهم، أصحاب الظواهر والرسوم الذين قويت دائرة حسهم فقيدتهم ووقفوا معها، وانطمست حضرة قدسهم فأبعدتهم ولم يجلو بها، فنظروا الإحسان من المخلوقين فتعبدوا لهم وطمعوا فيهم، ولم يشهدوه من رب العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته.

ثم هم في ذلك على قسمين:

أحدهما: أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قبلهم، وهذا هو الشرك الجلي الذي يخرج صاحبه من دائرة الإسلام ويوقعه في الكفر والعياذ بالله.

والثاني: أن يحصل ذلك منهم استنادا، أي: اعتمادا على غير الله وسكونا إلى سواه، مع سلامة عقدهم وصدورهم، وهذا هو الشرك الخفي الذي يخرج صاحبه عن حقائق الإيمان ويدخله أبواب النفاق، ونعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه.

وَصَاحِبِ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ الخَلْقِ بِشُهُودِ المَلِكِ الحَقِّ وَفَنِيَ عَنِ الأَسْبَابِ بِشُهُودِ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ، فَهُوَ عَبْدٌ مُوَاجَهٌ بِالحَقِيقَةِ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى مَدَاهَا، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ الأَنْوَارِ، مَطْمُوسُ الآثَارِ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَى صَحْوِهِ، وَجَمْعُهُ عَلَى فَرْقِهِ، وَفَنَاؤُهُ عَلَى بَقَائِهِ، وَغَيْبَتُهُ عَلَى حُضُورِهِ.

هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق، وهم الذين غابوا عن شهود الخلق بشهود الملك الحق، فلم يقع لهم شعور بهم، ولا التفات إليهم، وفنوا عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب، فلم يروا لها فعلا ولا جعلا، فهم مواجهون بحقيقة الحق ظاهر عليهم سناها، أي نورها وضياؤها، سالكون طريقة الحق، قد استولوا على مداها، أي: وصلوا إلى غايتها ومنتهاها، إلا أنهم غرقوا في بحار أنوار التوحيد، مطموس عليهم آثار الوسائط والعبيد، أي: مغلق عليهم رؤية ذلك، والشعور به قد غلب سكرهم، وهو: عدم إحساسهم بالأغيار على صحوهم، وهو وجود إحساسهم بها، وجمعهم، وهو ثبوت وجود الحق فردا، على فرقهم، وهو ثبوت

وجود الخلق، وفناؤهم، وهو استهلاكهم في شهود الحق، على بقائهم، وهو شعورهم بالخلق، وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق.

ومعاني هذه الألفاظ كما تراها متقاربة، وهي ألفاظ تداولها الصوفية المحققون بينهم، وعبروا بها في كتبهم، ووضعوها على معان اختصوا بفهمها ليتعرف بعضهم من بعض ما يتخاطبون به، ولهم ألفاظ كثيرة غيرها، وكأن المؤلف رحمه الله تعالى أراد أن لا يخلو كتابه عن ذكر شيء منها.

وَأَكْمَلِ مِنْهُ عَبْدٍ شَرِبَ فَازْدَادَ صَحْوًا، وَغَابَ فَازْدَادَ حُضُورًا، فَلا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ، وَلاَ فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ، وَلاَ فَنَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ بَقَائِهِ، وَلاَ بَقَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ فَنَائِهِ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ، وَيُوَفِّي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

هذا هو حال خاصة الخاصة الذين حازوا رتب الأكملية، وهم قوم شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم، وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم، وقد ملكوا الأحوال وتمكنوا في مقامات الرجال، فلم يغلبهم محو عن طي، ولم يحجبهم شيء عن شيء، بل وفوا حقوق جميع المراتب، وأعطوها مالها من قسط واجب، وذلك لاتساع نظرهم ونفوذ بصرهم، وهذه هي صفة الصديق ﷺ في القصة التي يذكرها الآن.

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ لِعَائِشَةَ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ الإِفْكِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : يَا عَائِشَةَ اشْكُرِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ : «وَاللهِ لاَ أَشْكُرُ إِلاَّ اللهَ».

دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى المَقَامِ الأكْمَلِ مَقَامِ البَقَاءِ المُقْتَضِي لإِثْبَاتِ الآثَارِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، وَقَالَ ﷺ: «لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ»، وَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُصْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا، غَائِبَةً عَنِ الآثَارِ فَلَمْ تَشْهَدْ إِلاَّ الوَاحِدَ القَهَّارَ.

هذا مثال هذين القسمين، وقد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام فيه، والمعنى في ذلك بين لا حاجة بنا إلى مزيد تنبيه عليه، إلا قوله: (وكانت في ذلك الوقت مصطلمة)، أي: منقطعة عن شاهدها، وهو حكم بشريتها متوفاة عن إحساسها بالكلية، والاصطلام نعت الحيرة ومحل القهر وصفة الدهشة، وفي قوله: (وكانت هي في ذلك الوقت)، إشعار بأن ذلك لم يكن حال لازما لها في جميع أوقاتها بل كان ذلك في وقت مخصوص وواقعة مخصوصة، وذلك صحيح، إذ حالها ﵂ هو حال الكمال في حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته كنحو حال أبيها ﵁، وذلك معلوم من أخبارها وسيرها ﵂.

وقال رضي الله عنه:

وَلَمَّا سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِهِ ﷺ : «وَجُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»، هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ ﷺ أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْهُ شِرْبٌ ونَصِيبٌ، فَأَجَابَ: إِنَّ قُرَّةَ العَيْنِ بِالشُّهُودِ عَلَى قَدْرِ المَعْرفةِ بِالمَشْهُودِ، فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةُ غَيْرِهِ كَمَعْرِفَتِهِ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلاَتِهِ بِشُهُودِه جَلاَلِ مَشْهُودِهِ ؛ لأَنَّهُ

قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ "فِي الصَّلاَةِ" وَلَمْ يَقُلْ "بِالصَّلاَةِ"، إِذْ هُوَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ لاَ تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ، وَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى هَذَا المَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ بِقَوْلِهِ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، وَمُحَالٌ أَنْ يَرَاهُ وَيَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ العَيْنِ بِالصَّلاَةِ؛ لأَنَّهَا فَضْلٌ مِنَ الله، وَبَارِزَةٌ مِنْ عَيْنِ مِنَّةِ الله، فَكَيْفَ لاَ يَفْرَحُ بِهَا؟ وَكَيْفَ لاَ تَكُونُ قُرَّةُ العَيْنِ بِهَا وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ إِلَى الجَوَابِ لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ الخِطَابِ إِذْ قَالَ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ وَمَا قَالَ: "فَبِذَلِكَ فَافْرَحْ يَا مُحَمَّدُ"، قُلْ لَهُمْ فَلْيَفْرَحُوا بِالإِحْسَانِ وَالتَّفَضُّلِ وَلْيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِالْمُتَفَضِّلِ كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

الصلاة هي أجل ما يتحف الله به عباده ويهديه إليهم، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أوتي عبد في الدنيا خيرا من أن يؤذن له في ركعتين يصليهما**» ففيها يحصل لهم الخلوة معه، والانفراد والمجالسة له والانقطاع إليه.

وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار، ويتجلى فيها حقائق الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، وفيها تكون المناجاة والمصافاة كما تقدم، وهي صلة بين العبد وبين ربه عز وجل، قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: «الصلاة عماد الدين، وأول شيء فرضه الله على المسلمين، وفي الصلاة إقبال الله على العبد ليقبلوا إليه في صورة العبيد تذللا وتسليما وتبتلا وتخضعا وترغيبا وتملقا، فالوقوف تذلل،

والتكبير تسليم، والثناء والتلاوة تبتل، والركوع تخضع، والسجود تخشع، والجلوس ترغب، والتشهد تملق، فأقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب، فليس شيء من أمر الدين أعظم من هذه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**الصلاة عماد الدين**»، وقال في حديث آخر: «**الصلاة نور**»، وقال: «**لا يزال الله مقبلا بوجهه على العبد ما دام في صلاته، وإن الله لينصب إلى أحدكم وجهه ما دام مقبلا عليه**».

ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوي الفاقات والضرورات من أرباب القلوب، فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب، ويتسلون بها عن كل محبوب، قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ [طه: ١٣٢]، فواجب إذن أن تكون قرة أعين عباد الله فيها وبها.

وقرة العين عبارة عن الروح والراحة، وكمال النعيم واللذة التي تحصل من غاية الموافقة والملائمة، إلا أنها تختلف باختلاف أحوال الناس في مراتبهم ومقاماتهم، فمن عظمت منزلته وعلت مرتبته كانت ملاءمته وموافقته في شهود التوحيد وكمال التجريد المشار إليه في قوله ﷺ «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى، وفيما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله لعروة بن الزبير رضي الله عنهما: «إنا كنا نتراءى الله بين أعيننا»، وكان هذا لما خطب إليه عروة ابن الزبير ابنته وهو في الطواف، فلم يكلمه ابن عمر، ولم يرجع إليه بشيء، ثم

اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام، فصاحب هذه الحال تكون قرة عينه في الصلاة لا بها، لما تتضمنه من التجلي التام والشهود الحقيقي.

ومن كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته في شهود النعم ووجود الفضل والكرم، وكانت قرة عينه بها لا فيها، لأنها فضل من الله وبارزة من منة الله كما قال المؤلف رحمه الله تعالى.

فلا شك أن معنى "قرة العين" في الوجه الأول، وبه أنسب وأليق، لأن صاحبه فان عن نفسه باق بربه، ومن كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لا سلطنة عليهم للعدو اللعين.

ومن زالت سلطنته عنه في صلاته لم يحتج إلى مدافعته ومراجعته، وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع والدوام والخشوع. وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوه يحصل له غاية النعيم واللذة، ويتحقق في حقه معنى قرة العين بخلاف الوجه الآخر، فإن صاحبه لم يغن عن نفسه فضلا عن أن يرتقي إلى درجة البقاء بربه، فلم ينقطع عنه حديث النفس ولا وسواس العدو، فيحتاج لا محالة إلى مجاهدة ومدافعة فيتشوش نعيمه وتتكدر لذته، فيضعف معنى قرة العين في حقه.

قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «وقرة العين لا تكون لمجاهد ولا لمن يدفع الشيطان عنه، بل هي لمن استراح من المجاهدة والدفع».

ولما كانت منزلة نبينا محمد ﷺ عند ربه عز وجل أشرف المنازل، ومرتبته في المعرفة به أرفع الرتب، بحيث لا يتصور أن يشاركه في ذلك غيره أو يحل به سواه، كانت قرة عينه في صلاته على حسب ذلك، فمن قال إن ذلك خاص به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح، وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»**، بعد قوله: **«إنما حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء»**، ولا شك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس حبه غيره لهما، وإنما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك، ألا ترى أنه أبيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر، وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر، واستعماله ﷺ الطيب وحبه له إنما هو للقائه الملائكة التي تناجيه، وإلا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله، كما قال أنس بن مالك ﷺ: **«ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف** رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

فإذا كان حاله في هذين الأمرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ "الحب"، وهما من لذات الدنيا، فكيف يكون حاله في الأمر الثالث مع أنه عبر فيه بـ "قرة العين"، وهي غاية المحبة، وهو من أعمال الآخرة.

وقيل معنى قوله "من الدنيا" أي: في الدنيا، ومن قال إن لغيره منه شربا ونصيبا على المعنى الذي يليق بهذا الغير فلقوله وجه، وجواب المؤلف رحمه الله تعالى محتمل لهذين الوجهين، والله أعلم بما أراد منهما أو من غيرهما.

فصل

وقال المؤلف رضي الله عنه فيما كتب لبعض إخوانه:

النَّاسُ فِي وُرُودِ المِنَنِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَرِحٌ بِالمِنَنِ لاَ مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِئِهَا، وَلَكِنْ بِوُجُودِ مُتْعَتِهِ فِيهَا، فَهَذَا مِنَ الغَافِلِينَ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤].

وَفَرِحٌ بِالمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَهِدَهَا مِنَّةً مِمَّنْ أَرْسَلَهَا وَنِعْمَةً مِمَّنْ أَوْصَلَهَا، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وَفَرِحٌ بِاللهِ مَا شَغَلَهُ مِنَ المِنَنِ ظَاهِرُ مُتْعَتِهَا وَلاَ بَاطِنُ مِنَّتِهَا ؛ بَلْ شَغَلَهُ النَّظَرُ إِلَى اللهِ عَمَّا سِوَاهُ وَالجَمْعُ عَلَيْهِ، فَلاَ يَشْهَدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

تضمن هذا الفصل بيان ما يحمد من أحوال الناس وما يذم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح إذ ذاك لهم، وينبني عليه ما يكون من ذلك شكرا لها وما لا يكون.

وقد قسّمهم المؤلف ثلاثة أقسام، وجعلهم طرفين وواسطة:

قسم في غاية الدناءة والخسة: وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث إن فيها قضاء أوطار نفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم، فأحوال هؤلاء

مذمومة جدا أشبه شيء بهم الأنعام والبهائم. وهذه أحوال أهل الطرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا القسم. وهذه الأحوال بعيدة من الشكر منافية له.

وقسم في غاية الشرف والجلالة: وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط، ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم، لأجل أن فيها متعتهم ولذاتهم، ولا إلى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم، حيث من بها عليهم، فأحوال هؤلاء محمودة جدا لأنهم غابوا عن الأغيار العدمية وتحققوا بحقائق الوحدانية، كما أشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا القسم، وحال هؤلاء هي الشكر الحقيقي الخالص الخالي من المزج والشوب، لأن المشاهد للمنعم فان عن حظوظ نفسه، فهو يرى الأشياء كلها نعما، فلا تفرقة عنده بين وجود ولا عدم ولا عطاء ولا منع، ولا يخاف عليه من التغيير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره لبقاء حظه.

قال أبو محمد الجريري رضي الله عنه: «من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر». وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: «كل من لم يشاهد المنعم في النعمة كانت النعمة في حقه استدراجا، لأنه يؤديه إلى أن يسكن إليها، فإذا نزعت منه لزمه أن يتغير عليها».

ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة، وهم الذين فرحوا بالنعم لكونها منة من الله تعالى عليهم، فمن حيث شهودهم

للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة، وهي شكر منهم لائق بهم، ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة، فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين، وارتقوا بالوصف الأول عن أحوال الأدنين، فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأوساطهم في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا القسم.

وقد ضرب الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب "الشكر" لهذه الأقسام الثلاثة مثلا فقال:«الملك الذي يريد الخروج إلى سفر، فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس، وأنه مال ينتفع به، وأنه مركوب يوافق غرضه، وأنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظ له في الملك، بل غرضه في الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه به مثل هذا الفرح.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس، بل من جهة ما يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه له غير الملك، لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفرس أصلاً، ولاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه، فيخرج به في خدمة الملك، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقي إلى درجة الوزارة، من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك محل من يعطه فرساً ويعتني به هذا القدر من

العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب.

فهذه ثلاث درجات: فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس، ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، فهو بعيد عن معنى الشكر.

والثاني داخل في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته، بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذه حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذه هي المرتبة العليا.

وأمارته: أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة، ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج، بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه.

ولذلك قال الشبلي رضي الله عنه: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة».

ولذلك قال الخواص رضي الله عنه: «شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب».

وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات، وخلا عن لذة القلب، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة، كما قيل:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فإذن هذا هو شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية.

أما الأولى: فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله عز وجل لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه». انتهى كلام الإمام أبي حامد الغزالي، وهو في غاية البيان والوضوح، وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، ولذلك أوردته هاهنا بكماله.

وَقَدْ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «يَا دَاوُدُ، قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ: بِي فَلْيَفْرَحُوا، وَبِذِكْرِي فَلْيَتَنَعَّمُوا».

بهذا تحققت صديقيتهم، وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم.

قيل: إن عتبة الغلام دخل في بعض الأيام على رابعة العدوية ﷺ وعليه قميص جديد، وهو يتبختر في مشيته بخلاف ما سبق من عادته، فقالت له: «يا عتبة، ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل اليوم؟ فقال: يا رابعة، ومن أولى بهذا التيه مني وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدا».

وقال بعضهم: كنت مسافرا إلى مكة فبينما أنا أمشي إذ رأيت شيخا بيده مصحف وهو ينظر فيه ويرقص، فتقدمت إليه فقلت: يا شيخ، ما هذا الرقص؟ قال: دعني عنك، قلت في نفسي: عبد من أنا، وكلام من أتلو، وبيت من أنا قاصد، فاستفزني الوجد فرقصت، وأنشد في هذا المعنى:

قوم تخللهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في حسن ما تاهوا

ويجوز أن يكون المراد بقوله: (وبذكري فليتنعموا) أي: بذكري إياهم في الأزل حيث لا وجود لهم، وإلا فإن الذكر المنسوب إليهم محل الآفات والعلل، وهم أجل رتبة من أن يكون نعيمهم بشيء ملتبس بهم.

وَاللهُ تَعَالَى يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكُمْ بِهِ، وَبالرِّضَا مِنْهُ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الفَهْمِ عَنْهُ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَنَا مِنَ الغَافِلِينَ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسَالِكَ المُتَّقِينَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

هذا دعاء حسن موفق لمعنى ما تقدم، وهو بين لا يحتاج إلى تبيين ولا تنبيه عليه، فالله تعالى يحقق لنا ذلك بفضله وإحسانه، إنه أرحم الراحمين.

فهرس المحتويات